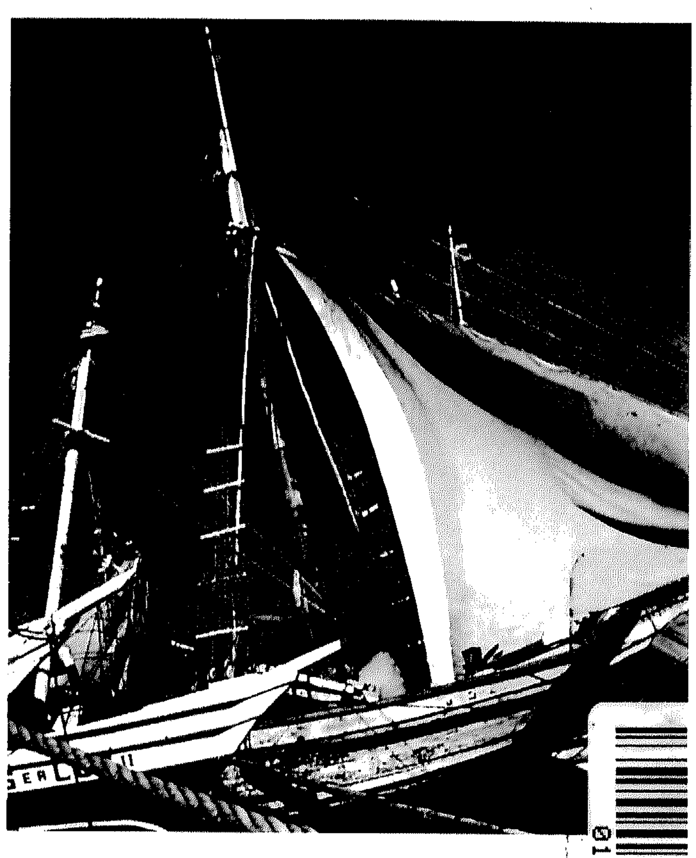
جوزيه سارنيه

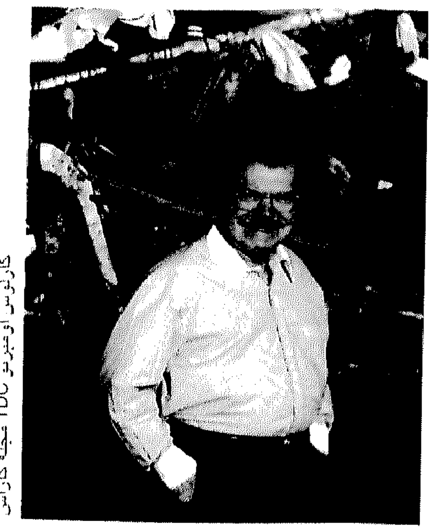
سيد البحار



رواية







كارلوس أوجنيتو TDC مجلة كاراس

ولد جوزيه سارنيه في مارانياو، وأصبح نائباً في سن الرابعة والعشرين بعد أن تخرج من كلية الحقوق.

كان يقوم بنشاطات سياسية وأدبية في آن. انتخب حاكماً للولاية التي ولد فيها ولعضوية أكاديمية الآداب البرازيلية في نفس الوقت، ثم عضواً في مجلس الشيوخ ونائباً لرئيس الجمهورية، وفي العام 1985 انتخب رئيساً للجمهورية البرازيلية حيث بقي حتى عام 1990.

وبعد خمسة وعشرين عاماً من تكريسه كاتباً مع («ما وراء الأنهر» الذي صدر عن دار ستوك)، يعطينا بهذا العمل روايته الأولى.

صورة الغلاف: زورق خاص بمنطقة مارانياو





سيّد البحار



جوزيه سارنيه

سيد البحار

(رواية)

قدم له: جورجي أمادو

نقله عن الفرنسية: اسكندر حبش

راجعه عن البرتغالية: المحامي ألبير فرحات

دار الفارابي

الكتاب: سيّد البحار

المؤلف: جوزيه سارنيه

المترجم: اسكندر حبش

الغلاف: روبيرتو خطلب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01

ص.ب: 3181/ 11

الطبعة الأولى 1999

DAR AL FARABI

(Société des Imprimés Libanaise s.a.l.) Beyrouth - Liban

Tel. (01)301461 – phax: (01)307775 – P.O.Box 3181/11

e-mail: farabi@inco com.lb

JOSÉ SARNEY

O Dono do Mar



José Sarney

Capitaine de la mer océane

Roman

Traduit du portugais
par Jean Orecchioni

Préface de Jorge Amado

HACHETTE

«فخلق الله التنانين العظام،
وكل ذوات الأنفس الحيَّة
الدبّابة التي فاضت بها...»
سفر التكوين ١ ــ ٢١



OCÉAN
ATLANTIQUE
équateur
1 000 km
Alcântara
Raposa
Boqueirão
São Luís
Guarapiã
25 km

ان الخليج الكبير، في شمال البرازيل، هو مجموعة جغرافية، ذات سمات متنوعة، تحوي حيوانات ونباتات متنوعة.

انه منطقة مراكب ـ كالبيانا والإيغاريتيه ـ صيادي مارانياو، إحدى مقاطعات البرازيل الشمالية. عدد من البحار تختلط مياهها على امتداد ساحل شديد التقطع، هناك توجد خلجان سان ماركوس، وسان جوزيه وباناكواتيرا وشبه جزيرة سانتانا.

شطآن رملية، رؤوس، أقعار غير عميقة، جزر، أنهر، جزر مرجانية، شجر المنغروف، صخور بحرية، أطراف محاسر، قنوات، صخور شطآنية. . . أراض وبحور حيث عاش، وأحب، ومات، واختفى فجأة القبطان أنطون كريستوريو، صيّاد عتيق في بحر لا نهاية له، مياه الله والشيطان في آن.



أهدي هذا الكتاب إلى كوستينيا التي عشقت هذه البحار، وإلى جوليو العجوز، رجل الثقة، المسؤول عن جزيرة كوروبو، وإلى الريّس جوزيه أيريس قبطان الـ «سينكو مينيناس» وإلى ريموندو، وجواو، وانطونيو، وفالبينبو، وكومي ـ لومبو، وبينغا ـ فوغو، وأونورينا، وبيستانا، وسامبليسيو، وتاماريلو، وأشادو، وزيه ريميديو، وبيرو، وأغوستينيو، وفيابو، رفاق البحر.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

جورجي أمادو

استحوذت رواية جوزيه سارنيه الأولى على احترام الرأي العام وتقديره، ولقيت نجاحاً وتقديراً كبيرين في أوساط النقاد. تقدير ونجاح تستحقهما، لأن «سيد البحار» تقدم للقارئ رؤية لا تنتسى لبحر مارانياو، في حقيقته وفي أسراره. بحر يعج بالزوارق التي، لا تزال حتى الآن، تجوب بحثاً عن مصيرها. إلى أين تبحر، من أين تأتي تلك المراكب الشبحية، بهذا العدد وهذا التنوع، التي تمخر عباب المياه الهادرة؟ يحتفظ بحر مارانياو بأسراره عن ماض سحيق، يكشفهُ إبحار جوزيه سارنيه. مركبه، كل المراكب التي تبحث عن المرفأ حيث ترسو أخيراً. ذات يوم، سيصلون حتماً إليه...

مارانياو، هي تلك الولاية في شمال ـ شرق البرازيل، في جوار أمازونيا، حيث شيد الفرنسيون مدينة سان لويس في العام 1612.

على شواطئها، في موجوم، عاش القبطان انطون كريستوريو، الصياد الذي ينسج سارنيه حوله شخصيات متعددة: تتفاقم أحداث

الواقع ويتحول في حبكة متشابكة من الخرافات والأساطير، أعيد إبداعها بكتابة غنية وحيوية، تنهل من معرفة دقيقة وعميقة للغة أبناء الشعب.

إنني أذكر الحماسة التي استقبلتُ بها منذ ثلاثين سنة، كتاب جوزيه سارنيه الأول، معتبراً ذلك «ولادة قاصٍ كبير». يومها، لم أكن قد تعرفت إليه شخصياً، ولا أعرف عنه شيئاً. بعد ذلك بفترة طويلة اطلعت على عمله الشعري وعرفت أنه يتعاطى الشأن العام. مرت مياه كثيرة تحت الجسور، وأصبح سارنيه اسماً معروفاً وموقع اعجاب. انتخب عضواً في «الأكاديمية البرازيلية للآداب» وقادته الظروف في العام 1985 إلى سدة رئاسة الجمهورية حيث مارس ولاية تليق بمكانته ككاتب.

أنا مقتنع ان هذا الكتاب يكلل عملاً ذا أهمية ساطعة وأكيدة في أدبنا الروائي. نشر جوزيه سارنيه سابقاً، في مجال المتخيَّل، مصنف قصص قصيرة، اعتبر منذ صدوره عملاً استثنائياً، حيث رفع مؤلفه دفعة واحدة إلى مصاف الكبار في أدب غني بالروائيين لكن يندر فيه القاصون الجيّدون.

بانتقاله من القصة القصيرة إلى الرواية، عرف جوزيه سارنيه كيف يحافظ على مستوى الكتابة الراقي لكنه أضاف نضجاً في الادراك والتأليف لا نجده غالباً في أدب بلادنا. «سيد البحار» تؤكد على مميزات الكاتب: تقدم إلى قرائه معرفة عالم، عالم بحر مارانياو، عالم ساحر وغرائبي.

ج. أ.

I

لم يكن هناك، لا ضوء نهارٍ ولا عتمة ليلٍ فوق مرفأ موجوو، بل نور الفجر الشفقي.

حين وصل أنطون كريستوريو كي يصعد على متن المركب، لم تكن الموجة قد تركت بعد أثراً على الرمل. كان المدّ، راكداً، وقريباً سيبدأ بالتراجع. كان يسير، وقدماه أشبه بقائمتَيْ بطة، مفتوحتين جيداً، على شكل مثلث، وإبهاماه القاسيان، المتباعدان، غارقان في الرمل، ويغوصان فيه، حيث يتركان بصمات عميقة على آثار خطواته. جسده مربوع، قصير، صلبٌ، متين؛ أما ذراعاه، فطويلتان، ويداه الطليقتان، تتأرجحان بلا انتظام. أما أخاديد عضلاته، الواضحة جداً، فكانت تباعد ما بين ذراعيه وساعديه، بين ساقيه وفخذيه، بين صدره وبطنه. كان يرتدي قبعة من القش، قديمة، وسروال صبد قصيراً، مهذّباً بأكمله، وقد جرّدت لونه أشعة شمس البحر. كان عريض الوجه، أفطس الأنف، مائل الذقن، لوحت الشمس لون بشرته، فبدا جلده ذا لون صلصالي وقد دبغته أشعة الشمس ومياه البحر.

ـ صباح الخير، أيها القبطان كريستوريو، قال برتولينو.

ـ القبطان؟ إذهب من هنا! يعرف الجميع أنني لا أحب مناداتي بالقبطان يوم الجمعة، أجابه بنبرة جافة وواضحة، حتى من دون أن يهتز الشراع الذي كان يحمله على كتفه كي يلحق بمركبه.

ـ لكن، أيها القبطان. . . حاول أن يشرح برتولينو.

ـ أيجب أن أعيد عليك؟ لا أحب مناداتي بالقبطان، يوم الجمعة. إذهب من هنا، أتسمع؟ لو أعدت قول ذلك، لقطعت لسانك.

هكذا كان. واضحاً وقاسياً. ابتلع برتولينو الشتيمة. كان يعرف أنهم حين يتحدثون في هذه المنطقة، فهم يقصدون ما يقولونه. فالكلمات، تتحول دائماً إلى أفعال. لقد سالت الدماء مراراً على رمال موجوو. كل شيء يبدأ كما يحدث في البحر. يهب الهواء، وكلمة زائدة، فيتحول إلى عاصفة.

إنَّ لكريستوريو أسبابه الوجيهة كي يمقت أيام الجمعة. لقد اغتيل ابنه جيرومينيو نهار جمعة. كان عائداً من الصيد، متعباً، وما كاد يستلقي حتى سمع صوت نسيبه الذي كان يناديه:

ـ يا قبطان كريستوريو، يا قبطان كريستوريو! لقد حدث مكروه، مكروه كبير. . . أسوأ ما يمكن أن يحدث.

لم يكن يعرف إن كان ذلك حلماً أم واقعاً. كان غافياً فقط. بيد أن الصوت كان ملحاً، بنبرة يائسة:

ـ يا قبطان كريستوريو، يا قبطان كريستوريو. .

وحده الله هنا، يعلم، ما حدث في تلك الليلة. لقد مرّ على ذلك وقت طويل، بيد أنه لم يكن طويلاً جداً كي ينسى.

مشاجرات أعياد، مشاجرات غرام. جيرومينيو، قوة سنيّه العشرين وصحتها، ليالي القديس جان. كان يغني «البومبا ـ ميو ـ بوي»(*) والجميع يرقصون. قادت ماريا دينا، السربندة[1]، لليلة، لليلتين، لثلاث ليال، واستمر العيد. هواء ندي يثمنه الجميع. رائحة نساء، خمر قصب السكر، العتمة اشتعلت الحفلة، ارتفعت الرغبة، وها هي دينا تجيء ملتهبة وها هي تحفّ جسدها هنا، وتبحث عن الرجل هناك، كانت مستعدة لأن تستسلم، وكلها رغبة وفرح بالحياة. غادر جيرومينيو الحفلة، وجسده لا يزال يحتفظ بإيقاع الرقص؛ ومن ثم توجه، كأن شيئاً لم يكن، نحو مخبئه.

ـ دينا، تعالي

جاءت لم تكن ترغب في شيء آخر. ها هو جيرومينيو، وكل عنفوان رغبته إلى الأمام، إلى الوراء. ومن ثم إلى الوراء وإلى الأمام. ارتعشت. تأوهت. وقريباً من كل ذلك كانت الحفلة وكان الزوج. وكل شيء كان بهجة، وكانت ترغب في معرفة المجهول.

لم يتوقف جيرومينيو عن إلقاء كلمات الحب على مسامعها.

ـ وردة الليل المعطرة. ضوء قمر آب. الله خلقك، والله يحفظك.

كانت تستمع. استيقظت غريزتها النسوية، وهذا الجسد الذي كانت تشاهده، كان، في كل لحظة، جسداً يشتهي جسدها. كانت

(*) الكلمات التي تحمل الشارة ذاتها، تحيل القارئ إلى آخر الكتاب.

(1) رقصة قديمة من القرنين السابع عشر والثامن عشر وأصلها فارسي قبل أن تنتقل إلى إسبانيا وعبرها إلى أميركا اللاتينية.

تستمع إلى كل ما كانت توحي به الكلمات ذات المعنى المزدوج واليدان المليئتان بالحنان.

في تلك الليلة، حصلت الأشياء كما تحصل دائماً. إنه القدر.

ـ نبدأ برقصة «الشوت»(*)، ومن ثم أقودك، وأجعلك تدورين، ها هو الشيطان يدلي بدلوه، حتى يثير في الجسد الرغبة في جسد آخر. كانت فتيلة المصباح تشتعل. ثمة ضوء أصفر يصعد إلى السماء مضيئاً تلك الليالي التي نرغب فيها كل شيء.

ـ سنمارس الحب أنت وأنا؟ أتريدين ذلك؟

لم تسمع شيئاً، سمعت كل شيء، وبهدوء، بهدوء، غادرت الحفلة، وها هما، فجأة في الغابة. الرمال، فِراش من أوراق الشجر. النجوم والرغبة. فمٌ مقابل فم، جسدٌ مقابل جسد. روائح تتمازج. والحب يولد، في الجسد، ليَجعل كل شيء واحداً.

رفع جيرومينيو الساري، فتحت ماريا دينا الأشرعة، والنجوم لمعت في ليل السماء. المجال مفتوح. امرأة، أنثى، شعوذة. ذهاب، وإياب، اصطدام بالأرض، مضاجعة، صعود ونزول، حف للأجساد، تكرار.. إنه الامتلاك، أعجوبة ليالي الهناء هذه، المكتملة بلذة متعة الجسد.

لم يعرف أي شيطان هو ذلك الذي دفع زوجها كاريدينو الى اقتفاء أثرها. وفي وسط الحفلة، شعر جيرومينيو، أنَّ نصل السكين العريض في ظهره، كذلك شعر بالبرد وبالحرارة، وبشمس غريبة، وبالحياة تذهب مع الدماء التي تسيل. أما دينا، فكانت وهي تحتضنه، تحتضن الليل والموت، وانتهى بالنسبة إليه، الساري المرفوع، وحلّ الصمت.

بدأت الصرخات ترتفع في اللحظة التي تلت:

ـ يوجد شخص ميت هنا! ثمة دماء، هنا، دماء!

ضجة، استفهامات، بدأ الاستقصاء، لا أحد يعرف شيئاً. ماذا الذي يمكن أن يكون قد حدث إذاً؟

انه الحب. انه الموت. وهكذا تقول أغنية «بومبا ـ ميو ـ بوي»:

إذهب من هنا، أيها الثور، إنهض
ودق الأرض بقوائمك
وإذا ما طفح كيل ربة المنزل
فإن ابنتيها قد طفح كيلاهما أيضاً...
لقد خار الثور، لقد خار، سمعته قائلاً:
لقد ضاجعتهن هن الثلاث...

كان ليل «البومبا ـ ميو ـ بوي» مع ما يتطلبه ذلك من تزيينات وورد. لقد سبق لجيرونسيو ـ الذي يلعب كازومبا، أنْ قال، قبل أن تتحرك الشبيبة:

ـ من الممكن أن يتصاعد الحماس اليوم!

علينا أن ننظر إلى النجوم في ليالي أيام الجمعة، إنها زرقاء، وأحياناً تبدو صفراء. ثمة تيوس وأحصنة تقفز في فجوات السماء السوداء هنا تسكن الشياطين. تراقب الأرض وتجتمع كي ترى أين ستُسقط يد الشر، الذي يطفو، في نداوة المساء، مع الشبكة التي كان الصياد قد ألقاها عند المغيب.

الصمت عميق. النمل يتقدم ببطء. أغصان «الايمباوبا»(*) لا

تتحرك، استعجل الناس ليروا أي سرّ تغلفه تلك الصرخة:

ـ لقد ضاجعها إلاَّ أنه لم يشعر باللذة، قالت امرأة كانت تنظ
إلى ما حصل.

كان جيرومينيو ممدداً في بحيرة من الدماء، وذراعاه مفتوحتين
ليل أسود. حينذاك ذهب غاراتوزو ليخبر العجوز كريستوريو وم
أن بدأ بالسير حتى توقف في وسط الطريق، سامعاً صوتاً:

ـ لا تخبر أبي أنني لم أقاتل. كانت يداي مربوطتين. إنه سحر
دينا. ولم أرَ سوى لمعان بريق شعرها في الليل.

ـ من يتكلم معي؟

ـ أنا، جيرومينيو.

ـ لقد متّ!

ـ لقد مت، إلاّ أنني ما زلت أرى الحياة، وها أنا أبتعد عنها
شيئاً فشيئاً.

*

في المنزل المجاور، على حافة الطريق، أيقظ ضجيج
الأصوات زفيرينا، التي كانت تملك قطعة أرض في تلك الناحية.
رأت ظلاً ـ وسط الأضواء اللامعة ـ كان يحدثها:

ـ من هُنا!

ـ أنا.

ـ من أنت؟

ـ جيرومينيو.

ـ لكنك في البحر مع تانديتو، يا صغيري؟

ـ كلا، أنا في الموت. أرغب في أن تعطيني قطعة دانتيلا، مع بعض مكعبات الورود، لكي أصنع منها ضفيرة رغبة من أجل دينا، زوجة كاريدينو.

ـ لكن أين أنت؟

ـ إنني في عالم الذباب ناقل الجمر. إنني أطير.

ـ لا تجدف. أأنت روح تائهة؟

ـ كلا، إنني كائن بشري.

ـ لا أراك.

ـ لن تستطيعين ذلك أبداً. لم أعد موجوداً.

تقدم الليل، وكل شيء أصبح سحراً. في البعيد، يغنون «البومبا ـ ميو ـ بوي»، ويرقصون رقصاتها التي تسحر ليل الغموض.

*

ـ أيها القبطان كريستوريو، تعال بسرعة..

ـ يا الله، ما بك حتى تناديني بهذه الطريقة؟ ها أنا آتٍ.

ووصل أمام المنزل.

ـ لقد اغتيل جيرومينيو.

ـ ما هذه القصة؟

ـ لقد قتلوه.

ـ أين؟

ـ في حفلة فاوستينو.

بقي كريستوريو صامتاً. حاجباه مقطبان، فكاه مشدودان. دخل

إلى المنزل. كان جيرومينيو رفيق رحلاته البحرية. كان هو الذي يشدّ الحبل، ويبقى صامتاً إلى جانبه، ويلف شباك الصيد. لقد كبر في المركب، كم وكم من الأيام، بلياليها ونهاراتها، أمضياها معاً، منذ أن كان طفلاً. أحنى كريستوريو رأسه، ارتدى قميصه ذات النسيج الخام، شدّ حزامه المصنوع من حبل، وضع قبعته، وخرج محطماً:

ـ لنذهب يا ابن العم. لقد شاء الله ذلك، وأنا أتقبل الأمر.

وصلا إلى مكان الحادث. كان هناك عدد لا بأس به من الناس المجتمعين حول الجثة. ثمة شموع كانت مضاءة على شجرة «الطامبوريل»(*)، حيث التحقا بالآخرين، كانت الدماء تسيل من الجرح، من الظهر إلى الأرض. لم يعد يُرى وجه جيرومينيو، كان ممدداً على بطنه. طلب كريستوريو شرشفاً. ذهبوا لإحضار واحد. لف جسد ابنه، وضعه على كتفه، واستدار عائداً إلى المنزل. وصل. صمت كامل. حين رحل لم يقل لأحد أي شيء. توقف أمام المنزل، كان الجسد ساخناً على ظهره. حينذاك نادى امرأته:

ـ كامبورينا، استيقظي! كامبورينا، كامبورينا.

كان صوته حازماً، جازماً، كما لو أنه يعطي الأمر بإنزال الخطّاف.

انتظر فترة. فُتح الباب. سألت كامبورينا، وهي واقفة في الظل، من دون أن تعرف ما القضية:

ـ ما هذه السمكة التي تحملها على ظهرك؟

ـ إنه جثمان ولدك جيرومينيو.

اجتاحت الليل صرخة ألم. دخل ووضع جثة جيرومينيو فوق طاولة المطبخ، وقال:

ـ لقد أراد الله ذلك ـ ثم أضاف غاضباً، يا ماخور العاهرات!

ابتدأ النحيب وكذلك الصلوات والحزن. بدأ الأصدقاء بالتوافد ما أن انتشر الخبر. اهتموا بالقيام بالترتيبات الأولية· وضع الجثة في التابوت، إلباسها، حفر القبر. كان كريستوريو يدير كل شيء. كان يعمل كما لو أنه يحضّر كل معداته ليقوم برحلة بحرية. كان ينفذ عادات تلك المنطقة. لم تنهمر من كريستوريو أي دمعة. من وقت إلى آخر، وحين يمر من أمام الجثمان، كان يرفع الغطاء الذي يستر الوجه، ينظر، يشيح بصره، ويخرج.

وضع المياه فوق النار، مزج المياه الساخنة بأخرى باردة، تناول شراشف قديمة، وبدأ بغسل الجثة بعد نزع السروال الأزرق.

ـ أطلب من الجميع الخروج، أمر أولاده والجيران.

استمر في تنفيذ التقاليد. كانت يداه تلمسان الجسد العاري، تداعبان الجلد بحنان. غسل قدميه. أدار الجسد بهدوء. كان لا يزال ينزف. وضع فوطة على الجرح، ذهب إلى الغرفة وفتح حقيبة ملابس الشاب، الملابس المغسولة والمطوية بعناء. اختار سروالاً ذا قماشة كاكية كبيرة وسترة بيضاء، فكر بأن عليه أخذ السروال القصير أيضاً، ذاك السروال الذي ارتداه مراراً في البحر. كانت كامبورينا تنتحب، وتقبّل ابنها الميت، وتتضرع إلى الله. البكاء يسيل في المنزل مثلما يسيل المطر في الجداول. ارتفعت ريح قوية أحنت شجرة البلاذر القديمة، المزهرة، والتي كانت أغصانها تمتد نحو السماء كما إلى الأرض، وسط الحقل حيث ينام عرار المروج.

عاد كريستوريو. سحب الشرشف الذي يغطي الجسد. نظر إلى

ابنه جيداً، كما لو أنه ينظر إليه للمرة الأولى. بدت أسنانه بشكل خفيف، من فمه المفتوح، نصف فتحة. أمسك بالشفتين، وشدهما ثلاث مرات. مسح الوجه مجدداً وقبّل جبينه. عيناه مغلقتان، ويداه الطليقتان تتدليّان من على جنبات الطاولة.

رأى عضلاته، بدأ ينظر بإمعان إلى جسده كله. رفع له ذراعيه، ونتف الوبر من تحت إبطيه. أخذ الشرشف الملطخ كي يعصره. بلّله مجدداً في المياه التي تغلي. غسل له عضوه بعناية، وكذلك الأربية، ما بين فخذيه، وساقيه. مشّط له شعره، ووضع ذراعيه، فوق صدره، على شكل صليب ثم بدأ بوضع ملابسه. أرادت كامبورينا مساعدته.

ـ كلا! صرخ في وجهها. أريد القيام بذلك وحدي.

أخذ سرواله، وبدأ يهم بإدخاله في قدميه. لكنه تذكر السروال القصير فسحبه. أخذ سروال الصيد القصير الذي كان يرتديه وهو على المركب، وألبسه إيّاه. سحب حبل الحزام، شده، وعقده. قام بالعملية ذاتها مع السروال. ثم جاء دور القميص بعد ذلك، رفع الجسد، ووضعه بين ذراعيه. حينذاك، فقط، طلب من كامبورينا:

ـ ضعي له القميص. لكن، قبل ذلك، نظفي ما تبقى من دماء على الطاولة.

أدخل الذراعين في الكمين. وضع القميص تحت السروال، وزرّره، ببطء، حتى عنقه.

قرّب قدميه من بعضهما بعضاً، ربطهما معاً بقطعة قماش. فعل الأمر عينه بيديه، على صدره. ذهب إلى الغرفة للإتيان بمشط،

فمرره في شعره من دون أن يصل إلى رأس جمجمته. كان شعره كستنائي اللون. لم يكن لا أملسَ ولا مجعّداً. كان محروقاً جراء الشمس، وتفوح منه رائحة العرق والحرارة. ربطة عنقه كانت مشدودة، مشّطه جيرومينيو مرة أخرى، وقبّل وجهه لم تذرف عيناه أي دمعة، أحضر من المطبخ سكيناً ولفيفة من حبال «الأمبيرا»(*). قَاسَ طول الجسد، ثلاث مرات، وأضاف إليه شبراً تحت القدمين وشبراً فوق الرأس. استل السكين، وقطع الحبل، ثم قال بصوت قوي:

ـ خذ يا غاراتوزو، هذا هو طول التابوت.

غطى الجثمان مجدداً بالشرشف. ثم عاد ليسحب مقعداً وبجلس. بقي طوال الليل، والنهار الذي تلاه، بدون شراب أو طعام. لم يحرك جفناً حتى ساعة الدفن عصر ذلك اليوم، الذي كان صبيحة ليلة مقتل ابنه.

*

بدت المسافة نحو المقبرة طويلة وشائكة. حُمل النعش على أذرع الشباب. ثمة عجائز كن يرتلن أناشيد الموت التقليدية:

يا أم الأرواح

صديقة والدة الإله

إكليل الحقول

أيها القديس لوقا، أيها القديس جيروم

أنقذاني، أنا والدة الأرواح

صديقة والدة الإله.

ثمة باقات من الزنابق البرّية حول هذه المدافن المتواضعة، بقي كريستوريو صامتاً، إلاّ أنه استدار للحظة نحو غاراتوزو وسأله:

ـ أين تسكن هذه المرأة التي ضاجعها جيرومينيو.

ـ على بعد فرسخ من هنا، بالقرب من مرفأ موجوو.

ـ حسناً، أريد أن أذهب إلى هناك.

ـ لا ترتكب حماقة يا ابن العم! اترك الزمن يفعل فعله.

ـ أرغب في محادثتها، من ثم يأتي دور زوجها. لن أطيل الكلام.

ـ انزع من رأسك فكرة الثأر هذه.

ـ حسناً، لنذهب.

وصل النعش إلى المقبرة. وضع على الأرض المغطاة بعُشب منثور. وجدت كامبورينا بعض مواساة عند أطفالها وأصدقائها، بيد أن ثمة نحيباً كان يفلت من بعض الحناجر.

ـ افتحوا التابوت، قال كريستوريو.

ظهر جيرومينيو، والأسى مدموغ حول شفتيه. ركعت كامبورينا، ووضعت رأسها على صدر ابنها، ساحقة الورود الحمراء، المقطوفة من حديقتها.

ـ كامبورينا، قالت جيرمانا، أختها، تقبلي مشيئة الرب.

ـ لماذا لست أنا، بدلاً منه، يا إلَهي؟ أجابت، وقد أضناها اليأس.

كانت عينا كريستوريو تنظران إلى الحفرة بثبات. لم يحدّث أحداً. ولا أحد يكلمه. ابتدأت عند ذاك الصلوات من أجل راحة

النفس. كانت تلك مهمة جيرترودس، إحدى «جدّات» القرية «السوداوات»، وهي إحدى محترفات عمليات الدفن.

لقد عرف لعازر القيامة

وسيشهدها جيرومينيو أيضاً.

لقد آمن لعازر

نحن أيضاً نؤمن بقيامة الأموات

يا والدة الإله..

هبط المساء. والتنهيدات لا تزال أعمق. ثمة هواء في الجو، يحمل عطر اللافندر. اهتزت شجرات البلاذر.

قبل أن يتم إغلاق التابوت، مرر كريستوريو يده على وجه ابنه. قبّله للمرة الأخيرة وقال:

ـ الله أعطى، والله أخذ. ليتمجد اسم الرب.

حاولت امرأة تعزيته:

ـ كان جيرومينيو شجاعاً جداً...

ـ اسكتي يا مشؤومة! لقد مات، أجاب بعنف.

كان القبر مفتوحاً. وإلى جانبه، كومة من التراب. الحفارون مستعدون. الرفش القديم ـ الذي استهلك في تغطية الأموات ـ كان يرقد مهملاً فوق الحصى.

عاد النحيب يتصاعد. الحناجر صغيرة جداً على نشيد الألم العظيم. أنزلت الحبال، التابوت، التي كانت تمسكه من الطرفين، إلى الحفرة ببطء.

وصل إلى أعمق أعماقها. سحبت الحبال مجدداً بعد أن سمع

صريرها على الخشب. اقترب الجميع وألقوا وروداً وأغصاناً خضراء. انتشرت رائحة اللافندر في الجو.

الهواء هو نفسه دائماً. شعرت كامبورينا بالتوعك. رفعت جيرمانا يديها نحو السماء. بدا كريستوريو أشبه بجذع شجرة.

بدأ التراب ينهال رفشاً إثر آخر. وحين سقطت أول كمية منه على التابوت، سُمع صرير صامت، فشعر كريستوريو ببرودة، ثم بحرارة، اجتاحتا جسده كله، في الوقت عينه، من رأسه حتى أخمص قدميه.

لقد بدا ذلك الاجتماع الحزين طويلاً. جاء أناس من الأنحاء كلها. تحدث الجميع عن الجريمة، عن صفات جيرومينيو. ما إن ردمت الحفرة، حتى تجمعت أكمة فوقها، ورميت مجدداً الأغصان الخضراء وزهر الياسمين، الورود الذابلة، والقرنفل الأصفر. أشعلت كامبورينا شمعة، سرعان ما أطفأتها الريح. وضع كل شخص من الحاضرين شمعته على الأرض وبدأ برمي الورود.

أخذ الليل بالحلول عندما أخذت الشمس تختفي، ومال الأفق الى الاحمرار، وبدا وكأنه نار تخبو.

نظرت كامبورينا، المنحنية إلى الأمام، إلى الأرض:

ـ يا طفل روحي! وغابت عن الوعي مجدداً.

أمسك كريستوريو بذراع غاراتوزو وقال:

ـ لنذهب يا ابن العم، أريد أن أصل إلى تلك المرأة قبل أن تحل العتمة بالكامل.

بدا كأنه كتلة من الحزن والألم. وبدون أن يقول أي كلمة لأي كان، ابتعد وسار على الدرب نحو المجهول. سار نحو موجوو.

وبعد أن قطع مسافة ما، نظر إلى جانبه، فشاهد ظلاً. مشى إليه. سمع ضجيجاً، كما لو أنه أصوات بشرية. توجّه إليه. حملته خطواته إلى الغابة، بشكل لاإرادي.

ـ أبتاه، لم أدافع عن نفسي لأنني لم أتمكن من ذلك.

كان صوت جيرومينيو. إلى جانبه، كان هناك تيرنسيو، العم الذي قتلته الحمى في الصيف الماضي. وعلى مبعدة منه، كانت تقف فاريزينا، وباتِستا، الشقيقتان اللتان غابتا، وهما صغيرتان بعد، بسبب مرض طفولي. كان وجه باتِستا، طويلاً، وعيناها مليئتين بالحنان. العينان ذاتهما اللتان رآهما في التابوت الأبيض الذي حملهما، منذ عشرين سنة، إلى المقبرة. لقد ماتت وعيناها مفتوحتان، وقد أغلقتهما يد الوالد، مغطياً النظرات التي لم تعد ترى شيئاً.

ـ أبي، يجب ترميم الـ «بيانا»(*) وإصلاح الشبكة الكبيرة. كنت أرغب في القيام بذلك اليوم، بيد أنني لم أستطع. انتبه إلى مقعد «الأنسياس»(*) إنه ماكر، وهو لا يصلح للنوم.

ثمة شجرة بلاذر كانت محملة بالثمار، يفوح منها عطر أخّاذ. أراد كريستوريو الإمساك بابنه بين ذراعيه، بيد أنه لم يجد سوى الريح، لم يفهم ما حصل. توقف وسأل:

ـ تلك المرأة التي أوصلتك إلى هنا، ألم تقل إنها متزوجة

ـ قالت ذلك، إلاّ أنها ادعت أن زوجها كان في الصيد.

ـ ليحمِ الله روحك، بركاتي إلى الصغيرتين.

كان تيرنسيو سميناً، كأنه يمضي وقته في الأكل.

ـ تيرنسيو، قال، ستتزوج امرأتك مجدداً. ستتزوج رجلاً جدياً، عاملاً.

ـ لا أستطيع الذهاب إلى هناك. لقد علقت ساقاي في حوض شجر المنغروف[1].

ـ وكيف وصلت إلى هنا؟

ـ لقد حملني جيرومينيو بين ذراعيه.

ـ أين أنتما؟

اختفيا.

سمع كريستوريو ضجّة أغصان محطمة، وصوت خطوات في الغابة. عاد إلى الطريق والتقى بغاراتوزو.

ـ هل سمعت؟ هل شاهدت؟

ـ لا شيء أبداً. لقد ذهبت لتتبرّز، وهذا أمر طبيعي. في لحظات مماثلة، لا يعد المرء يتحمل الألم في بطنه.

لم يجب كريستوريو بأي شيء.

ـ أما زالت تلك المرأة بعيدة؟

ـ كلا، على بُعد مفرقين فقط.

في الواقع، وعلى بعد نصف فرسخ، كان هناك كوخ، مغلق بأكمله، بدون أي إشارة تدل على حياة. اقترب كريستوريو ودق بيديه:

---

(1) شجر استوائي تنبثق من أغصانه جذور جديدة.

ـ هل هناك أحد ما؟

ران صمت عميق. تقدم، وبركلة من قدمه، وقع الباب، حيث أطلت منه غرفة ذات أرضية رملية، تفضي إلى غرفة أخرى. وصل إليها بقفزة واحدة. شاهد امرأة تملّكها الرعب. كانت ماريا دينا. عيناها منفوختان من كثرة البكاء، وهي في تنورتها الداخلية وصداريتها. نظر إليها كريستوريو بثبات، وعلى وجهه تعبير حقد.

ـ أنت هي المرأة التي كانت نائمة تحت جيرومينيو، حين اغتاله كاريدينو؟

ـ لا تقتلني حباً بالله! الذنب ليس ذنبي. إنه ذنب الحب. مارسنا ذلك بدون أن نفكر بالعواقب.

نظر إليها كريستوريو بشكل موارب. كانت ظلال المساء قد حلت، إذ تبدو الأشياء والكائنات أغمق، أكثر فأكثر. نظر إليها مرة جديدة بعد. كانت عيناها مفتوحتين إلى أقصاهما، بينما يداه ترتجفان لأنّ كل ما أشعره بالألم في ذلك اليوم ترك آثاره على جسده المحطم.

ـ اخلعي ثيابك. تمددي وأنت عارية بالكامل.

ـ لا تقتلني، لا تقتلني.. قالت ماريا دينا، التي كانت تشعر بثقل تلك النظرة عليها.

ـ اخلعي كل شيء، وفي الحال! أمرها كريستوريو بصوت مليء بالحقد.

بدأت ماريا دينا بالتعري. كانت ترتجف إذ وقعت فريسة خوف مرعب. في البداية، نزعت صداريتها، فبان نهداها، من ثم نزعت تنورتها وسروالها. لم تكن تعرف ماذا تفعل ولماذا تفعله. كانت

تطيع الأوامر. كان كريستوريو جامداً. لقد انبثق من هذه الأسمال جسد فتيّ، ذو ساقين عريضتين، وعلى العانة وبر أسود يعطيه لوناً فاتحاً وغامقاً في الوقت نفسه، شبيهاً بلون أشرعة مركبه، الشبيهة بلون لحاء شجرة القرام[1].

سحب كريستوريو خنجره، فجأة. كان نصله عريضاً، يبلغ طوله ثلاثين سنتمتراً تقريباً. لم يكن يتخلى عنه أبداً حين يذهب إلى الصيد. كان يشحذه على حجر بركاني، وهذا السكين هو الذي ينزع جلد بطن السمك الكبير، بضربة واحدة، واضحة، دقيقة، ومباشرة. أما ظهر النصل هذا، فكان يستخدمه كهراوة يستعملها في ضرباته العنيفة التي كانت تقتل «الباغر»[*]، ليحطم بها أشواكها، وليسحق بها رأسها. كان وجه دينا يعكس خوفاً ينبثق خارج عينيها، كما لو أن الخوف اتخذ شكل بهيمة، ذات شكل وهيئة، أرادت أن تهرب.

شاهد كريستوريو هذا الجسد. كان نحيلاً، إلاّ أنه متناسق. هذا اللحم العاري، في ظل الليل، لم يكن واضحاً جداً، إلاّ أنه كان كافياً ليرى المرأة. تناول سكينه، شد على مقبضها بيده، رفعها، وغرزها في الحائط بكل عنف غضبه.

- افتحي ساقيك، أيتها الكلبة! يا عاهرة الشيطان. لقد جئت لأنهي ما بدأ به جيرومينيو.

كان الليل قد حل، الليل المصنوع من الدموع والرعب.

(1) جنس أشجار منقعية يستخرج من ثمارها نوع من الخمر.

II

شطآن فقيرة. بلاد الصيد، الله، الخطيئة، الحياة. هنا ولد أنطون كريستوريو.

ـ ماذا سنسميه؟ سأل ايزيدورو كويباو الدونا تورنيدا، التي جاءت لتساعد زوجته ناتيفيدادي في وضعها. كانت تقيم في كوخ مجاور

كان نهار جمعة، القمر بدر والموج مرتفع. كانا يسكنان على شاطىء الرابوزا، في قرية للصيادين، على رأس جزيرة سان لويس؛ منزل يشبه المنازل كلها، سقفه من القش، وجدرانه من نخيل «البابَاسو»(*). وفي داخله، أرجوحتان أو ثلاث، للصغار. كانت المرأة والرجال يفترشون الأرض، فوق الرمال، لم يميزوا ما بين النهار والليل، حيث كانوا يعيشون على حركة الأمواج. يصطادون فجراً، ينامون خلال النهار، وفقاً للساعة التي يجرون فيها ومن ثم يعودون. وكم من مرة قضوا أسبوعاً بكامله يصطادون فوق المياه!

هناك فوق حصير، مثل جميع النساء، وضعت ناتيفيدادي

طفلها. استقبلت الدونا توريندا ـ وهي سيدة مسنّة اعتادت على المساعدة في عمليات الوضع ـ الطفل. لقد طلبت أكبر سكين يقطع به السمك، كي تقطع حبل السرّة. من ثم غسلته، في الخارج، على منصة أدوات المطبخ بالمياه الساخنة التي أخذتها من الوعاء الذي كان يغلي فوق قاعدته، بعد أن مزجتها بمياه الجرّة الباردة، وذلك كي تتجنب أي ردة فعل قوية. كان ايزيدورو يمسكه من قدميه، رأسه إلى الأسفل، والدونا توريندا تسكب المياه من طاسة. كان الطفل يزعق. القمر يلمع ولمعانه يغرق الساقية بأكملها.

ـ ماذا سنسميه؟ سأل ايزيدورو الدونا توريندا من جديد.

ـ أنظر إلى التقويم، إلى اسم القديس. خذ، امسك بالمصباح.

ـ ليس هناك أسماء قديسين على تقويمنا. في الماضي، نعم، كان عندنا من تلك التقاويم التي تنزع الأوراق عنها، يوماً بعد يوم. لكن لا يزال عندي تقويم البريستول، إنه موضب هنا. سألقي نظرة عليه. سنتحدث عن ذلك فيما بعد. الآن، يجب علينا لف الصغير وصنع شراب ساخن كي تستطيع ناتيفيدادي النوم. كم ولداً أنجبت، أنت، يا دونا توريندا؟

ـ هنا في ريبوزا، أنجبت سبعة أطفال. لكن حين وصلت إلى هذا المكان، كان لدي خمسة، وكنت قد فقدت ثلاثة. أنت تعرف يا شريكي ايزيدورو، بأنه كان لدي زوج آخر، وقد مات حين كنا في برمييرا كروز. كان صياداً، وكان يعمل مع نيكولاو. لذلك اجتمعنا نيكولاو وأنا، وجئنا إلى هنا. لو نظرت جيداً، لرأيت، أن الأطفال ذوي البشرة الفاتحة، هم أطفال نيكولاو، لأن بشرة

جيزوتينو، وهو اسم زوجي المتوفي، كانت أغمق.

ـ هذه هي الحياة يا شريكتي. إنه طفلنا الثالث، وسننجب طالما استطاعت امرأتي الإنجاب، إن حظ الرجل يكمن في أن يرزق بالأطفال. فالله الطيب هو الذي يهبنا إياهم كي نربيهم، وكلّما أرسل إلينا أكثر، كلّما كان يريد الخير لنا. على كل، حين فكرت بالبحث عن امرأة، كنت أفكر بهذا الأمر. أما في ما يتعلق بمسألة الحمل، فقد كانت ناتيفيدادي على مستوى المسألة. لم تضيّع الوقت، ما أن يخرج واحد، حتى يدخل آخر مكانه، للحال، ولم نتعرض أبداً لأي مشكلة في إخراجه للعالم. ما إن تبدأ بالإحساس بالآلام التي وهبها الله للنساء الصالحات، حتى تقول لي: «ها هو الطفل هنا». وفجأة، ها هو يصل. أرأيت الأمر بأم العين، الآن؟ لقد بدأ الأمر قبل الظهر، حين قالت إنها تشعر بألم في بطنها، وبأنها ترغب في التبرز.

فقلت لها تواً «أتظنين يا ناتيفيدادي، أنه الطفل». فأجابتني: «كلا يا ايزيدورو، إنها السمكة التي أكلتها ظهراً». ولم يزد الأمر عن ذلك، لقد سارت الأمور على ما يرام. كانت تتنقل من طرف إلى آخر، لوت أصابعها، تمددت قليلاً ونهضت، وما أن مرّت فترة قصيرة، حتى كان الطفل هنا. من اللحظة التي أفرغت فيها مياهها حتى الولادة، لم يدم الأمر طويلاً، كما رأيت. إنها امرأة مياضة، ناتيفيدادي هذه.

ـ أريد أن أقول لك يا سيو ايزيدورو: لقد أنجبت العديد من الأولاد، بيد أنه لو كان عليّ إنجاب آخر بعد، وكان صبياً، لأسميته أنطون.

ـ لكنك قلت لي بأن أطلق عليه اسم القديس في التقويم؟

ـ أجل، قلت ذلك، لأنه ابنك، وليس ابني.

ـ حسناً، سأدعوه كذلك، لتشعري بالسرور. أنطون. أتعرفين، يا دونا توريندا، ذات مرة، وكنت في عرض البحر، فكرت بأن أسمي أحد أبنائي، كريستو، بيد أنني قلت لنفسي، إن هناك مخاطرة في وضع صليب على كتفيه. حينذاك فكرت ووجدت اسم كريستوريو، إنه الاسم نفسه من دون أن يكون، لو فعلت ذلك، لعرف المسيح بأن هذا الاسم بسببه، بيد أن الناس لن يعرفوا ذلك، أليس كذلك.

ـ حسناً إذاً، يا سيو ايزيدورو، لماذا لا تدعوه كريستوريو.

ـ كلا، قلت لك إنه سيدعى أنطون، يعني أنطون، لن أتراجع عن ذلك.

ـ ولماذا لا تسميه أنطون كريستوريو؟

ـ أرغب في ذلك كثيراً.

بيد أن ناتيفيدادي صرخت:

ـ ماذا إذاً؟ هل نسيتماني؟ حباً بالله يا عرابتي، تعالي اغسليني، ونظفي كل هذه القذارة.

ـ ها أنا آتية.

ما أن قمّط الطفل، حتى وضع على سرير ترابيّ مغطى بحصير من قش البابا‌سو، مع بعض أكياس القنّب التي استعملت بمثابة شراشف.

ـ دونا توريندا، تعالي أنظري، صرخ ايزيدورو بسرعة! أركضي! أنظري إلى هذا!

كانت غيمة سوداء في السماء، تمر أمام البدر، فبدا الأمر بمثابة وراق مقصوصة، تشبه أسماكاً وأشرعة، من أجل عيد الملوك.

— ما هذا يا شريكي؟ لا أرى شيئاً.

— أنظري! إنه جميل.

كان نور القمر يغلف كثبان الرمل. كان يلمع، فتنعكس صورة لأرض فوق المياه.

— ليتمجد اسم الرب الذي أعطاني طفلاً آخر.

بدأ بتحضير القهوة، وبتدخين سيجارة، في حين نام الآخرون، بينما كان آخر الواصلين يرضع ثدي أمه. عادت دونا توريندا إلى منزلها، لكن من دون أن تنسى إخبار الجيران، في البيوت التي كانت تمر أمامها: «لقد وضعت ناتيفيدادي طفلاً آخر، صبياً أيضاً، سمه أنطون كريستوريو»

*

كان كريستوريو في السادسة من عمره حين ذهب إلى عرض بحر. وكان والده يعمل فوق إحدى مراكب الرابوسا.

منذ نعومة أظفاره، أظهر علاقة حميمة مع المياه. كان في العام لأول من عمره، حين مشى، وكانت قدماه تسيران به دوماً باتجاه شاطىء.

ذات يوم، تركت ناتيفيدادي، الأم، المنهمكة في وضع القدور فوق النار، وفي تنظيف الأسماك على منصة المطبخ، الصغار بلا حراسة في الغرفة الأمامية: كانوا يلهون بالتراب، يبتلعون الرمل، يمضون وقتهم كيفما يستطيعون. وفي لحظة معينة، ذهبت لتلقي نظرة عليهم، فلاحظت غياب كريستوريو. ركضت صوب المبقلة،

فلم تشاهده، فبدأت بالبحث عنه في جميع الجهات. وجدته في مستنقع البط. وحين هبّت لنجدته، كونها ظنته قد غرق، كان يعوم، وعيناه مفتوحتان، ناظراً نحو اليمين ونحو اليسار، محركاً ذراعيه وساقيه، بسهولة كبيرة، كما لو أنه كان موجوداً فوق الرمل.

ـ يا إلّهي! لقد مات.

سحبته من المياه، علقته من قدميه، هزّته بقوّة، كي تجعله يتقيّأ ما ابتلعه. بكى، بيد أنه لم يبصق أي شيء. ومنذ ذلك الوقت، لم تتوقف ناتيفيدادي عن تكرار:

ـ هذا الصبي، سمكة حقيقية.

حين عاد ايزيدورو إلى المنزل، روت له الحادثة، إلاّ أنه لم يصدقها. وسرعان ما انتشر الخبر في القرية، حتى أن الناس توافدوا لرؤية الطفل، وليسمعوا قصة تلك المغامرة.

*

لم يكن قد بلغ الرابعة من عمره، حين بدأ بالمساعدة في إصلاح الشِباك، وفي تجهيز الصنارات، وفي نقل العدة إلى متن المركب؛ وفي مراكب صغيرة، ذات مجاذيف، كان يصل إلى كعب شجر الشورى، ليرمي طُعماً، ويلتقط «بابيستا»(*)، وينزع المحار، وينظف الأصداف.

في السادسة، قام بأول رحلة بحرية له. كان على ايزيدورو، ان يذهب مع المعلم أرتورينو، إلى أعلى منطقة مانويل لويس، حيث كان هناك، ومثلما يقال، سمك الغبّر والطربون بكثرة. فأمكنة الصيد في خليج سان جوزيه، لم تكن تعطي أي شيء تقريباً، كان

المرء يضيع وقته، من دون أن يحمل شيئاً للأكل إلى المنزل.

لحظة المد، ظهر كريستوريو فوق الرملة، وطلب من والده أن يصطحبه معه. وانتهى به الأمر، أن أخذه وحسناً فعل.

ـ لا تفعل ذلك، سيو ايزيدورو، قال أرتورينو.

وأضاف:

ـ لن يجلب لنا هذا الصبي سوى المتاعب. إننا نخرج إلى صيد كبير، ولن يفعل شيئاً سوى البكاء والتقيؤ والتبول على نفسه. علينا العودة، لأننا لن نحصل إلاّ على المتاعب.

ـ لكنه يرغب في ذلك... قال ايزيدورو. إنه سمكة حقيقية هذا الولد. منذ صغره وهو يحب الماء ولا يفعل شيئاً سوى النظر إلى البحر والرغبة في تعلم أسرار هذا الواسع الفسيح. سنأخذه معنا لأنه يستطيع مساعدتنا كونه ولداً موهوباً.

ما أن أصبحوا في عرض البحر، حتى هبّ هواء جنوبي ـ شرقي، وبدأ يهزّ المركب؛ تجوّفت الأمواج أكثر فأكثر، والمركب يعلو ثم يهبط، في هذه الأخاديد، التي كانت تتشكل. لم يكن هناك أي شيء آخر للقيام به سوى التشبث بالمقاعد والسارية. بقي ايزيدورو ممسكاً بمقبض الدفة، جاهداً في المحافظة على الجؤجؤ، من دون أن ينظر خلفه إلى تدفق المياه التي كانت تخبط، والتي، إن شوهدت من أعلى، تصيب المرء بقشعريرة لمجرد أن يُفكر بأنه لن يستطيع الخروج من هاوية مماثلة.

كان أرتورينو متعلقاً بالسارية مثلما يتعلق كسول بجذع شجرة. أما كريستوريو، ومع أنه كان لا يزال طفلاً ولا يفقه شيئاً عن الملاحة، فكان يبدو كثعلب بحار قديم. رمى بنفسه على أرضية

المركب، تشبث بمقعده ونجح في الحفاظ على وضعيته، ناظراً إلى المشهد من دون خوف، كما لو أنه سبق له أن عاش مغامرة مماثلة بمناسبات عدة. أطفأ أرتورينو المحرك، ولف الشراع كله، كي يترك المركب يعوم ببساطة. أصبح البحر هائجاً أكثر فأكثر. وكانت مقدمته تدخل في أعلى الموجة التي كانت تجتاح كل شيء، ضاربة بالمركب من أوله حتى آخره. حاول ايزيدورو وأرتورينو أن يفرغا الماء بواسطة المَطرة الكبيرة، وذلك بإلقاء الماء الذي كان يتجمع فوق الحافة. لقد أوقع تأرجح السفينة، من كل الجهات، القدور والمجاذيف والموقد والأكياس والفحم وصناديق السمك والشِباك في فوضى جهنمية. كانت الأشياء المتساقطة، تضرب هذه الحافة طوراً، وطوراً تضرب تلك، وكثيراً ما كانت تحملها المياه معها. من جهته، لم يكن كريستوريو يشعر بالخوف. احتفظ بتوازنه، وواجه البحر والهواء بخبرة كبيرة، من دون أن يضطرب.

لم تهدأ العاصفة أبداً. أين كان المركب ذاهباً؟ لا أحد يعرف فبدون أشرعة، وبدون دفة، لا مفرَّ من الخضوع للقدر.

استمرت الأمواج بالاتساع، وأصبحت تقسو، أكثر فأكثر. فكانت كجبال من السوائل. والمركب يرتفع ويهبط داخل الحفر المائية، وحين يطفو، تعود مقدمته لتغرق كلها، وليمتلىء بالمياه؛ لدرجة أن المرء كان يتساءل أي أعجوبة سماوية كانت تتركه طافياً.

منتبهاً لكل شيء، كان كريستوريو يشعر أن هذه هي حال البحر: حصان منزوع اللجام يعدو بحرية مطلقة، بلا فضاء أو زمن يسمحان بالسيطرة عليه ووضعه في الطريق السليم. تراءت المياه كأنها أصبحت ذات لون أخضر، بلون الأوراق المتلألئة، المغطاة

بحبيبات بيضاء تنشظى وهي تتلاطم فوق ذروة الأمواج، مجلودة بالريح الذي كان يبدو أنه يجرها، بقوة، إلى معركة أفاعٍ.

استمر الوضع على هذا المنوال لفترة لا تُحسب بالساعات. من ثم جاء مطر عاصف ذو نقاط كبيرة. كل شيء كان أسود. الريح كانت تصفر عاصفة والمطر كان يسقط كما لو أن السماء كانت تتقطع وتدلق كرنباً[1] عملاقاً من المياه المتبخرة لتغرق كل شيء، في أعاصير تدفعها الريح والصاعقة اللتان كانتا تصلان صارختين، كأنهما خوار ثور؛ وحينذاك كان الهواء ينشق، لتخرج منه بروق كانت تمزق السماء من أعلى إلى أسفل قبل أن تسقط إلى عمق المياه، في البعيد. لم يكن ذلك كل شيء. ثمة صواعق كانت تصل بالقرب منهم لتنفجر على المركب، الذي بدا أشبه بحبة رمل، لا تساوي شيئاً لقد كان تائهاً وسط البحر والريح والمطر وانفجار الرعد.

حافظ كريستوريو على توازنه جيداً. لم يكن يتفوّه بشيء، بيد أنه لم يكن ساكناً. كان يتخبط كما لو أنه وجد نفسه وسط صراع ديكة، وكأنَّ هو إحداها. شعر بنفسه متسلحاً من أجل معركة كانت ستدوم طوال حياته بأسرها كان ينظر إلى البعيد، أمامه وبالقرب منه، فيرى أيدي المياه التي كانت تتشابك، وشعاع النيران الذي كان يتساقط. كان يعرف أن الأمر عائد إلى شيطان العواصف، وهو يتلقى، هنا، معموديته. استمر المركب في الغوص داخل ذروة الأمواج، ومن ثم عاد ليخرج منها دفعة واحدة، وهو

(1) نبات مفترش من المصيلة القرعية، يستعمل ثمره كالقناني والأواني

يتأرجح، بينما تفرغ المياه من داخله، كي تعود مجدداً لتلاقي المصير ذاته.

كان زئير الزوابع، والمياه التي تتحطم على المركب، يمنعان سماع أي صوت آخر. كان والده يتحدث. أرتورينو أيضاً. إلاّ أنه لم يكن يسمعهما. ليس هناك سوى الغريزة والمتعة تشعره أن المركب يصارع ضد العاصفة.

لفت الأشرعة، ولم تتوقف السارية عن الاهتزاز كما لو أنها كانت، في كل لحظة، على أهبّة التحطم، بينما كانت كل الأشرعة تخفق كما لو أنها أرادت التحرّر من القلس.

أخيراً، هدأ كل شيء، هدأ البحر، وخيِّل أنه أصبح بحيرة، والمياه الدائرة أصبحت مرآة، كان المركب سجينها. كان عليه أن يعتاد على هذه التناقضات، لكن ينبغي عليهم الآن تحديد الاتجاه، إلاّ أن الأمر لن يكون ممكناً إلاّ عند الليل، بفضل النجوم وضوء منارة إيتاكولومي.

هنا برزت مواهب كريستوريو. نهض وأشار إلى الاتجاه الذي عليهم أن يسلكوه وقال، كما لو أنه كان بحاراً خبيراً:

ـ من هنا، في هذا الاتجاه.

حين سمعه، شعر ايزيدورو بأن هذه الكلمات كانت تعبّر عن أمر صادق من شخص خبير، يجب أخذ رأيه بعين الاعتبار. نظر إلى الصبي. كانت عيناه خضراوين، بلون البحر. أمر كآمر سفينة حقيقي، فأخذ ايزيدورو الدفة بيده واتجه بحسب ما أشار ابنه، سكت كريستوريو. الذي كان مبللاً والهواء لم يجففه بعد.

لم يشك الأب بأن ابنه كان أصيب بسحر البحر منذ مولده، وبأنه سيصبح بحاراً وملاحاً.

ـ ماذا ترى يا كريستوريو؟

ـ أرى البحر. ثمة ميثاق بيننا.

نزع قميصه، قميصه الذي يحبه كما يمكن أن يحب طفلاً، ورمى به إلى المياه.

ـ لو كنت أملك سلسلة ذهبية، لأعطيتها للبحر.

غرقت قماشة القميص البيضاء كما يغرق الرصاص، وسرعان ما ارتفعت حزمة مياه وعلت لمسافة عشرين متراً، مثل نبع متدفق. تملك الجميع اليقين بأن ذلك الأمر كان شيئاً من المتعذر تفسيره، إلاّ أنه من الأشياء التي نراها ولا نتكلم عنها. فالقميص سيعود ذات يوم ليظهر من جديد.

*

قاموا بإحصاء ما فقدوه: الشبكة، أدوات الصيد: لم يعد لديهم مياه شفة ولا نيران للاشتعال. الحل الوحيد أمامهم كان التوجه نحو أقرب شاطىء، أي إلى الكانتارا. فهم لا يعرفون اتجاهاتها مثلما لا يعرفون بحار هذه المنطقة. فعلى مقربة من اليابسة، العديد من الكثبان الرملية والصخور التي لا تظهر إلاّ عند الجزء الأول أو الأخير من الجزر.

كان الليل سيحل، ومن الصعب معرفة الأعماق، مثلما كان من الصعب استعمال المسبار أو المحجن. استمرا في العوم ولاحظا أن الأرض كانت قريبة. كان الاقتراب من الشاطىء بدون فائدة. من الأفضل الابتعاد، الانتحاء وانتظار بزوغ الفجر كي يجدوا مرسى أميناً لإلقاء المرساة.

في تلك الليلة، وللمرة الأولى، شاهد كريستوريو المراكب

الشبحية التي تلاحق الظلمات. كانت باخرة مضاءة تمخر السواد كظل. إنه «كرافيل»[1] ذو حمولة صغيرة، وذو عدد قليل من الأشرعة، يُسمع هديره من طرفيه ـ مثل حشرجة منازع ـ وهما يفتحان وينغلقان كلما اصطدما بالصخور.

مرا بالقرب منه. على الكوثل، ثمة رجل، مترنح، يمسك أوراقاً بيده، صارخاً بكلمات، بالكاد تسمع، نظراً لضعف صوته:

ـ أنقذوا الصناديق التي تحمل أشعاري.

كان ذا لحية طويلة، يسعل، يفتح ذراعيه، والأمواج تتحطم على وجهه.

كان يصرخ، وصوته أجش كصوت مصابٍ بنزلة صدرية:

لبلدي نخيل

حيث تغرد عصفورة «السابياو»

لا سمح الله أن أموت

قبل أن أعود إلى هناك.

كان البحر يخبط بأطراف السفينة، التي كانت تتحطم وتتناثر تحت وقع الصدمات. في البعيد، ثمة زورق إنقاذ تظهر عليه ظلال الناجين، وهم من طاقم السفينة. رأى كريستوريو حينذاك ما كان يراه دوماً: أشباح البحر وأسراره. كان الرجل الملتحي، القصير، يمسك بأوراقه التي كانت تنتزعها العاصفة والأمواج من بين يديه، واستمر في إطلاق صرخات يأسه بين نوبتي سعال، وسط العواصف والمطر المدرار!

---

(1) مركب سريع بثلاث صوار أو بأربع.

لا سمح الله أن أموت
قبل أن أعود إلى هناك.

بعد سنوات عديدة على تلك الحادثة، أعلمه أكيموندو ـ الذي كان يخبره بالقصة تلك ـ بكل شيء عن هذه السفينة الرائعة: إنها «فيل دوبولون» مركب شبح غرق فوق شعاب «الأتين». كان على متنه الشاعر غونسالفس دياز، الذي كان عائداً إلى مارانياو، كي يموت في مسقط رأسه. لقد اختفى جسده في البحر، وبقي هذيانه يذكر للأبد كلّما بدت السفن المضاءة، وهي تنبثق في تلك النواحي.

لم يكن كريستوريو يفهم شيئاً من القصص التي كان يرويها له أكيموندو. بيد أنه في تلك الليلة، تيقن أن البحر مسكون بالأشباح، وسرَّه أن يسأل:

ـ ما هو هذا المركب؟

وأجابه والده:

ـ ثمة سفن تذهب إلى الأعماق وتعود في الليل. من ثم تختفي في ضوء النهار.

*

عند ساعات الفجر الأولى، وجدوا أنفسهم بمواجهة الرمال بالقرب من خليج كوما.

اقتربوا من الشاطىء، رفعوا الأشرعة من جديد، على طول المركب، واستقلوا طريق العودة؛ عندئذ شاهدوا قمة مانويل لويس حيث غرق الكثير من المراكب والسفن على الصخور البحرية الخادعة. هنا، وسط البحر، وعلى طريق السفن، كان هناك تنين

كامن بين الطحالب والمرجان، منتظراً الزوارق كي يمزقها.

أما في البعيد، فكانت المنارة تشير للبحارة، عبر نورها الخفيف، أين يقع مكمن الخطر.

في تلك الليلة، شعر كريستوريو بمصيره. سيكبر بين فنون الحرب وسينذر نفسه لمغامرة الحياة حتى يوم الأسرار والزبد في جزيرة كوروبو.

III

لم يعش والده لفترة طويلة. بيد أن الرفقة لم تنقصه يوماً.

فالبحر يولّد أصدقاء. كيرينتي كان أعزهم. عاش إلى جانبه منذ أيام الشباب. معه، تقاسم المخاطر كلها. معاً، واجها النهارات والليالي، مخرا العباب، اصطادا، شاركا في الأعياد والحفلات، ثملا وأحبا. كان كيرينتي من أولئك الذين يصعب وصفهم. لقد انبثق من البحر وبرفقته عاش كريستوريو الأسرار كلها. كان يعرف معنى لمعان عينيه، لازورد النور الذي كان يشع من حدقتيه، المتبدلتين وكأنهما انعكاس للروح. كم من مرة تذكر أول ظهور غامض له

يومها، كان على متن سفينة تدعى «بابيانا»، وهي ذات أشرعة مخضبة بلحاء شجر القرام، ذات اللون البني الثابت. انها مركب قديم، ذو هيكل مدهون بالقطران، أما جوانبه، فبالأخضر الباهت. كان إذاً في البحر مع عمه تيرنسيو وباسيو، صديق ديميتريو، ذاك الذي وقع ضحية غرق مركب فوق جُرف أنسياس.

لقد ذهبوا ثلاثتهم للصيد بالصنّور بعد أن غادروا مرفأ موجوو،

ذات خميس، بعد الكرنفال: كان أول أسبوع من فترة الصيام إذاً. ذهبوا للصيد في الريسكا، هناك، في البعيد، في المحيط الكبير، حيث لا ترى سوى السماء والماء. هناك، تلتقي الأمواج العملاقة التي يجلبها المدّ، كي يصطدم بعضها بالبعض الآخر، فوق تتابع الشعاب التي تتشابك على طول الشاطىء، حيث تلهو بالتصارع فيما بينها، كما لو أن البحر كان مقسوماً بهذه الأسوار المغمورة، التي كان يأتي منها الكثير من الأمواج والكثير من الإدراك.

لو شوهدت الريسكا من بعيد، لبدت كخط زبد؛ ومن قريب، كاصطدام مركبين، وجهاً لوجه، أحدهما كان يأتي من اليابسة، والثاني، يأتي من اليمّ. في عرض البحر، ثمة إعصار سحيق يمتزج بضوضاء النصول التي كانت تخبط بالصخور الموجودة تحتها. أما من الأعلى، فكانت هناك ذروة الأمواج. أما الشعاب فتأتي من الأعماق الواسعة، بيد أنها لم تكن تظهر رؤوسها؛ كانت متشابكة جداً، لدرجة أننا لا نرى على السطح سوى خط متصل، خط من الزبد، يشبه درباً مفضضاً يحدد في الأفق الذي لا نهاية له، أرضاً غير موجودة. ينبغي الاحتراس جداً حين الاقتراب من هذه الناحية، حيث تنشب بشكل مستمر معركة بين الظلمان[1]. كم من البحارة ـ الذين كانوا يجهلون الساعة والمكان المحددين الملائمين لإلقاء المرساة ـ غرقوا في تلك الأمواج التي ابتلعت عدداً كبيراً من الصيادين، والسفن والمراكب التي افترستها الوحوش. كم من البحارة الآخرين ـ حين يكون المدّ منخفضاً، وحين كان التيار المائي أخف قوة، أي حين كان الريسكا أقل

(1) السنتور.

دفعاً للخوف ـ تمت مطاردتهم وكشطت قعور سفنهم في هذا المكان المليء بالسحر والمواجهات.

بيد أنه كان أحد أفضل أمكنة الصيد في هذه البحار. كانت أسماك الكركند تطفو من الأعماق، عبر المنحدرات الصخرية، حيث تعيش وتتناسل كميات من الرخويات والطحالب والمرجان التي كانت تجذب الأسماك: وهذه الأخيرة كانت تجد هنا ما يجعلها تظهر مجدداً، تجد حافظات طعام حقيقية في قلب المحيط ثمة إسراف أيضاً في القجاج والمارو، وبكل تلك الأنواع التي تعيش في البحر. إن خطر المغامرة في رمي الصنّارات والشباك في هذا السائل السحيق، لا بدّ أن يكافأ عليه المرء، بأن يغرف ملبثاً سرّ نجاح المرء، أن لا يدعهم يجرّونه إلى خضم أمواج التبّارات على خط الريسكا، وبخاصة إذا كان الجَزْر عالياً، والقمر مكتملاً حين يصل البحر بجبروته الفالت من عقاله ويمضي مغلفاً كل شيء من دون أن يطلب الإذن، مشدوداً نحو قدره، بأمواجه التي تقفز، بجنون غاضب، هيستيري، ومن دون أن يعرف إلى أين هو ذاهب، بعد أن تكون الريح والطبيعة بأسرها قد جَلدتها

وصل كريستوريو والعم تيرنسيو وباسيو في الوقت المحدد، كي يضعوا الصنّور في المياه، ولكي يرموا العوامات، بعد أن زيّنوا الصنّارات ـ وهم في الطريق ـ بالطعوم التي التقطوها وقطّعوها بمهارة، إلى شرائح طويلة من اللحم الأبيض، كي يخدعوا السمك، فيعتقد أنها لا تزال حيّة. علّقوا على كل حبل، ثلاث صنّارات، أما مجموع الأجهزة فكان يمتد إلى ما لا نهاية، حيث هناك إشارة واحدة فقط، إذ كانت الكرنيبات تطفو برايات حمراء

صغيرة، يؤرجحها الهواء العاصف الذي كان يقطع نصل السكين. الآن، وبعد أن وضعت النصول في أمكنتها، لم يعد أمامهم سوى النوم، بانتظار انحسار المد، كي يبدأوا في شد الحبال، لينخرطوا في عمل سئيم، ألا وهو نزع السمك العالق بعد أن يسحبوا الخيوط واحداً بعد الآخر، ويقدروا تدريجياً مدى ثقل الغنيمة.

هكذا مضى النهار، حتى السادسة مساء، حتى الساعة التي يغيب فيها النور، التي لا يعود فيها المرء باستطاعته، التمييز بين المحيط وأثر الريسكا المفضّض[1]، الذي كان يلمع أكثر من أي وقت مضى نظراً لشدة العتمة المتصاعدة؛ أما آخر خيوط أشعة الشمس، الواطئة، الأفقية، فكانت تشكل العديد من البؤر المضيئة التي كانت تنعكس في مليارات الفقاعات الكبيرة الناشئة من جرّاء تلاطم الأمواج الضخمة بعضها بالبعض الآخر. في البعيد، كان القرص الشمسي يختفي بين الأخاديد الحمراء الطويلة والغيوم الغامقة داخل الدوائر المذهبة الأطراف بالضوء، على تخوم الكرة الأرضية. في تلك اللحظة، شاهد باسيو هيئة رجل كان يسير على الريسكا، غير مبال بالبحر الذي يضرب بعنف.

ـ ما ذاك الشكل الغريب على الريسكا؟ يبدو كأنه رجل. .

ـ انتظر كي أرى مثلما ينبغي، أجاب كريستوريو. لستُ واثقاً مما هو عليه.

أعلن تيرنسيو، وهو أكبرهم وأكثرهم اعتياداً على هذه الأشياء، إنه ينبغي عدم النظر، وأنه من الأفضل عدم المشاركة في لعبة المظاهر تلك. حينذاك سمعوا صوتاً آتياً من بعيد، حملته الريح،

(1) ذو اللون الفضيّ.

وتستطيع الآذان المجربة، لأناس البحر هؤلاء، أن تلاحظه:

ـ كريستوريو؟ كريستوريو؟ كريستوريو. . .

بقي الرجال الثلاثة مترددين، فلاحظ كريستوريو:

ـ إنه شخص نعرفه. إنه يناديني.

ـ ما معنى «شخص»؟ هذا مستحيل. هل سبق أن رأيتم كائناً بشرياً وهو يسير على الريسكا؟ ممنوع أن يجيب أحدكم، إنه نداء أحد الأشباح.

بيد أن الصوت ألحّ:

ـ كريستوريو، تعال امسك بي. كريستوريو.

ارتأى باسيو أنه ينبغي المضي إلى عرض البحر. أما كريستوريو، من جهته، فكان يرغب في الاقتراب بالزورق. هل يمكن أن يكون، أحد هؤلاء الشرفاء؟ لو كان كذلك، لتعرف على البابيانا، وطلب النجدة.

من دون أن يبالغ بحذره، قرر تيرنسيو الذهاب لإلقاء نظرة عن قرب.

حين رفعوا الشراع وبدأوا بالتجذيف، متجنبين الصخور الغارقة التي يعرفونها، بدأ بالتقدم نحوهم، ماشياً على المياه، وجه رجل ذي لحية طويلة، وذي شعر لم يكن مذهباً أو أشقر، لا كستنائياً ولا أسود، ذي لون لم يشاهدوه من قبل. عيناه خضراوان، يتراوح لونهما بين الأزرق والبني، كلّما أمعن المرء النظر فيهما. كان يرتدي سروالاً منتفخاً يصل إلى ركبتيه، وجوارب زرقاء، وينتعل حذاء كبيراً أسود. كان يرتدي أيضاً كنزة ذات أكمام طويلة وواسعة، فوقها صديرية سوداء تشد نصفه الأعلى، وهي أيضاً،

ذات ياقة بيضاء كانت تغطي له عنقه. على رأسه، قبعة قش مستطيلة، تخرج منها عقاصة حمراء مفتولة.

ـ ألم أقل إنه أحد الأشباح!.. تمتم تيرنسيو الذي رغب في الرجوع عائداً.

إلاّ أن الرجل، السريع مثل البرق، كان قد أصبح واقفاً على مقدم البابيانا. تسمروا في أمكنتهم ومن دون أن يعرفوا لمن سينحازون، بقوا واقفين، فاغري الفم، مضطربين من الذي حدث.

ـ أرغب في أن تنقذوني! كريستوريو، قمْ للمساعدة.

كريستوريو، المضطرب، اندهش قائلاً:

ـ من أين تعرفني؟

ـ من الزمان والقدر. إن مصيرينا مرتبطان.

ـ لكن من أنت؟ سأله كريستوريو أيضاً.

ـ إسمي ديوغو دوسيشاس، حامل أسلحة، رماه ضباط السفينة الشراعية، «القديس توما»، إلى البحر، عند الكوشين، في الهند، وقد غرقت في بلاد الدخان. ومذذاك، وأنا أطفو فوق بحار جميع المحيطات.

ـ ألم أقل لكم، إنه أحد الأشباح؟ ردد تيرنسيو، الذي كان يرتجف من رأسه حتى قدميه. ليحفظ الرب روحك.

فقد باسيو القدرة على النطق، لم يكن يعرف كيف باستطاعة هذا الشخص أن يكون حيّاً بعد، وها هو يشعر بالحمّى والبرودة. كان يرتجف وأسنانه تصطك. أما كريستوريو، المهيأ لمثل هذه الظواهر غير الطبيعية، فقد احتفظ بقدرته على الكلام، وإن كان على أتم الاقتناع، أن الشخص هذا ليس سوى الموت، أو الشيطان، متنكرين.

جلس الرجل فوق جؤجؤ السفينة وبدأ بإلقاء الأوامر الغريبة، مثلما بدأ خطاباً هذيانياً مجنوناً:

ـ استعدوا للانعطاف! ارموا المثلث، اتركوه يحملكم، شدّوا الحبل إلى الميمنة! ارموا الحمولة إلى البحر، وأوقفوا كل هذه البلبلة! حباً بالله، لا تقذفوا بي خارج المركب! لقد أمسكتم بي لأنني كنت إلى جانب ديوغو بايوو، علماً أن لا علاقة لي به.

في اللحظة التي تلت، سرعان ما أسقط نفسه في قعر المركب، وغط في نوم عميق. كانت لحيته تصل إلى سرّته تقريباً، أما رائحته، فكانت كرائحة السمك. لم يفتح فمه إلا كي يتمتم، حالماً:

ـ يسمونني كيرينتي.. كيرينتي.

لم يعرف أحد ماذا يفعل. وشيئاً فشيئاً، أقنعتهم المفاجأة والخوف بإمكانية قبول هذا الحضور الذي بدا الآن، بشكل لا يقبل الشك، أنه منبعث من الجحيم. ارتأى باسيو عدم دفع المركب إلى السير. إذ سيغرقون فيها بعد أن احتلها الشيطان. بدوره، كان كريستوريو قلقاً أيضاً، بيد أنه وجد الحل:

ـ إن كان شبحاً، وهذا ما هو عليه، فسيرحل أثناء الليل مثلما جاء في النهار. إن لم يكن الأمر كذلك، ورغب في البقاء، فإنه سيصل معنا إلى موجوو حين نعود مع أمواج الفجر.

شعر الجميع بالرعب. فالرجل لن يستيقظ أبداً، ولن تصدر منه أي إشارة على الحياة في أي لحظة. كان ينام، ولم يقرر أحد من الرجال الثلاثة، الموجودين على المركب، أن يتمدد. بقي الجميع متيقظين وانتظروا ساعة سحب الصنّور، ورفع المرساة، ورؤية ما

إنْ كانوا سينجحون في العودة إلى موجوو، وهذا ما لم يكن يعتقدونه محتملاً. كان الموت على المركب وهم على درب العالم الآخر.

لم يكن أمامهم سوى مواجهة قوانين الصيد. حين يبدأ البحر بالانحسار، سيرفعون الصنّور. لم تكن هناك أسماك على أي خيط، وهذا أمر لم يحدث مطلقاً في تلك الناحية. لقد أضاعوا وقتهم، وبعد اقتناعهم أن الشبح كان مسؤولاً عن ذلك كله، اتخذوا وضعية محاولة العودة، فجمعوا الخيوط والعوامات ورفعوا الشراع. كان باستطاعة الرجل أن يختفي مثلما ظهر، فهو واحد من الأشباح التي ترتاد البحار، والتي شاهدوها مراراً...

عند شروق الشمس، ذهبوا لرؤيته مدفوعين بالحشرية. لقد تحول، إذ تخلى عن الثياب التي كان يرتديها قبلاً، وها هو يظهر بسروال صيد قصير، مثل الجميع. تبادلوا نظرات الاستفهام. كان كريستوريو أشجعهم، فهزّه كي يوقظه. كان لا يزال بلحيته الطويلة، وشكله كان شكل رجل عجوز. مرة جديدة، سمعوا كريستوريو يسأله:

ـ من أنت؟

ـ أنا كيرينتي، صياد من الرابوسا. لقد غرقت، وقد أنقذتموني.

ـ لكن أمس، عند مغيب الشمس، ادعيت أنك تدعى ديوغو، وبدأت تهذي وتروي قصصاً غير مفهومة. للمرة الأخيرة، أسألك، ألأنت شبح أم كائن بشري؟

ـ لم أعد أعرف يا كريستوريو.

ـ من أين تعرفني؟

ـ من القدر.

في طريق العودة اقتصرت الأمور على الصمت والنظرات، وعندما وصلوا مرفأ موجوو، قال إلى كريستوريو:

ـ سأذهب معك، أرغب في حلاقة ذقني.

تذكر كريستوريو مركباً شبحياً، شاهده في طفولته، بالقرب من منطقة إيتاكولومي، لما كان برفقة والده ايزيدورو. حدث هذا منذ سنين طويلة. عاد ليتذكر شخصية الشاعر الملتحي الذي كان يحمل أوراقه في يده، راجياً الجميع أن لا يفقدوا حقائب مخطوطاته. اليوم، وبعد أن أصبح رجلاً، وعاملاً بحرياً، وبعد أن تعلم أسرار الملاحة، عرف بشكل جيد بأن لا أحد عليه أن يتحدث عمّا يحصل في البحر، وإلاّ تتابعت عمليات الانتقام والسوء. لقد مضت السنوات، واليوم، وقد أصبح راشداً، وفي عنفوان شبابه، فإنه يفكر بالزواج، مدفوعاً بالرغبة. كان يتردد إلى صبية في توكوناندييا، تدعى كيرتيديي، وكان يرغب كثيراً في اصطحابها إلى المذبح.

*

ـ أيتها الأم المقدسة! لقد أعدتِ شبحاً إلى المركب؟ من أين نبشت هذا المخلوق الآتي من العالم الآخر؟ سأل كيبرادو، صاحب حانة موجوو، حينما ألقوا المرساة في المرفأ برفقة الرجل الملتحي.

لم يجب أحد. سُرّ كريستوريو في أن يهمس:

ـ إنه رجل غريق. . أرغب في اصطحابه إلى المنزل.

لم يجد أي صعوبة في اصطحابه إلى منزله. وبما أنه كان

عازباً، كان يحيا وحده، في كوخه، حيث العديد من الشباك. في طريقه، مرّ عند الحلاق، وهو رفيق صيد، بيد أنه كان حلاقاً ماهراً.

وجد كورفينو في منزله. دلّ كريستوريو على كيرينتي وطلب منه أن يحلق ذقنه.

ـ ما هذا الممسوس الذي تصطحبه إلى هنا؟ سأل كورفينو. يبدو أنه أشبه بمزيج من الشعنين البحري والتيوس.

ـ اسمع يا صاحبي: إنه أحد الناجين من الرابوسا وهو لا يرغب في الاحتفاظ بلحيته. لقد تركها تنمو بعد أن قطع عهداً، واليوم يقطع عهداً آخر، لأنه تم إنقاذه، أجاب كريستوريو الذي اخترع هذه القصة بالتواطؤ مع كيرينتي.

لم يعرف كورفينو ماذا يقول. من المستحيل تخيل لحية على هذا الشكل. أمسك بمشطه، سحره القيام بهذا العمل، فترك يده تمر بهدوء على شعيراتها الطويلة. أعاد فعلته مرات عدة، كما لو أنه لا يسيطر على الأصابع التي تقوم بتلك الملامسات المخمليّة. وبما أنه شعر أن يده ليست واثقة من الإمساك بالشفرة، أعاد مدح الفروة السحرية التي لم يشاهد مثلها من قبل. ترك يده تداعب ذقنه، ذهاباً وإياباً، صعوداً ونزولاً، وتفتح واسعاً كي تلامس صدر كيرينتي ورقبته. إنها مهمة بدت له وكأنها لن تنتهي.

ـ احلق له ذقنه إذاً يا كورفينو. كفاك تحذلقاً، قال كريستوريو.

بدا الحلاق أصمّ. فالأمر لا يزيد عن عملية سحر وشعوذة، لا علاقة لها بتمرين مهنته المعتاد. لم يتصور مرّة أنه سيكون عليه أن يعرّي وجه شخص ذي لحية كثة ومعقدة بهذا الشكل. أخذ شفرته

وشحذها على الحجر جيئة وذهاباً. كانت يده ترتجف. أعاد وضع الآلة على الطاولة وتناول فُرشة الحلاقة، ثم وضع الصابون في وعاء صغير، وبدأ يبلل له ذقنه، من دون أن يتوقف عن تأمل وجه الزبون. لم يتحرك كيرينتي الذي كان جالساً على منضدة خفيضة أما كريستوريو فكان يتأمله بحشرية. إنها أطول لحية رآها في حياته: تصل إلى نصف متر.

ـ هيا يا كورفينو، توقف عن حركاتك! احلق له تلك اللحية، علّق كريستوريو مجدداً.

انهمك كورفينو في عمله، مرّر حد الشفرة على كل خد، لغاية وجنتيه. كان الشعر يتساقط على الأرض مشكلاً خطاً طويلاً من ثم انتقل إلى الجهة الأخرى، إذ هاجم قاعدة عنقه، والذقن في النهاية. حين انتهى من عمله، لم تعد يداه ترتجفان مثل ورقة. وكلما كان الشعر يتساقط، كلّما بان وجه الرجل، تدريجياً، حيث ظهر وجه شاب، على نضارة واضحة لم تغزه التجاعيد. حين كان الشعر يسقط أرضاً، كان يتحول إلى اللون الأشقر، اللامع. لم يتردد كريستوريو طويلاً، إذ جمع الشعر وربطه بحبل صغير. لقد بدا الأمر أشبه بذنب فرس كميت. تناول قطعة ورق وحَزمها. بدا كيرينتي في الخامسة والعشرين من عمره، أما عيناه، فبدت كعينيْ قط تلمعان، بينما بدا شعره نحاسياً، يميل إلى البني. لون يتبدل بحسب الزاوية التي نظر منها إليه. البشرة بيضاء، ملوحة، إنها لرجل عاش دائماً في الشمس، وتفوح منها رائحة طين قوية. كان عريض المنكبين المربوعين، طويل قليلاً مثل كريستوريو، لكنه أكبر عمراً. هيأته هيأة رجل وسمته الحياة، لا تشير لا إلى طيبته ولا إلى خبثه.

ـ من أين أنت حقاً؟ سأله كريستوريو مرة أخرى.

ـ من لارابوسا، ولا تطرح عليّ بعد أسئلة تتعلق بحياتي. سأخبرك بذلك ذات يوم. لقد جئت لأكون صديقك.

وهكذا كان. بيد أنه لم يشخ يوماً، إذ بقي يحتفظ بشكله ذاته. لقد شاخوا كلهم: كريستوريو وباسيو وتيرنسيو، أما هو فلا. كان يملك علم التنفس.

ذهبا إلى منزل كريستوريو. كل شيء كان حلماً.

وجد له كريستوريو شبكة، وعلقها في الغرفة. لم يرغب كيرينتي في تناول أي طعام. استلقى وغفا بعمق، بينما بقي كريستوريو مستيقظاً، وهو يفكر بلغز هذا الروح.

IV

عاد كريستوريو ليتذكر حياته لقد قام برحلات بحرية عدة، فوق زوارق مختلفة. حين بدأ المهنة، عمل لفترة على «الإيغاريتيه»(*) التابعة لجواوبينغا، كما على «الكاشويرا دو اشيشا» المعروفة أكثر باسم بينغا ـ فوغو. لقد احتفظ منها بذكرى ضبابية: الشراع الأزرق، المقصورة الصغيرة، الجؤجؤ الذي بدون جسر. كان بينغا عمه؛ والده هو من طلب إليه أن يصطحبه معه على متنها كي يعلمه أسرار الحياة، ونزوات الأمواج وغموض المرافىء. كان يشتري الفواكه من على طول ضفاف مونيم، ليبيعها لاحقاً في مايوبا. فيما بعد، حين كبر قليلاً، انتقل إلى مركب برتولينو، «فلور دو سان جوزيه»، مركب سريع مثل السهم، بشراعه البرتقالي، العامل على خط بريميرا كروز، وهي مدينة صغيرة مزروعة وسط الرمال، وراء جزيرة سانتانا. بيد أنه، لما نبتت ذقنه وشاربه ووبر إبطيه، عمل فوق مراكب أخرى: كارينيوزا، غابيرينا، سيركونفليشا، بابيانا، سان روك، كيروبيم، بيجاشان، بريميرا الملقبة بغاتا. فيما بعد، حين تزوج، اشترى مركبه الخاص وأطلق عليه اسم شيتا فيردي.

في تلك الفترة، كان يعرف كل أسرار فن الصيد. كان يجول مع الأمواج في خليج ريبامار، في مصب باو ـ ديتادو، أمام جزيرة كوروبو. كان يعرف كل مواقع الصيد في تلك النواحي. لقد بنى العجوز ألينكاجور، شيتا فيردي في سان جوزيه. إنه يذكر جيداً ذلك اليوم الذي ذهب فيه، للتفاوض مع البنّاء.

ـ عم صباحاً، سيو ألينكاجور. جئت لأوصيك على بيانا. أريد معرفة السعر والشروط.

ـ إنني أبني مراكب معروفة بدقتها، عملي مضمون، أعتني به، كله ثقة: تستطيع مراكبي مقاومة أي صدمة. استعمل مواد ذات جودة عالية. لا أحد هنا يستطيع القيام بأفضل منها. لا أستعمل إلاّ الخشب الفحل، وهو الأفضل لمواجهة البحر. لا أضع أبداً سارية ذات خشب مقدس، كي تجلب الزواعق، لا شيء سوى خشب «البيكوي»(*). أما عارضة الصاري فهي من «الباكوري»(*) لا أحد اشتكى من عيب يوماً، أو من قاعدة سيئة الصنع. إن مركباً مصنوعاً بهذه الطريقة، يستطيع أن يسير وحده. إنني لا أقوم بهذا الأمر لوجه الله، قال بتعجرف، وهو يعض على طرف سيجارته الملفوفة بورق الذرة، والتي يضعها في زاوية شفتيه:

ـ أستطيع أن أتدبر الأخشاب. ضع لي لائحة، وسأعمل على جلبها من مونيم، قال كريستوريو:

ـ أبداً! لا أعمل بهذه الطريقة. تقدم لي طلباً، ونتفق على السعر، ومن ثم تأتي لتستلم البضاعة. ما عرض البيانا التي تريد؟

ـ 12 شبراً.

ـ سأصنع الهيكل من قلب «الغاناندي»(*) أو من الكبيبية أو الجاكييه وسأغلفها بألواح «الأنديروبا»(*) أو الأرز.

ـ أفضل الباكوري.

ـ هذا أمر عائد للزبون.

بعد مرور فترة، وكان ذلك يوم سبت، ذهب كريستوريو ليتسلم مركبه. كان سعيداً، بيد أنه علّق بالقول:

ـ ما من شك يا سيو ألينكاجور، لقد صنعت لي فلكاً.

نظر كريستوريو إلى مركبه جيداً. فوقع في غرامه للحال. إنه بالضبط المركب الذي كان يرغب فيه. ينبغي على مركبه أن يتعرض للقدر الذي تعرض له، وأن يتألم كما يتألم الكائن البشري.

*

أمواج مارانياو، أمواج قوية: تصل أحياناً إلى ارتفاع سبعة أمتار. حين يرتفع المد، يهيمن على كل شيء. بحر جميل يجتاح الأرض ليصل إلى شجر المنغروف، ليصل إلى الرمال، وليضرب أقدام شجر جوز الهند، لتتمخض عن ذلك، وعلى طول الشاطىء، طبقة طينية ذات أمتار عدة، مليئة بكل أنواع السلاطعين، التي تقرقر في كل الاتجاهات، بحثاً عن ملجأ، بعيداً عن جذور شجر الشورى. مع الجزر، يعود البحر، لينسحب من على الرمال، تاركاً طبقة ناعمة تصل إلى طول كيلومترين. تتشكل جُزر صغيرة وسط الخلجان، مؤلفة حشفات رملية، بينما تصبح المياه داخل الأجوان، قليلة العمق. تشيّد المراكب بعناية خاصة، حتى إذا ما

كانت ترسو بشكل جيد، وتراجعت المياه، فإنها تبقى جافة على الشواطىء، فوق الطبقات الرملية الناعمة. فتتغلغل أشعة الشمس في الخشب، فتتشقق الفواصل ويتمدد الجلفاط[1].

ليست الشمس هي التي تنظّم حياة الناس، إنما حركة المياه، في تقدمها وتراجعها، في مدّها وجزْرِها المستمرين اللذين يخلّفان الفراغات الكبرى لساعات الانتظار؛ حيث أشرعة المراكب الصغيرة التي تنتظر على الشاطئ حيناً وتُنزل أشرعتها وتعود إلى اليابسة أحياناً أخرى. ولكي تعود إلى الإبحار ثانية، يجب أن يرتفع المدُّ مجدداً. حينها ترفرف الأشرعة، وهذا ما يحدد مساحة الزمن الفضلى لأوقات الصيد. تذهب مع الجزْر وتعود مع المدّ. إنها الوسيلة الوحيدة لكي تستطيع أن تعود إلى المرافئ. وبحركة التعاقب هذه، تأخذ المياه تلاوين الأرض، حاملة معها الحطام والفضلات كما تتلون بالأمطار التي تمتزج بمياه البحر، غاسلة الضفاف النهرية وجاحفة كتل الوحل؛ هنا تتشكل جنة للأسماك المتواجدة بوفرة، لكثرة مواد الغذاء فيها. فالبحر خصب كريم، والبحر أيضاً أغنى، مثله مثل الأراضي الزراعية.

*

لم يضع ألينكاجور المركب الجديد بين يدي زبونه، إلاّ عند ارتفاع البحر.

لقد حدث تمدد البحر عند الرابعة من بعد الظهر. عند ذاك، خرجت الـ «بيانا» من مخبئها ـ ورشة بناء المراكب ـ لتهبط إلى

(1) الزفت أو المادة العازلة التي تسد ضرور السفن.

البحر. منذ شهرين، لم يفكر كريستوريو بشيء آخر، سوى بمركبه، وبالاسم الذي سيطلقه عليها. فكر في البداية باسم موجوو، إلاّ أنه سرعان ما غيّر رأيه، إذ أراد اسم امرأة. فكّر بأستريلا دالفا[1]، إلاّ أنه وجد أن العديد من المراكب تطلق على نفسها الاسم ذاته. في النهاية، وبعد تفكير طويل، وقع اختياره على اسم شيتا فيردي. هو نفسه لم يكن يعرف لماذا اختاره. بيد أنه تذكر لحظتها تنورة فتاة هندية، خضراء اللون، كانت ترتديها ماريا كيرتيدي، أول فتاة وقع في غرامها.

إنها التنورة التي شاهدها وكان الهواء يتلاعب بها، إلى الأعلى، لينكشف تحتها عن سروال صغير من الدبلان الأبيض. يومها، شاهد لأول مرة، ذلك العالم المجهول الذي طالما حلم به، للجسد الانثوي، متمثلاً في تلك المراهقة التي رغب فيها، رغبة سبق له أن شعر بها حين علقت بصنارته الغوريجويا[*] يوم كان يذهب للصيد مع مانويل بوساغا، في لياليه القاتمة صحيح أنه فكر أيضاً، بأن يعطي مركبه اسم ماريا كيرتيدي، لكنه لم يجرؤ على ذلك. إذ سيسأله الجميع من تكون صاحبة الاسم، وعمّا حدث بينهما. لقد خُطفت كيرتيدي، من جراء عملية سحر. ولم تعد تظهر إلاّ وسط جبال المياه، عندما يعيد اجترار حياته، وعندما يعود ليستدعي ذكرياته. إنها أول امرأة عرفها، التقى بها مرة واحدة، وبسرعة حصل بينهما ما حصل، من دون أن يكون على دراية بهذه الأشياء. بيد أن الساعة، ليست ساعة الذكريات. حدث كل شيء بسرعة، وللمصادفة، فإن قصة كيرتيدي، لم تكن

---

(1) حرفياً: نجمة الصبح.

من تلك القصص التي يجب تذكرها. قصة حزينة جداً، فأن يطلق اسمها على مركبه، أمر سيعيد إحياء الأشياء القديمة والمؤلمة. من الأفضل اختيار اسم شيتا فيردي: اسم يدل عليها ولا يدل. هو، كان يعرف من هي، أما الناس فلا. على كل، أهو مجبر على إفشاء أسراره؟

بدأ المركب بالعوم وحانت الساعة ليسير به إلى موجوو.

أظهرت[1] شيتا فيردي، وهي تتأرجح على إيقاع الأمواج، أن لها شخصيتها الخاصة. لكن كريستوريو، ما إن شاهدها، حتى تذكر كيرتيدي. فهذا المركب، هو بالضبط، المركب الذي كان يتصوره، لما تمنى شراء مركب بماله الخاص. مركب جديد، لم يمتلكه أحد من قبل، مركب خاص به، مركب له وحده فقط، مركب لم يصعد أي صياد آخر على متنه، أو أي قائد آخر على دفته. لم يكن يعلم، وبأي طريقة، كان المركب بالنسبة إليه، يملك شيئاً أنثوياً. قبض على الدفة، أمسك بها بحزم، وسار إلى اليسار بشكل مستقيم، إلى العمق، كما لو أنه يعلو الريح. من ثم، أدار الدفة بشكل معاكس، إلى الميمنة، كما لو أنه يرغب في الإبحار، في عمق اليم. عندها بدأ باكتشاف ما يملكه مركبه هذا من سحر. يشبه الأمر، رجلاً يمسك يد فتاة، أو أنه يمسد نهدي فتاة يحبها. كانت تتأرجح من جهة إلى أخرى، بثقة، كنهدي شابة بتول.

شقت شيتا فيردي العباب. تخاتلت لتصل إلى عرض البحر،

(1) يتم الحديث عن شيتا فيردي بصيغتي المؤنث والمذكر وذلك عائد إلى النص الأصلي؛ فحين يستعمل المؤلف كلمة مركب نترجمه هنا بصيغة المذكر، أما حين يقول «بيانا»، فنلجأ إلى المؤنث.

تجاوزت رأس حافة النهر، وكنيسة سان جوزيه، المنتصبة في الأعلى، لتراقب البواخر والصيادين. أقلعت بعزم، بسرعة، انزلقت فوق رؤوس الأمواج التي كانت تصل من بعيد صوب الضفة، كانت مجهزة بشكل متكامل، الشراع المدبوغ بلون البلاذر يرفرف بلونه البني الغامق، ويشق الريح في تقدمه، مُجتذَباً من طرفيه، متوجهاً نحو بوابة الخليج، كي يواجه تدفق الأمواج ليصل إلى المحيط، ليلتف حول رأس حاجز الإيتاباري الأحمر. عند ذاك، بدأت الريح تعصف من الخلف، فانساب المركب كسهم حتى مرفأ موجوو.

كان سعيداً. على المقعد، تحت الصاري، كان هناك جيرومينيو ـ الذي بلغ لتوّه العاشرة من عمره ـ الضليع بكل فنون الملاحة. التقيا بالعديد من المراكب. كان يعرف بعض أصحابها. فالمركب ذو الشراع الأصفر الذي كان يمر بالقرب من جزيرة سانتانا، كان مركب سيمبليسيو. ثمة مراكب وأفلاك صغيرة، من ذات الدوقل الواحد، تبحر على مقربة. كانت مسافة الرحلة، من شاطىء فييرا، حيث شيّدت البيانا، حتى مدخل قناة تيمبوبا، تساوي مسافة مدّ البحر وجَزْره. لقد انطلقت عند بداية انحسارالمد، وستصل حين تبدأ المياه بالارتفاع. هذا البحر حياته، قصته كلها. نظر إلى رأس باناكواتيرا وقال لابنه:

ـ سبق أن غرقت هنا، في هذه الناحية، بالقرب من الحاجز الموجود هناك. المركب الصغير الذي كنت على متنه، استدار على نفسه، ولم يصمد. لقد دخل رأسه في قلب الموجة ولم يخرج منها. امتلأ بالمياه. حسناً، قمنا ما استطعنا القيام به لإنقاذه. استطعنا إعادته إلى وضعه الطبيعي وذهبنا لربطه بأوتاد مصبدة

السمك القديمة المهملة. توقفنا في مكان غير بعيد من القفة. حلّ الظلام، وتوجب قضاء الليل هنا. إن الأمكنة التي نجد فيها مصائد السمك القديمة، مليئة بالأشباح. مصيدتنا كانت ذات حجم كبير. من الخارج فقط، كانت تصل إلى حدود الثلاثين متراً. أتعرف أن مهنة بناء مصيدة للسمك مهنة صعبة. إن الباني هو الذي يختار المكان، ويشيد الممرات، فحين يصل السمك، يتوجه فوراً إلى الكعب، فيقع في المصيدة على شكل قلب. فيما مضى، كانت تُشاد بالقرب من الشطآن، وبالحجر. بيد أنه كان يطلق عليها اسم آخر.

ـ هل استطعتم إنقاذ المركب؟ سأل جيرومينيو.

ـ أجل، بيد أن المصيدة كانت نتنة وخربة جداً، والموج المتصاعد كان يغرقها زيادة، إذ يرمي المراكب باتجاه الأوتاد. اللحظة التي ازداد فيها الوضع سوءاً، هي اللحظة التي وصل فيها، ليلاً، طائر كبير، أسود، أشبه بلون الجحيم. لم نكن نرى سوى نور الخشبة المشتعلة، كأنها مصباح؛ فبفضل هذا المشعل، استطعنا أن نرى ضخامة الحيوان.

ويعد أن لاحظ أن الزمن مضى وحده، قال:

ـ ها نحن في اتجاه مدخل غاييبا. لقد قطعنا مسافة طويلة، ونحن نتحدث. لقد شيّدوا طريقاً للذهاب إلى هناك. إنها مجرد ضيعة.

توقف كريستوريو عن استعادة ذكرياته المتعلقة بالمكان الذي هو فيه، وعاد للحديث عن الشيتا فيردي:

ـ مركب جميل يا جيرومينيو.

ـ حقاً يا أبي، مركب جميل جداً.

ـ تريد أن تضحك يا صبيّ! أؤكد لك إنه شيء عظيم؛ انه ليس كأيٍّ مركب. لقد شيّد للإبحار كما ينبغي، هذا أمر مؤكد.

إنها نهاية الرحلة. وصلا إلى مشارف مدخل موجوو، وباستطاعتهما الآن رؤية المرسى، والبيت الصغير المعزول في الأعلى، بالقرب من شجرة الباباسو. غطت شبكة الليل كل شيء، بحيث لم يعُد ليظهر سوى نور متقطع، كان يغيب ويعود. كان مرفأ موجوو عبارة عن بحيرة تصبُّ في قناة تيمبوبا، لتخرج منها، على شكل جزيرة واسعة عند المدخل، وتضيق عند المخرج، الذي يقع بالضبط، في مواجهة القرية.

دفعتهما ريح لا بأس بها، فشططا باتجاه المرسى، ألقيا المرساة، حملا جرّة المياه العذبة، والسكين الكبير الذي يقطع به السمك، وكل المعدات التي قد تسرق، وبدآ السير.

ـ قل لي إذاً، يا قبطان كريستوريو، ها قد تزودت جيداً، ودفعة واحدة! مركب جميل حقاً، ذو جنب قاس، مع هذا الجؤجؤ المنتصب كما ينبغي. ستثير الحسد.

هكذا ألقى عليه السلام، زي بيرزيغا الذي تابع بعينه، وصول المركب، منذ أن دخل القناة.

ـ أتصدق إن قلت! إنه ليس مركبي فقط، بل لنا كلنا. إنه مُلك موجوو.

وصل إليه سعيداً جداً. ران صمت عميق لم يكن يغطي سوى سعادته. وضع يده على الباب ودخل. الجميع نيام. كانوا سبعة

أطفال، بالإضافة إلى كامبورينا وأختها جيرمانا.

ـ استيقظي يا امرأة، واصنعي لنا القهوة. لقد جئت بالمركب. الآن، نملك مركباً في هذا المنزل، يدعى شيتا فيردي.

ـ ولماذا شيتا فيردي؟

ـ بسبب ماريا كيرتيدي.

ـ أثمة حاجة لحقيرة توكونانديبا تلك؟ حتى أنها ليست كاثوليكية!

ـ لقد قضي الأمر. لقد تذكرت التنورة الخضراء التي كانت ترتديها. حسناً، أنا متعب. سأذهب للنوم. أشعلي النار وعلّقي الشباك.

كان الصغار يغطون. ومن شباك جيرمانا تتصاعد رائحة اليانسون. ثمة أسباب موجبة لكي تفوح منها عطور الليل.

ـ آه! قال. الحياة وأسرارها.

ونظر مجدداً إلى جيرمانا، شقيقة زوجته.

٧

لم يكن أحد يعرف بالضبط كيف بدأت قصة كيرتيدي. حين التقاها كريستوريو، كانت تعيش على شاطىء توكوناندبيا، في قرية صغيرة للصيادين، مليئة بالماشية وشجر جوز الهند. يومها، كان يعمل على متن باخرة مانويل بوزاكا. ثمة مرفأ في القرية، كانوا يستطيعون، فيه، انتظار انحسار المدّ وتجفيف السمك، وقضاء الليل كي لا يناموا في عرض البحر. كان كريستوريو في الثامنة عشرة تقريباً. كانت مهمته الدائمة، سحب «البينابو»(*)، عندما ينبغي، لمنع المركب من كثرة الاهتزاز تحت وقع الريح. مضى زمن طويل على ذلك. إلاّ أن ذاكرته لم تتوقف عن استعادة تلك الأيام البعيدة. وهذا ما حصل في تلك الليلة.

كان ذلك في عز الليل، ليل بهيمي أسود؛ تخفي فيه الغيوم النجوم كلها، التي لم تكن تظهر إلاّ في قعر السماء. كان كريستوريو واقفاً على الدفة، ممسكاً بالساري. لم يكن يميز شيئاً، ويدير الأمور وفقاً لتقديراته، معتمداً بذلك على السماء وعلى تجربته في البحر. كان يعرف أن الهواء الرطب الذي يهب من اليابسة، يهب من الجانب الآخر للشعاب. كانت الأمواج المرتفعة

تغمر كل شيء. لم يكن عليه سوى ترك الأمور لأن تأخذ مجراها، بدون خوف من السقوط، أو بلا قلق من الأعماق. في مقدم السفينة، كان جيرومينيو وكيرينتي ينامان على مقعد الجؤجؤ، غير محتميين من الهواء البارد الذي كان يهب. في لحظات مماثلة، يترك العنان لأفكاره. لم تكن أذناه تسمعان سوى خرير الماء والماضي. كانت الأشياء تطرأ على باله، كما في حلم، يتذكر ويمزج الوقائع والأيام، الماضي والناس والأحداث وذكرى الليالي والسهرات.

«إنه البحر، البحر هنا، موجود مثل العالم والناس وكل شيء. ينسكب كالليل على الأرض وعلى كل ما هو موجود على سطحها. البحر، طبيعة سائلة تستولي على كل ما هو موجود وعلى كل كائن حيّ. البحر، مثل النغر، الريح، الغيم، الزمن. يأتي ويذهب. إنه الحياة، إنه الموت».

هذا ما كانت عليه هذيانات كريستوريو وهو يبحر باتجاه الأنسياس.

«الأشياء التي تحدث لا تتكرر. يحفر البحر طريقه في رأس الصيادين. إنه حلم وسمكة. ينسكب الله علينا. لتسقط المياه، ليخضب هذا الملح روحي، ليكن كل شيء سرّ الحياة».

نظر كريستوريو باطمئنان إلى السماء السوداء والريح. شعر بحركة الأمواج عبر تأرجح مركبه.

ـ كريستوريو، أين هي كيرتيدي؟

ـ في ظل القمر. في مملكة الأعماق البحرية.

ـ كيف ذلك، بما أنها لا تزال حيّة في ذاكرتك؟ ألم تعد ترى

إذاً تنورتها التي ترفرف، حركاتها الأنثوية؟

يا لمشيئة القدر. . .

في هذا المساء بالذات عاد كريستوريو ليتذكر جزيرة توكوناندييا، بينما كانت يده المعرّقة تداعب شعره الطويل، ولحيته البيضاء المبقعة بنقاط سوداء. ثمة حياة طويلة خلفه. لم يكن عدد سكان القرية يزيد عن مئة نسمة، بمن فيهم الرضّع والعجائز. في وسط شجر جوز الهند، تنتصب بضع منازل على طول الشاطىء، تحت الريح، بشكل نصف دائري. أناس جادون. كميات من الأشجار المثمرة، أمكنة معروفة، تُسحب منها المياه العذبة، أمكنة لشواء السمك والثوم وشراء الفاكهة. كان شاباً في تلك الفترة، وقد تمرَّس على معرفة أسرار البحر.

في طرف الضيعة، كانت كيرتيدي تسكن بيتاً صغيراً مغطى بالقش: جدرانه من النخيل المجدول وبابه من البورياء، وأرضه من الرمال، وبجانبه، قفص بط.

في تلك الفترة كان كريستوريو يعمل على متن مركب بوزاكا، وغالباً ما كان يأتي إلى توكوناندييا، للصيد. في ذلك اليوم، كانا قررا أن يتوقفا هناك لبرهة، كي يشتريا الكلمنتين[1]. في كل مرة كانا يصلان فيها إلى هذه المنطقة، كان كريستوريو يذهب مباشرة إلى منزل كيرتيدي، التي لم يتوقف عن مغازلتها والدنو منها بشغف وحتى محادثتها عن الزواج. وصل يومها باكراً، وفي فترة بعد الظهيرة، اقترح عليها الذهاب لقطف «السارنامبيس»[*]. تناولا صفيحة قديمة، ومَطرة وسارا عبر القناة الجافة، وبحثا في الطمي.

(1) نوع من الليمون الأفندي.

قرفصا، أدخلا أيديهما في التراب، مسحا الطمي. كل هذه الأمور كانت حجة للمغازلة. بدأ بالنظر إليها. إلى فخذيها في البداية، بينما كانت جالسة على عقبيها، تنظف الأصداف. نظرة ملحة تفحصت شكلها بعناية، حيث بدأت الرغبة بالاتساع. ها قد حلت لحظة الألعاب الصغيرة، الأيدي التي تتلامس، هنا وهناك، الأشبه بخفقات أجنحة طيور لحظة الوكع.

ـ يكفينا ذلك يا كيرتيدي، علينا العودة.

ـ لنذهب.

وعادا عبر الدغل، تجنبا الرملة. وضعا القفة على التراب، كانا يعرفان جيداً لغة البحر الصامتة. بدآ الغناء، التهلل، إطلاق الألحان العاطفية التي تهدهد. اشتدت الحرارة، اهتزت الشفتان، والأيدي الطليقة بدأت بالمداعبات الحرة، ومن عرق الحب، فاحت رائحة الجسد الشاب القوية، الجسد المدبوغ بالشمس والهواء البحري.

ـ أرغب في ممارسة الحب معك، يا كيرتيدي.

ـ لا زلت عذراء.

ـ لن أمضي إلى النهاية. اليوم، فقط كي نبدأ، سنقوم بأشياء أكبر في المرّات القادمة. سنصبح زوجاً وزوجة.

ـ يقال إن الأمر مؤلم.

ـ كلا، سأفعل ذلك بهدوء.

قبلها كريستوريو بشدة، كما لو أنه كان يسحب الهواء من مقدم السفينة. طال العناق الذي تركهما يتمددان على الرمل، ليتدحرجا في كل الجهات، شعرت بالرغبة والخوف معاً.

ـ ها قد أصبحت في سن النضوج يا كيرتيدي. أريد الاقتران بك

حاول تهدئة مخاوفها بحيث أن تستسلم كي يجعل قوى الطبيعة تتحرك.

ـ في الشهر القادم، سأعود، لأرتب كل شيء مع والدتك. سنتزوج في ريبامار وبعد ذلك، سآخذك إلى موجوو.

نظر إلى عينيها. كانتا ذا لون بني فاتح. شفتان مكتنزتان، بنيان متين. شعرها الذي يلمع من العرق، كان يهبط على كتفيها.

حين بان هذا الجسد ذو الأشكال الدائرية والممتلئة، والذي كان أفتح من لون وجهها ومن ذراعيها اللذين لوحتهما الشمس، رأى سروالها الصغبر المصنوع من قماش «الشيت» والمزين بورود صفراء وزرقاء بهت لونها ونصل. بيد أنه، وبعد سنوات طويلة، ما زال هذا السروال، يثير النار في رأسه. النهدان المختفيان تحت الصديرية البيضاء، كانا يظهران، بالكاد، برأسيهما القاسيين. تمددت وبقيت جامدة. وضعت تنورتها على وجهها. سحب لها كريسنوريو سروالها الصغير ورأى، بين فخذيها، شيئاً يشبه نورساً داكناً ذا عنق مكور. لمسه بيده، كما لو أنه يداعب ريشه ليفتح له جناحيه، وليطلقه بحرية في سماء الرغبة الكبيرة.

لقد خرجت من بيتها عذراء، وها هي قد أصبحت امرأة. ران الصمت، ولم يعد يُسمع صوت الهواء، ومن ثم نواحه الطفولي، الذي كان يشبه زقزقة شجر المنغروف وخريره. نهضت ونفضت شعرها. شعرت بخدش داخلها. على فخذيها، كان هناك ريشة «أبو منجل» حمراء.

ضمها كريستوريو بقوة إلى صدره، وأحس تجاهها بعاطفة، لدرجة أنه تخيل حياتهما المشتركة معاً: منزل وأطفال وكيف أنه سيحمل لأجلها أجمل أسماك البحر. كان ذلك هو الحب من دون شك.

ـ أريد أن أبقيك قربي طوال حياتي.

ـ لم تكن تريد سوى القيام بهذا الأمر، والآن، ستختفي.

ـ لا أرغب في أن أفقدك، أبداً.

ـ ماذا فعلت يا إلّهي! تساءلت مرتعبة.

ـ سأعود في الشهر القادم. سنهتم بالشكليات، كما قلت لك. سأصطحبك للعيش في موجوو، ونتزوج في ريبامار.

كانت عينا كيرتيدي مليئتين بالدموع وتلمعان مثلما تلمع عينا القنفذ في شهر كانون الثاني.

ارتدت ملابسها وهربت راكضة. رفعت لها نسمة هواء تنورتها. وقد رأى كريستوريو، عندها، وللمرة الأخيرة هذا الجسد وهذا السروال المصنوع من قماش «الشيت». عند ذاك فقط، أحسّ، باللون الأخضر للتنورة المتطايرة، واخضرّ لون عينيه، هو أيضاً.

لقد وسم ذلك النهار فكره طوال حياته. وأبداً، لم يتخيل الشؤم الذي كان من الممكن أن يحدث.

VI

لا أحد مطلقاً، شاهد أشباحاً تستحق الذكر، في جزيرة توكوناندييا. مكان، لا يملك أي لغز من تلك الألغاز التي يتم التحدث عنها في جزيرة السلاطعين. إلاّ أنه، في الأسبوع الذي أعقب مرور كريستوريو، لحظة انحسار المدّ مساء الجمعة، حدث ما لم يحدث مطلقاً في تلك النواحي. أمر لا يتخيل أحد أنه موجود أصلاً. صحيح أن هناك وحوشاً في البحر، وكائنات شيطانية كانت تظهر وتختفي، فيُصاب الناس بالعمى ـ في بصرهم أو بصيرتهم.

حدث الأمر عند الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم. في البداية، فحّت، بشكل مرعب، رائحة سريغ[1] نتنة. كانت تزداد حدة، لدرجة أنها دفعت جميع السكان للخروج من منازلهم. بعد أن اختنقوا من الرائحة خرجوا بحثاً عن قليل من الهواء. إلاّ أن رائحة العفونة لم تتوقف عن الازدياد، لدرجة أنها أصبحت لا تطاق، فلم يستطع أحد البقاء داخل منزله. بحثوا عن الهواء،

(1) طائر مائي طويل القائمتين والمنقار.

حاولوا تنشق شيء أطيب، بيد أن كل شيء كان فاسداً. هنا، في الأعلى، عصفت ريح مجنونة، حملت معها التراب، وبدأت تقفز كصبي أعرج. ريح تزأر كما لو أن قرداً في شجر المنغروف. ابتدأ المد، بيد أنه لم يكن للريح أي تأثير عليه: بقي البحر مسطحاً ومن دون تجاعيد. أمر شياطيني آتٍ من الجحيم.

عند ذاك بان ذلك الشيء، في ظل القمر المتصاعد: كان هناك سرب من بهائم «البيوك»[1]، نصف أجسادها مغمورة في الماء، مع تلك الأنوار الحمراء المنبعثة من العين في وسط الجبين. أما أعناقها، فمليئة بالشعر. كانت تخور بصوت واحد، وصوتها أسوأ من خوار ثور مقيّد.

موكب حقيقي من البيوك، تفوح منه نتانة الكبريت والشبق. فقد الجميع القدرة على النطق. العجائز سقطوا أرضاً، بعد أن أصيبت أعضاءهم بالارتجاف التشنجي. لقد فقد الرجال قوتهم الجسدية والروحيّة، واستولت موجة من الرعب على الناس. وحده الله يعلم بأي نوع من الشعوذة، كانت تلك الحيوانات ـ تلك الوحوش التي قيل إنها موجودة وبأنها امتلكت فيما مضى ست عشرة عجلة من جزيرة النار ـ ترمي سحرها على صبايا القرية، اللواتي بدأن السير، وكأنهن مخبلاّت، غير مباليات بمصيرهن، ليدخلن إلى البحر شيئاً فشيئاً. كن ثلاثاً وعشرين صبية، من بينهن فتيات صغيرات، ومع ذلك، كانت «البيوك» تفض بكاراتهن.

ثمة نتانة كريهة كانت تفوح من تلك البهائم، ذات العيون الكبيرة الحمراء الشبيهة بنور مصباح ينقصه الزيت. كانت تصرخ

---

(1) جنس حيوان من الجرابيات.

كلها، وتلتقط المسكينات البريئات وترتكب معهن أسوأ أنواع الرعب. بعد ذلك، بدأ زبد البحر بالظهور، فاتجهت إلى الناحية الجنوبية الشرقية، بينما كانت الشابات كلهن مرميات على الشاطىء. بدأت الرائحة الكريهة بالتراجع، ولم تعرف الشابات ما حصل سوى أنهن فقدن بكاراتهن.

هذا ما أخبر به زيمبوريو، كريستوريو، حين وصل هذا الأخير ليسوي أوضاع زواجه، مع كيرتيدي، في الشهر التالي.

ـ ماذا أصاب كيرتيدي؟ سأله.

ـ آه، أيّها المسكين، لقد تعرضت لأسوأ الأمور. إذ إنها بدلاً من أن تسير مع الأخريات، حين وصلت إلى الشاطىء، قامت بوضع قدمها في الماء، فسقطت. عندئذ، ظهرت بهيمة من البيوك ـ وهي من أوحش الحيوانات التي تستطيع تخيلها في هذا العالم ـ لترمي بنفسها على هذه المسكينة ولتحملها، طائرة، باتجاه الآخرين. فيما بعد، عادت الفتيات جميعهن، إلاّ كيرتيدي، لقد حملها الوحش إلى البحر.

كانت عينا كريستوريو، عيني صياد، أي أنهما معتادتان على الانحسار بسبب الملح والشمس. إلا أنهما، وبعد أن روى له زيمبوريو القصة، ومثلما لاحظ الجميع، بدأتا بالانحسار زيادة. حتى أن وجهه أصيب بالتشنج، وبدأ بالبكاء بمرارة، لدرجة أن أحداً لم يلاحظ سوى قطرة ماء سقطت من طرف عينه اليمنى. جفّ حلقه، اكفهر وجهه وبدأت عضلاته بالارتجاف.

أكمل زيمبوريو:

ـ هناك شيء آخر: لقد أبحرت أربعة أو خمسة مراكب، لتبحث

عن جسد الصغيرة، منذ ثلاثة أيام، لكنها لم تجد شيئاً. في صبيحة اليوم التالي للحادث، كانت أمواج الصباح مخضبة باللون الأحمر، والشاطىء مبقعاً بالدماء. أيتها المسكينات!

بعد أن سمع هذه القصة، عاد كريستوريو إلى مركب مانويل بوزاغا، قاطعاً الوعد التالي:

ـ لن أطأ بأقدامي هذا المكان مرة أخرى.

رفع الشراع، وقلبه محطم بسبب ما سمعه. أصيب حلقه بالتشنج، ووقع فريسة حزن قاتل. رفع المرساة وقبّل وجه كيرتيدي الذي أصبح نورساً.

بعد مضي زمن طويل، علم أنه، ومنذ تلك الحادثة، أن كل الفتيات اللواتي يجئن إلى العالم، في هذه البقعة، كن يجئن وبكاراتهن مفضوضة منذ الولادة. إنها لعنة البيوك. وبعد أن ثبتت لهم هذه الظاهرة، هجر جميع السكان الجزيرة، التي أصبحت قاحلة بالكامل. ولا أحد اقترب منها، فيما بعد، إذ إنَّ لعنة الوحوش، قد سقطت، حتى على الرمال.

*

ثلاث سنوات: إنها الفترة التي أمضاها كريستوريو في البحر. كان يبحث، ولم يجد شيئاً. لا يحب حيوان البيوك البحر المرتفع، فهو لا يتردد إلاّ على البحيرات والخلجان الصغيرة، أو على قنوات شجرة المنغروف، حيث يزرع الرعب. استعلم كريستوريو عن تلك العادات، وحاول أن يكتشف سرّ هذه الوحوش.

ـ جوان دوس سيريباس! أتعرف أين تعيش «البيوك»؟ هكذا سأل أحد رفاقه.

ـ كلا، لا أعرف أي شيء عنها. تبحث عن الأنهار من دون أن تظهر، لا أستطيع إخبارك بأي شيء عنها. فمن يتحدث عنها ويروي أنه شاهدها يموت بمخالبها. إنها كائنات مرعبة. لها عين كبيرة وسط جبهتها، حمراء جداً، واسعة، تلقي نوراً من نار على الناس، أما أجسادها فمغطاة كلها بالشعر، لكن شعر صدرها أكبر من أي منطقة أخرى، وهو يصل إلى حلقها. من ناحيتي، لم أرها مطلقاً، لكن الذين شاهدوها، فقدوا القدرة على النطق. ولشدة رائحتها الكريهة التي تفوح من مسافة كبيرة، تثمل الناس منها وترتخي الألسن.

ـ حسناً، أنا ذاهب للبحث عنها. لقد خطفت خطيبتي وسأجدها، حتى لو كانت في أعمق أعماق الجحيم.

ـ هراء، يا رفيقي، إنها نكد الطبيعة ولا تستطيع أن تفعل شيئاً حيال ذلك. هناك الصالح والطالح. هذه البهائم تشكل جزءاً من المياه. لا أحد يعرف شيئاً عن أسرارها، ولا حتى إن كانت تُنفذ أوامر الرب أو الشيطان، إنها الوحوش بحد ذاتها.

ـ كيرتيدي، كانت زوجتي أمام المذبح، عشت معها أولى أحلام حياتي. قررت الزواج منها، وقد ذقت طعم لحمها.

ـ حسناً، لكن البهائم خطفتها وعليك أن تقتنع أن الأمر يشبه الموت. اعتبرها ماتت. إلى الأبد.

ـ إنها في البحر. لقد خطفها البيوك. حملتها بين أذرعتها ومضت راكضة في الموج. لقد أعادت النساء الأخريات، بيد أنها مع كيرتيدي، ذهبت إلى أعمق أعماق اللجة المسحورة.

بما أنه كان في عز شبابه، شكل الأمر لكريستوريو، فكرة ثابتة. فبدأ يشرب ويدور على الحواني السيئة الصيت. يثير خناقات، ولا يبقى فترة طويلة على المركب ذاته. انتقل من عمل إلى آخر، حيناً على هذا المركب، وطوراً على آخر. ذهب للتشاور مع سحرة هنود، مع سحرة سود، مع رائين، كي يسأل عمّا يجب فعله.

جاءته النصيحة القيّمة من جيمينيانا، من مدينة غوارابيرا.

ـ عليك يا كريستوريو أن تذهب للبحث عن البيوك بين سلسلة جزر سانتانا. إنها تعيش هناك. لكن، أولاً، عد إلى توكوناندييا، وابق بضعة أيام، في انتظارها. لو ذهبت حقاً إلى هناك، فستعود. وإلا، فلا عليك سوى العودة إلى هنا، إليّ؛ لديّ ابنة أختي، وهي شابة جميلة، تزوجها وستنسى ما حصل لك، كي تستطيع العيش بقية حياتك.

ـ لا حياة لي يا دونا جيمينيانا.

ـ مع ذلك يجب أن يكون لديك واحدة، وُلد الرجل ليكون رجلاً. نحن النساء، ولدنا كي نكون للرجال. إن لم يأتوا، لهلكنا، أما هم، فلا. أقول لك يا سيو كريستوريو، أمضيت حياتي بأسرها وأنا أنتظر رجلاً. أتدرك معنى ذلك. كل الحيوانات تعيش وتنجب صغاراً. تتزاوج. وفي النهاية، ما تقوم به، إنجاب مخلوقات أخرى. هكذا فطرت المرأة. حسناً، لم أحصل أنا، يوماً، على رجل. إنه ألم فظيع. إنني امرأة تعيسة. لا أصلح لشيء. سأموت من دون أن أعرف ذكراً في داخلي، من دون أن أتنشقه أو أن يتنشقني. عذاب لا يشبه أي عذاب آخر على وجه هذه البسيطة. فطرنا لكي نجد رجلاً، يا سيو كريستوريو. بيد أنني

لم أحصل على واحد. انتظرت حياتي كلها. لدرجة أنني كنت سأصاب بالجنون. لا أدري كيف لم يتم ذلك. لا أعرف ما نفعي. أمضي الوقت وأنا أفكر، بيد أننا لا ننجب ونحن نفكر. أتعرف يا سيو كريستوريو، وصلت إلى حد انني عرضت نفسي، بيد أنني لا أعرف الذي جرى إذ لم أحصل أبداً على رجل. إنه الشر، يا سيو كريستوريو، إنها لعنة. بل الشر بحد ذاته. المرأة وحدها تعرف معنى أن لا يكون هناك رجل في حياتها.

ـ أتدركين معنى ما نشعر به، نحن الرجال، حين نكون قد وجدنا امرأة، ثم فقدناها؟

ـ حسناً! جِد واحدة أخرى. حين أصبحتُ عجوزاً، انقطعت عادتي الشهرية، ففقدت الرغبة، فقلت لنفسي «سأصبح امرأة تفك السحر» هذا ما أنا عليه اليوم. أنسى الرغبة بالصلاة.

ـ تصلين من أجل أي شيء؟

ـ «صيبة العين»، والعين البصّاصة، والخيانة الزوجية وأيضاً كي تجد الفتاة من يضاجعها.

وتابعت بلا حياء:

ـ أصعب الصلوات هي الصلاة من أجل الخصي. غالباً ما تطلب النساء ذلك. أن لا يشعر زوجها بالألم، بأن يصبح في وضع الأبله بالكامل، بأن لا يعرف شيئاً، وأن لا يشك بشيء.

ـ هل قمت بصلوات أدت إلى نتائج مرجوة يا دونا جيمينيانا؟

ـ سأروي لك ذلك يا سيو كريستوريو: قمت ذات مرة بصلاة، من أجل امرأة من ايغواإيبا، رغبت في أن أنقضها لاحقاً. كان زوجها قد أصبح أبلهَ كلياً، لدرجة أنه كان يحمل لها شراب

النعناع الساخن. وحينما كانت تخرج من تحت شخص آخر، تقول له إنه كان يطرد الأرواح منها، والأبله يصدق حكايتها. فيما بعد، جاءت لتطلب مني أن أفك هذه الرقيّة، لأن عشيقها، هرب.

ـ لكن يا دونا جيمينيانا، ما أرغب فيه هو إيجاد كيرتيدي. أتقومين بصلوات لأمر كهذا؟

ـ من أجل هذا الأمر، لا، لا أعرف، ولا أريد أن أعرف. لن أقوم بشيء يجعلني أتشاجر مع الشيطان. لقد نصحتك: إن لم تجدها، عد إلى هنا، لديّ كامبورينا، ابنة أختي، ستكون زوجة رائعة. إنها شابة لطيفة، وذات أحاسيس مرهفة.

VII

صعد كريستوريو على متن الغابيرينا ورحل. ادخر مالاً، اشترى بندقية، وصليباً خشبياً قديماً، ووضع سلسلة حول عنقه ورحل على طريق الزمان والبحر.

كان برفقة كيرينتي. أدار الدفة صوب توكونانديبا.

ـ لكن، قل لي، يا كريستوريو، هل ستعود إلى تلك الجزيرة المسحورة، حيث حدثت تلك القصة؟ لو تسنّى لي إسداء نصيحة، لقلت إنه ينبغي الهرب من الشرور؟ بالنسبة إليّ، يكفيني ما تعرضت له.

ـ ومع ذلك، أرغب في الذهاب إلى هناك. من الممكن أن يكون ذلك الحيوان هناك، أرغب في قتله.

ـ أي حيوان؟

ـ البيوك.

ـ لا تحدثني أبداً عن وحوش البحر. تقول لي حياتي الماضية، إنه يجب تجنب كل ما هو في الماء. لقد تعرضت لذلك، خرجت منه، ولن أعود إليه أبداً. وهذا ما سأفعله.

أحياناً، يبدو كيرينتي، بحاراً حقيقياً من الرابوسا، وأحياناً أخرى، يبدو الغموض ذاته.

ـ اسمع يا كيرينتي، أنا لا زلت شاباً، ومع ذلك فمنذ نعومة أظفاري، كان البحر صديقي. أعيش معه ليل نهار، وهو يعيش في رأسي. لكن البحر هو السحر. اليابسة للرب والبحر للشيطان.

ـ برأيي، إنه للبشر أيضاً.

ـ لا أتكلم بخفة. هيأت بندقيتي، وقد اشتريت علبة خرطوش. إنها هنا، في الحقيبة الكتانية الموجودة تحت. لا أطلب سوى شيء واحد، رؤية تلك البهيمة، لأطلق النار عليها.

كان كريستوريو يقبع في الخلف لتشغيل الشراع، والمركب يسير بشكل جيد. لقد شدّه كما ينبغي مستفيداً من الهواء البحري. حوالى الرابعة من بعد الظهر، أي بعد رحلة استغرقت نهاراً تقريباً، ها هي جزيرة توكوناديبا، تظهر، مثلما تظهر أشكال المنازل القديمة، التي أصبحت فارغة. امتلأ رأس كريستوريو بذكريات ذلك النهار الشهير حيث رأى فيه سروال كيرتيدي الصغير المصنوع من قماش «الشيت»، مثلما امتلأ بكره البيوك التي خطفتها. سحبا من على طول الشاطىء، بعض شباك الصيد القديمة التي تحتوي على طحالب عفنة.

كان البحر هادئاً؛ فعمّا قريب سينحسر المدّ.

ـ كريستوريو، قال كيرينتي وهو يرى المياه الراكدة، التي تشبه البحيرة، في تلك البقعة، سنلقي شباكنا من هنا. فحول هذه الركائز القديمة، ثمة وسيلة، دائماً، لالتقاط شيء يؤكل.

ـ لكننا لا نملك طعوماً.

ـ أمر سهل. قد نجد سمكة، إنها تأتي دائماً.

ـ حسن. هيا.

رميا شبكة الصيد لعدة مرات فالتقطا بضع سمكات سردين وبوريتين صغيرتين أو ثلاثاً. من ثم ألقيا المرساة وثبتا مكانيهما. زيّنا الشباك، جلسا مقرفصين على طرف الصاري، وعادا ليضعا العمود في الماء. استغرق كريستوريو في أحلام اليقظة، وهو ينظر إلى البعيد، إلى شاطىء توكوناندييا، إلى الجهة الأخرى من خط البحر الكبير. لم تكن هناك أي عضة[1].

ـ أيها الشريك، يبدو أن السمك ليس جائعاً. لم تهز شبكتي حتى.

كان الطُعْم جيداً، الشِباك أيضاً، وبالكاد يهتز المركب. في تلك اللحظة بالذات، وبدون سابق إنذار، حدث ارتجاج عارم كاد يقلب المركب. وللحظة، كاد كريستوريو يقع في الماء.

ـ ساعدني يا كيرينتي، إنه عملاق. سينكسر العمود، لم أعد أحتمل. أنه يشد بقوة. كأنه قطعة كبيرة، حقاً.

ـ أرخِ الحبل له، أتركه ينسحب، لا ترتكز على الصاري، وإلاّ سينتهي الأمر بهذا المركب في خطم العملاق.

ـ لن يبتلع المركب، أليس كذلك، قال كريستوريو مازحاً.

إنزلق المركب تحت مرساته، إذ انتصب القلس، وانتشرت الأعمدة، استجمع كيرينتي وكريستوريو قواهما، وقاوما بشدة. تصلبت عضلاتهم، كانت معركة شرسة في كل الاتجاهات. ومن

---

(1) علوق السمك بالصنّارة أو الشِباك.

وقت إلى آخر، كانت تبدو رزمة من الزبد وضربات أذناب مدهشة.

- إنه قرش يا غلام، ومن النوع المتوحش.

ازدادت الأمور سوءاً، فانتبها إلى أن الوسيلة الوحيدة للخروج من هذا المأزق، تكمن في قطع الحبال وتحرير الوحش. حاول الاثنان إبداء مقاومة أخيرة، لذلك ثبّتا قدميهما على حافة البيانا. لم يكن يرى سوى اضطراب الماء، وليس السمكة. استمرت المقاومة لفترة طويلة أخرى. بيد أنها بدت متكافئة الآن. يسيطر الوحش على الوضع تارة، وهما تارة أخرى. للحظات كان يخيل أن المركب سيغرق. لكنهما لم يستسلما أبداً. وحين شعرا أن قوتهما ستنهار، أحسا بأنهما سيكسبان المعركة. فبدآ بشدّ الحبل، مراراً وتكراراً، لتظهر لهما بقويقة[1] نتنة، بحجم الإنسان تقريباً.

- إنها بقويقة يا كيرينتي، وهذا صنف نادر. كيف جاءت تلك السمكة إلى هذه الناحية، بالقرب من هذه الأوتاد القديمة؟ كأن في الأمر سحراً. نصل فنجده في انتظارنا.

- هيا، اسحب. لا تضعف.

ظهرت السمكة على السطح بالقرب من السفينة. كانت لا تزال تقاوم، لكن بلا عنف. تابعا جهودهما. أعد كيرينتي نفسه كي يستقبلها على متن المركب. وبالساطور الذي كان في يده، وجّه إلى رأسها، ضربات عنيفة، فلهثت مثل فرس وضعت مهرها للتو.

- يا ربي، يا إلّهي، أنظر قليلاً يا كيرينتي إلى الذي يحدث...

---

(1) جنس طيور مائية من فصيلة دجاجيات الأرض.

صرخ كريستوريو، مذعوراً، كي ينذر رفيقه.

في البحر، ينتقل المرء دائماً من مفاجأة إلى أخرى. ففي عرض البحر، وعلى بعد عشرين باعاً[1] تشكل أخدود مفضّض على سطح الماء، بدأ بالاقتراب، وبالرقص دائرياً حول المركب، ومن ثم ابتعد. كان قرشاً ـ نمراً ذا خيشوم كبير ورأسه يشبه الترس. استمر الرجلان في الصراع مع البقويقة، كي يسحباها إلى داخل المركب. نجحا في حملها إلى الحافة، علقاها بطوافة، كي يقلباها في الداخل، حطما لها حراشفها السامة بعد أن ضرباها بالعصا، وعادا إلى مهمتهما الصعبة في رفعها إلى الأعلى. عند ذاك شعرا بالصدمة العنيفة، إذ تخفف الحبل، وعادت السمكة لتنزلق في المياه، بيد أنها لم تعد ثقيلة. ففي أقل من دقيقة، تشكلت بقعة دماء على سطح البحر. ولم يعد يشاهد سوى شق الماء الذي أحدثه القرش الذي كان يبتعد، كمذنب مائي، بزعانفه الظهرية التي كانت تمخر العباب مثل جؤجؤ سفينة. اختفى. عادا ليسحبا البقويقة، التي لم يتبق منها إلاّ الرأس، وثلث جسدها فقط.

نظر كريستوريو إلى صديقه وقال:

ـ أرأيت يا كيرينتي، ألم أقل لك إن البحر مُلك الشيطان؟ إننا مضطرون الآن بالاعتماد على القدر كي نعيش.

ـ هيا، لنقترب أكثر من الشاطىء.

ـ أجل، لقد انتهى الصيد اليوم.

---

(1) قياس بحري يختلف طوله باختلاف البلدان ولكنه يتراوح بين متر ونصف ومترين.

بدأ النهار بالمغيب. المركب يرسو، عاد كريستوريو ليرى من بعيد منزل كيرتيدي، والجزيرة التي أقسم أنه لن يعودَ إليها مطلقاً. فما حصل، كان إنذاراً.

سيحل الليل عما قريب، وأفضل ما يقومان به الآن، النوم على متن المركب؛ أشعلا السخّان كي يطهوا بضع قطع من رأس البقويقة، مع كمية كبيرة من الملح، تحدثا:

ـ إن لحم البقويقة، لذيذ مع ثمر البلاذر. بيد أن اللحم هذا ذو رائحة كريهة.

ـ أنا أيضاً، لا أحبّ هذا كثيراً. لكن كل ما نستطيعه اليوم، قضم رأس سمكة مقرفة. حتى أنه ليس هناك من ثمر كي نستطيع أن نغني:

لا شيء في رأس
البقويقة لنمتصه
ضع ثمراً على النار
واطهِ كل ذلك.

ـ سخيفة أغاني الصيادين هذه، أليس كذلك؟

ـ آه! أجل ولا. ففيها حكمة الأشياء.

بقيا هنا، في الليل، بعد أن وضعا فتحة السخّان باتجاه الهواء، منتظرين سليقة السمكة. في رأس كريستوريو، كانت الذكريات تهطل كما تهطل أمطار شباط، أي لا تهطل نقاط عارمة، إلاّ أن المطر لا يتوقف، مطر بلا انقطاع، مزرّق، هذا الشيء الذي لا يحصل، إلاّ أنه دليل الخصب.

«إن كيرتيدي بين يدي هذه الوحوش، تسبح تحت الماء، تشق لنفسها طريقاً عبر جذور شجر الشورى، وتختفي في الغابات المطمورة. اغتصبت هذه الوحوش القذرة كيرتيدي: ألم لا تستطيع أي يد مداواته». هذا ما كان كريستوريو يفكر به. وكان الليل يحلّ تدريجياً. المدّ ينحسر، وبيوت الخليج الصغيرة، كانت تتمحى تحت جنح العتمة المتزايدة. صنعا سليقة منيوت[1] كثيفة، مع الدقيق المحبَّب، الأصفر، فأكلا وهما يمسكان رأس السمكة من سهيفتها[2]، لقد امتصا غضروفها وعينيها الكبيرتين. أما القطعة الأخرى، وما بقي منها، فقد وضعاها في الملح. لم يتبق أمامهما سوى أن يغسلا أيديهما كما أن يتمددا في عمق المركب ليبحثا في أي جهة تتنزه والدة النعاس. وصلت، فنام الرجلان. بيد أن غطيط هذه الليلة، يجب ألاّ يكون هادئاً. ثمة كآبة في الأجواء، لم تكن تظهر علانية، إلاّ أنها تُحس بحسب ما آلت إليه الأشياء. كان ذلك بعد منتصف الليل بقليل، أو قبله بالضبط، حين بدآ بسماع نباح الكلاب، الذي كان يتكرر ويطول كما لو أن هناك قطيعاً منها.

ـ ما هذه الكلاب يا كيرينتي، في حين أن الجزيرة مقفرة؟ ما من بهيمة واحدة هنا، فكيف بالكلاب؟

ـ كريستوريو، همهم كيرينتي، أنا رجل بحر، لكنني، الآن، يقشعر بدني حقاً.

هذا ما كان عليه كيرينتي، تارة، كائناً بشرياً، وطوراً، روحاً.

---

(1) جنس جنيبات يستخرج من جذورها دقيق نشوي.
(2) غلاف رقيق.

سرعان ما بدأت بالانتشار، رائحة عطنة، ترافقها إشارات أخرى: قرقعة تحطم الأغصان الجافة، وزمجرة قفزات غامضة على الرمل.

ـ شكراً يا الله. كيرينتي، لقد وجدتها. إنها تلك البهائم القذرة: سأهيء بندقيتي. سترى الآن كيف ستكون نيران الجحيم.

استمر نباح الكلاب. نهض كريستوريو كمجنون هائج. استلَّ بندقيته، لقّمها، وأطلق النار باتجاه الشاطىء غير المرئي الذي كان غارقاً في عتمة شاملة. أضاءت الضربة النارية الليل، وقد أتاح نورها رؤية ظلال الكلاب التي تركض من جهة إلى أخرى، بدون أن تتوقف عن النباح والدمدمة، كأنها كانت تحرس الشاطىء لكي لا تدع أحد يطأه.

ـ أيتها الحيوانات القذرة. اظهري نفسك إن كنت تجرؤين. أريد قتلك، قسماً بالشياطين كلها.. صرخ كريستوريو.

لا جواب. كانت الأصوات التي تصل إلى المركب، أصوات قفزات وكلاب تنبح، كأنها كانت تتعرض للضرب، كي تزأر فيما بعد.

مرّ كل شيء من دون أن ينتبه أحد لمرور الوقت. توقفت الكلاب عن النباح. كان الصمت مهيمناً، حين ارتفعت فجأة صرخة حادة، زعيق استفهامي:

ـ أين الذي يخصني؟... أين الذي يخصني؟...

ـ أين الذي يخصني؟... أين الذي يخصني؟...

ـ في إست أمك أيها القذر، أجاب كريستوريو، الذي استشاط به الغضب.

ـ إنها مجانين غاضبة، وتأتي من هنا، قال كيرينتي، إنها الظلمات.

ـ أين الذي يخصني؟... أين الذي يخصني؟...

ـ أين الذي يخصني؟... أين الذي يخصني؟...

كان هو الصوت نفسه الآتي من اليابسة. وأجابه كريستوريو:

ـ ألم تسمع؟ في قفا أمك، قلت لك.

أطلق النار مرة أخرى من بندقيته. قوياً كان انفجار الخرطوشة، لدرجة أنها انعكست على سطح الماء، وفي كل الأرجاء مثل قصف الرعد. إلاّ أنه لم ينتج عنها، هذه المرة، أي لمعان.

سكت كريستوريو. وكيرينتي كان ينظر. عادت الكلاب للنباح مجدداً، والوحوش ـ التي اجتمعت حول بعضها ـ للصراخ.

ـ أين الذي يخصني؟... أين الذي يخصني؟.

لم يجب كريستوريو. كان منهكاً. فقد وعيه، ولم يستعده إلاّ عند انبلاج الفجر. جال ببصره داخل مركبه. كان كيرينتي قد اختفى.

ـ إن البحر مُلك الشيطان، لقد قلت ذلك.

بقي صامتاً ودخل إلى عالم ارتباكه. وبعد أن استعاد نشاطه، بدأ بمناداة صديقه:

ـ كيرينتي! كيرينتي!

ضاع صوته في المساحة التي أحدثها الجزر الأقصى، لينعكس بعيداً، وليصل إلى الشاطئ.

«ما يمكن أن يكون قد حدث له؟ ربما ذهب إلى اليابسة، وهو

الآن هناك». فكر: «أعليَّ الذهاب إلى هناك، أم لا؟ المركب يقف على اليابسة، إنه الجزر الأقصى. لو حصل شيء وأصبح المركب في خطر، لما استطعت القيام بما عليّ القيام به».

من جهة أخرى، لا يستطيع الهرب بسهولة، إذ ما من أمواج تحت البيانا. لقد اختفى كيرينتي. ليس من النوع الذي يتخلى عن صديقه وقت الشدّة. في النهاية، قرر مغادرة الزورق، كي يذهب إلى القرية، بحثاً عن كيرينتي. لكنه قبل ذلك، تحقق عمّا إذا كانت هناك آثار خطوات، أو إشارات أخرى. تفحص كل الآثار على الرمل، بدقة وتأن. استدار حول المركب، ذهب حتى الأعمدة حيث كانت الأمواج تتحطم. استدار على عقبيه، مستكشفاً الأرض كلها، فلم يجد أي أثر يدل على صديقه. عندئذ صعد إلى أعلى الشاطىء. سار متمهلاً، أبقى نظره وسمعه متيقظين. كان السكون صديقه الوحيد. ما من نسمة هواء. اقتربت القرية منه تدريجياً. خفق قلبه بشدة، وبدأ يمزج ذكريات كيرتيدي وفصول تلك الليلة الكابوسية، أضف إلى ذلك اختفاء كيرينتي. على شاطىء القرية القديمة المهجورة، تقدم فوق الرمال الطرية، فشاهد المنازل التي تهدمت. الجدران انهارت، وسقوف القش وقعت. تذكر كيرتيدي وسروالها القصير وفخذيها وتنورتها «الشيت» الخضراء. كل شيء كان يمتزج ببعضه البعض، يعود إلى ماضيه، ليشعر بالقلق والخوف والشجاعة، أما حاضره فيجده غريباً. أطلق صرخات نداء:

ـ كيرينتي! كيرينتي! أجب!

لا شيء. لا شيء أكثر من الصمت، الصمت الكبير.

ـ كيرينتي؟

استدار بسرعة. خيّل إليه أنه سمع صوتاً مخنوقاً، أصواتاً رهيفة وبعيدة، لا يستطيع تحديد مصدرها ـ ربما من داخل أحد البيوت أو ربما كان سراب صوت، أو تخيلات العدم. استدار نظره صوب كوخ قديم قد يصلح ملجأ للصيادين، يقع في طرف القرية. استدار من تلك الناحية، فلمح شكلاً، قد يكون شكل امرأة «من يمكن أن يكون، على هذه الجزيرة المسكونة بالأشباح؟» اتجه نحو هذا الظل، وسار وسار، لمسافة كيلومترين. على بعد خمسمئة متر، ظهر في طريقه رأس كلب. كان مرمياً على الشاطىء، مفتوح العينين، دامياً. تابع طريقه، وعلى بعد خطوات، شاهد رأساً ثانياً، ثم ثالثاً، ورابعاً. لم ير أجسادها، فقط الرؤوس النازفة، والعينين المفتوحتين، وأشداقها التي تمتد منها الألسنة. ربما هذه الكلاب، كانت تلك التي نبحت طوال الليل. لكن أين اختفت الأجساد؟ كل شيء يدعو للتساؤل.

الكوخ كان على مسافة عشرين خطوة منه. كان، بحسب ما يظهر، مكاناً لتقديد السمك. ثمة حوض أيضاً، فيه بقايا ملح وقطع أسماك البوري و«الغوريبو»(*)، وعى الأرض، برشها وأذنابها. الحوض، كما منصة التجفيف، كانا يعطيان انطباعاً بالفوضى. لقد تعرّض المكان لهجوم من دون أدنى شك. كل شيء محطم. متناثر إلى قطع. وفي آخر الكوخ، هناك امرأة صامتة، طويلة الشعر، كتفاها هابطان، ككتفي الأموات. لم يثرها مجيء كريستوريو:

ـ صباح الخير، هل شاهدتِ صياداً يدعى كيرينتي مرّ هنا، صديقي على متن الزورق.

لم تجب بشيء. اقترب كريستوريو منها، ونظر جيداً في عينيها

كي يعرف ما إذا كانت ميتة أم على قيد الحياة. لمس شعرها، وطرح عليها سؤالاً جديداً:

ـ من أنتِ؟

ـ لقد تركتني حيوانات البيوك هنا، بعد أن التهمت الرجال، أجابته.

ـ أي رجال؟

ـ أولئك الذين جاؤا معي للصيد، والذين ملّحوا السمك. لقد جاءت الوحوش في الليلة الماضية، ترافقها زمرة من الكلاب، فقتلوا الأشخاص الخمسة الذين كانوا معي.

ـ وكيف نجوت من ذلك؟

ـ لا أعرف.

ـ لماذا جئت معهم؟

ـ ليشبعوا رغباتهم من النساء، إنني من الإيغوإيبا.

ـ ماذا تعملين؟

ـ عاهرة. لكن وحوش البيوك لا تحب إلاّ العذراوات.

فكّر كريستوريو: «لماذا لم أحضر معي بندقيتي».

ـ أين هي البيوك؟ سألها وهو مضطرب.

لم تجبه. نظر حواليه ليرى إن كان هناك أحد آخر. لا شيء، فقط ما تبقى من عربدة الليلة الماضية. حين تفحص الساحة الرملية، على الطرف الآخر من الكوخ، رأى فضلات الأجساد المفترسة الحاملة آثار أنياب الكلاب، وبقايا الرؤوس والأفخاذ والعظام المكشوطة، المبعثرة على الشاطىء. لم يستطع أن يمنع

نفسه بأن يتملكها شعور بالخوف الكبير. عاد إلى الكوخ راكضاً قائلاً للمرأة:

ـ تعالي معي على متن المركب.

وقفت من دون أن تقول كلمة واحدة. عندئذ، فقط، اكتشف بأنها صبية وجميلة. خلاسية ممتلئة، ذات وركين عريضين، ونهدين مشدودين، وفخذين رشيقين.

ـ من أين جئتم كلكم؟ سألها بحشرية.

ـ قلت لك: من الإيغوإيبا.

ـ قبل أن نعود أدراجنا، سنرى إن كنا نستطيع العثور على كيريتي.

وبدأ الاثنان بالبحث في محيط القرية الصغيرة، بين أشجار جوز الهند القديمة والمنازل المهملة، والأبواب المخلعة، وسقوف القش المدمرة، المنهارة بأكملها. منظر يشبه مشهد القيامة، كما لو أن الزمن توقف، كما لو أن الكائنات كلها ماتت، وأن الحياة لم تعد موجودة. لا شيء سوى صمت العدم. كل شيء كان ظلاً أسود، مثل الليل. كل شيء كان غارقاً في نور صباح مشمس. قادتهما خطوات كريستوريو إلى منزل كيرتيدي. لم يعد موجوداً. لم يتبقّ سوى آثار الجدران المصنوعة من النخيل المجدول. النافذة أيضاً، الواقعة، والعوارض الخشبية التي لم تعد تحتمل شيئاً، وبرواز الباب، الذي، بلا باب. لا أحد رغب في حمل شيء عندما ذهب، خوفاً من جلب اللعنة على الفتيات كانت فكرة صائبة؛ إذ أينما حلّ هؤلاء الناس، وعند قدوم أي من بناتهم إلى العالم، تقوم الأم بإبعاد فخذيّ ابنتها، لتتأكد أنها لم تمس بعد. كن جميعهن كذلك.

نظر كريستوريو إلى الرمل الموجود بدلاً من الباب، فجاءته الرغبة بدخول المنزل. كان بإمكانه أن يرى ظل كيرتيدي وأن يحيا ما لم يعشه. عيناه مليئتان بطعم وداع كل شيء. ذات يوم سيقتل بهائم البيوك وسيستعيد منها كيرتيدي. لهذا السبب كان يبحر، من شاطىء إلى شاطىء، ومن صخرة إلى صخرة، إلى كل أمكنة الصيد في الخليج، في الأقنية وشجر المنغروف، كي يجدها. لم يقاوم هذه الحاجة لزيارة دمار الحياة، من منزل إلى منزل. فجأة، سمّره إحساس بارد جمّد شرايينه في أنحاء جسده، فتوقف عند أحد الأكواخ. أما المرأة التي كانت معه، فبقيت في الخارج. علا صوت صرخة، مخيفة جداً، شاذة جداً، لا يظنن أحد أنها آتية من حلق بشري. كانت أشبه بصرخة كآبة:

ـ كيرينتي، يا رب السماء.

كان هناك، ممدداً، عارياً، وعلى صدره دجاجة بحرية. أما آكل المحار فكان ينطنط.

ـ كيرينتي؟

لم يجب. كان ميتاً. اقترب كريستوريو ليبحث عن مكان إصابته. عندئذ اكتشف أن فيه بعض حياة. لا يزال يتنفس بصعوبة، نفحة لا ترى، بيد أنها نفحة بالرغم من كل شيء.

ـ كيرينتي؟

إن لم يكن ميتاً، فهو في نوم عميق. تفحص جسد صديقه. لا شيء غريباً سوى خصيتيه المزرقتين اللتين كانتا ترتعشان مثل الحشرات في المياه، عند ارتفاع المد. خرج كريستوريو وسأل المرأة:

ـ ما اسمك؟

ـ ماريا داس أغواس[1]

ـ حسناً، ساعديني يا ماريا داس أغواس على نقل صديقي من هنا. إنه في الداخل. لا أعرف إن كان حياً أم ميتاً

دخلا وبدآ بسحبه إلى الخارج. لم يبد على ماريا داس أغواس أي إشارة خوف، فتصرفت كما لو أنها أمام سمكة. من المستحيل معرفة ما إذا كان كرينتي نائماً أم ميتاً.

ساعدت ماريا، كريستوريو، وسحبا كيرينتي حتى ضفة الشاطىء. حينئذ قرر كريستوريو حمله فوق ظهره. كانت ماريا داس أغواس، نعبته فليلاً، إذ نضع ساقي كيرينتي على كتفيها لم يكن بزن أكثر من ستين كلغ. عليهما أن يصلا حتى المركب، بعد أن يجتازا الشاطىء كله. كانا ينوقفان قليلاً، يستردان أنفاسهما، ومن ثم ينطلقان مجدداً لقد كشف انحسار المد، عن مسافة هائلة بيد أنهما نجحا في الوصول أخيراً. وضعا جسد كيربني في أخر المركب، وانتظرا لحظة الرحيل شاهدا على سارية البيانا، عصفوراً أزرق، رأسه أصفر اللون، ومنقاره أحمر، كان يدمدم بشكل بدا أنه يغني صدر عنه صوت ربابة غير متناغمة صوت حاد وأخن. أرهف كريستوريو السمع، فاستطاع سماع ما كان بغنيه·

ـ أأأ بـ يـ ن ن ااا ل ل ل ذ ذ ذ ي ي ي. .

كانت اللازمة التي رددنها البيوك صعدت الدماء إلى رأسه

---

(1) حرفياً «مريم المياه»

تحت تأثير الغضب المتطاير منه. استل كريستوريو بندقيته، أمسكها بحزم، صوّب، شدّ على الزناد، أطلق النار.

ـ في قفا أمك العاهرة!

أصابه إصابة مباشرة. تناثر الريش في كل مكان لم يسقط جسد العصفور. لم يكن سوى ريش. بيد أن الريش ـ ومثل سحابة من الطيور المهاجرة ـ عاد ليجتمع من جديد، ليولد عصفور آخر، وليذهب وهو يغني «ااا يـ يـ ن ن ااا ل ل ل ذ ذ ذ...».

إنه السحر. لم تعلّق ماريا داس أغواس بشيء، عند إطلاق النار، تنهّد كيرينتي بشكل أقوى.

ـ ليس ميتاً، يا ماريا. إنه على قيد الحياة. إنه نوم سحري مثل كل الذي يحدث على هذه الجزيرة، وكل ما يصيبها.

قال كريستوريو إنه لا يستطيع تسيير الزورق وحده، مع هذا الميت الحيّ على متنه، لذلك ينبغي عليها أن تساعده، حتى في «البينابو»(*) إذا اقتضى الأمر. أذعنت للأمر، وإن بدت غائبة، فقالت أنها مارست مهن البحر وهذا ما كان.

عند ارتفاع الموج، رفعا شراع الغابيرينا، مركب يخص جواكيم اوليو ـ دي ـ باغري، من باو ـ ديتادو. رحلا بهدوء. لم يكن الهواء سوى نسمة خفيفة، ثرثرا ومنذ بداية الرحلة، كانت جالسة على مقعد الصاري، أما هو فعلى الدفة.

أما كيرينتي، فبقي حالة غامضة.

ـ متى وصلتم؟

ـ منذ أسبوع تقريباً. لقد وضعنا حاجزاً من النخيل، وأخذنا كميات من السمك. اصطدنا بالصنارة والشبك، استطعنا التقاط

عدة أنواع. أصبحنا نملك إذاً كمية كبيرة من الأسماك، وحانت اللحظة كي نذهب إلى توكوناندبيا كي نضع ذلك كله في الملح. كنا قد عملنا هنا لمدة ثلاثة أيام قبل أن تبدأ الشعوذة مساء أمس الأول. تناولنا العشاء والكل كان مستعداً للذهاب إلى النوم. أشار إليَّ كينزينو، الرئيس، إشارة خفية، واصطحبني إلى الشاطىء، اعتلى صدري، وبالكاد بدأنا المضاجعة حتى شاهدنا تلك الأنوار على الشاطىء التي تركض من جهة إلى أخرى. بعد ذلك، سمعنا نباح الكلاب. لم تكن كلاباً، بل رؤوساً فقط. لم تصل أجسادها إلاّ فيما بعد، كأنها خرجت من العدم كي تصل راكضة لتلحق برؤوسها. كانت تنبح وتقفز، واختلطت مع البيوك التي رمت بنفسها على طاولة التقديد حيث التهمت السمك كله، مخلفة فوضى عارمة، كما تفعل الحمير في الإصطبلات. رمت العظام خارجاً، حتى البقايا التي لا تزال تؤكل. الرجلان الآخران، اللذان يعملان في التقديد، زيديكو وبادوكو، حاولا، رغم كل شيء، الهرب في الغابة، إلاّ أن البيوك، لحقت بهما وأمسكتهما وصرخت بوجههما «أين الذي يخصني».

عندئذ ـ تابعت ماريا داس أغواس ـ رحلت بعد أن أكلت السمك والرجال. لقد أمسكت بكينزينو الذي كان بجانبي، وبدأت بافتراس وجهه. يا إلّهي، أي رعب هذا، كم أرغب في نسيانه. كان الجو مظلماً، ومع ذلك، كنت أرى. شعرت بنتانة هذه البهائم القذرة التي لم تتوقف عن الزعيق وترداد لازمتها. لم تمسني أبداً. فقد، جاءت إحدى البهائم، وكانت أنثى، أشبه بالغول، فرفعت لي تنورتي، وضربتني على مؤخرتي.

ومن مكانها، استدارت ماريا ورفعت تنورتها. كل شيء كان

متورماً بشكل رهيب، ذا لون أحمر قانٍ مع بعض البقع السوداء الصغيرة، الأشبه بالذباب. بالرغم من رعب هذه القصة، وبالرغم من أن كيرينتي أصبح ميتاً حياً، نظر كريستوريو إلى مؤخرة المرأة المنتفخة، فخطرت على باله أفكار شهوانية. في تلك اللحظة، بدأ كيرينتي بتحريك ذراعيه وساقيه. خفق قلب كريستوريو بقوة. أحس بالدموع تنفر من عينيه. وبأنها تسيل حمراء اللون.

ـ إنه يموت، قال.

ـ يموت؟ أعادت ماريا داس أغواس.

ـ ضعي ماء مالحاً على وجهه، يا ماريا، رشّيه جيداً، حاولي أن تعيديه، كما نفعل للصيصان، أضاف كريستوريو.

همت ماريا برشّه بالماء. بدأ كيرينتي ـ الميت، المزرقّ، الحامل لون الشيطان ـ يشير إلى أنه لا يزال على قيد الحياة، وإن بشكل بذيء: انتصب عضوه، ارتعش، توقف عن الارتعاش، وفي النهاية بقي متصلباً. تكززت ذراعاه، وبقيتا إلى جانب جسده.

ـ في البداية، قصة البيوك، ومن ثم هو. حقاً ليس الأمر معقولاً. أنظري قليلاً إلى ما فعلوه بهذا المسكين يا ماريا داس أغواس.

غادرت ماريا مكانها ببطء وحاولت أن تتوازن مع اهتزاز المركب، بينما كانت تنتقل من جانب إلى آخر. وصلت بالقرب من كيرينتي كي تراه كله. مررت يدها على جبينه، سوّت له شعره، وبعد أن رفعت تنورتها بهدوء، جلست فوقه. من آخر المركب، حاول كريستوريو أن ينظر، فلم يرَ إلاّ الاهتزاز الجانبي الذي يأتي من البحر والتأرجح من أسفل إلى أعلى، أي تأرجح جسد المرأة.

بدأت الأمواج بالتجمع، بالصعود والهبوط. كان رذاذها يغطي بالزبد مقدم المركب، لينسال فوق الجسدين.

«في أي حفرة كريهة، أسقطت نفسي يا إلّهي؟ هذه المرأة أيضاً، ليست سوى ساحرة. ما من رغبة أنثوية تقوم بعمل مماثل» قال كريستوريو لنفسه.

ـ أوقفي هذا الماخور، أيتها القذرة. فمركبي ليس سريراً للعاهرات! صرخ كريستوريو. وأضاف: إنه شخص ميت، وأنت تقتلينه زيادة.

ما أن مضت لحظة، حتى توقفت عن التأرجح، فعاد الصمتُ ليسود الباخرة. عادت ماريا داس أغواس إلى مكانها. زفر كيرينتي.

ـ تقومين بذلك مع الأموات؟ هذا دليل على أنك من البيوك، متنكرة بشكل امرأة!

كانت ماريا امرأة بحر، أصلحت ثيابها، أمسكت بالحبل، وأدلت بنفسها إلى الخارج، كي تجد التوازن، قالت:

ـ تستطيع أن تفرد الشراع بأكمله وتنطلق. يثير البحر فيّ رغبات لا أستطيع كتمها. وبخاصة عند الصباح. في المساء، تكون أقل لهذا السبب يصطحبني الرجال معهم من أجل رحلات الصيد.

نظر كريستوريو في الفراغ، وقال:

ـ حسناً. حين أدفن أشباح الأمس واليوم، سأقول لك كلمتين.

ـ ساعة تشاء.

هبّت رياح شمالية ـ شرقية. كانت الإيغوالِيبا لا تزال بعبدة

ينبغي تجزيء الرحلة إلى قسمين ـ لأن المد الواحد لا يكفي ـ مثلما ينبغي المبيت في جزيرة كوروبو. استدارت مقدم المركب بذلك الاتجاه، واشتد البحر. بدت الأموج وكأنها تصعد للسماء.

اتجهت السفينة نحو وجهتها الجديدة: جزيرة كوروبو، حيث يجب عليهما انتظار المدّ التالي. فبعد أن يتزودوا بالمياه العذبة، سيتريث كريستوريو قليلاً، ومن ثم ينطلق نحو الإيغوإيبا، حاملاً إلى هناك خبر أن جميع الصيادين الذين ذهبوا لتقديد السمك قد ماتوا، وتركوا هذه المرأة الأشبه بكلب مسعور، آفة حقيقية، أما فيما يخص كيريتي، فما من خطة واضحة، إذ من المستحيل معرفة ماذا أصابه. على كل، لقد كان غامضاً دائماً. لقد مرت سنوات عديدة منذ ذلك اليوم الذي التقطه فيه من على الريسكا، بعد أن لفظه البحر.

تتابعت الرحلة. لم يغادر كريستوريو الدفة. لطُف الهواء. ما من شيء أجمل وألطف من الهواء، وبخاصة عندما يكون ثابتاً ويتنسّم بشكل منتظم، ويرفع الماء، ويُولد أمواج البحر، ويتابع بحثه عن الأراضي والسماء، لا أحد يرغب في تجاهل الهواء في البحر. ثمة عدة ألوان للبحر. للبحر ألوان لا يعرفها أحد. رغب كريستوريو في أن يسأل ماريا كيف كان لون البحر في شهر كانون الثاني، أكان طميّاً، أصفر، فوسفورياً بعيون لامعة.

ـ أتعرفين أن للبحر ألواناً عدة!

ـ أجل.

ـ ما هي؟

ـ لا أعرفها.

زفر كيرينتي زفرة كبيرة. كان ينام كما لو أنه ميت. عارياً، تغسله المياه التي تجتاح الزورق من جراء الأمواج. تنهد وسعل. سأل كريستوريو:

ـ أما زالت ساريته منتصبة؟

ـ مثل سارية المركب، أجابت ماريا داس أغواس.

كان البحر أخضر ذا اخضرار غامق، وفاتح، يسمح برؤية الظلال التي تعكسها الأشرعة.

ـ لون البحر من لون العينين اللتين تنظران إليه. له لون روحنا، ولروحنا لون عيوننا.

ـ لا أعرف شيئاً. لم أر عينيّ مطلقاً. تمتمت ماريا داس أغواس.

ـ في جميع الأحوال، إنه هكذا، قال كريستوريو، شاهدت البحر في جميع أشكاله. رأيته أسود، وأنا أبحر ليلاً. كان بلون قطران الجحيم. شاهدته وهو أبيض، حين كان قلبي، في الصباح، يفكر بالنوارس. كانت تطير فوق المياه، فأصبح البحر أبيض عندها.

ـ لكنه لا يكون أصفر أبداً؟

ـ بلى، حين يكون بلون المساء، لحظة غياب الشمس. يشبه عندها لون غضبنا. وهناك البحر الأزرق، أزرق مثل السماء، مثل الحياة. حين نكون سعداء. في هذه الأيام، تجدينه لازوردياً.

بدأ كيرينتي بالشخير، فيما لم تتوقف ماريا داس أغواس عن النظر إليه. الأمواج الصاخبة. الحياة.

ـ من يحيا في البحر، يحيا من لاشيء. يحيا من حياة الريح

والمياه، للمياه جحيمها الذي يشتعل ليلاً، قبل شروق الشمس. رأيت كثيراً من الصيادين الموتى ومن الأسماك الغامضة.

ـ لكنك لم تر أبداً امرأة تساعد في قيادة السفينة مثلما أفعل أنا.

ـ هذا صحيح، إنك تجيدين العمل، كبحار.

بسرعة خاطفة، تخلصت ماريا داس أغواس من ثوبها، وبدأت بالرقص على الحبل، قافزةً تارة إلى الأمام وطوراً إلى الوراء.

ـ لا تفلتي القلس، وإلا غرق المركب.

كفى هكذا، يا روحاً من العالم الآخر! يا تجربة الشيطان، صرخ كريستوريو بكل قوته، من دون أن يُفلت الدفة.

ـ لا يهم! سنذهب إلى جحيم المياه. من هو هذا الشخص الذي يزفر هنا؟

ـ تتكلمين كمجنونة يا امرأة. كان عليّ أن أتركك في توكوناديبا. اهتمي بما يجب عليك القيام به... ليس ذلك كله، إلاّ سحراً، ولا شيء آخر.

بيد أنها لم تبدل وضعها، كانت حرّة مثل الهواء. لقد تعرّض المركب للأمواج العاتية، وبما أنها لم تكن تستند إلى شيء، فقد تمايلت. شعر كريستوريو بالخطر، بيد أنه لم يستطع التخلي لا عن مقبض الدفة ولا عن حبل الشراع.

كان كيرينتي لا يزال يشخر. بدا كأنه يرغب في الخروج من نوم الأموات. ازداد ارتفاع البحر. إنه ممر المياه المنحسرة، التي كانت تأتي من خليج سان جوزيه. الأمواج عالية. وما من مجال للنظر إلى الخلف للتأكد من سير السفينة. ثمة أسطوانة خشبية من

الجهتين. كان المركب يتجه رأساً إلى قمة الأمواج التي تتحطم، التي تكشح كل شيء، مالئة متن السفينة، حتى وصلت المياه إلى علو شبرين، أصبح بعدها من المتعذر إفراغها.

ـ اثبتي يا ماريا، توقفي عن المزاح، ليست اللحظة المناسبة.

كان المركب يعلو ويهبط، يتقدم ويتراجع، يتأرجح في جميع الاتجاهات بسبب الأمواج العاتية، بسبب هذا البحر المشطور الذي لا نعرف معه، إن كنا في الأعلى أو في الأسفل. كانت حركته، حركة مستمرة، جيئة وذهاباً. والرحلة تتتابع.

أفلتت ماريا الحبال. صرخ كريستوريو:

ـ أيتها المجنونة! عودي، سنغرق.

وكأنها لم تسمع، إذ رمت نفسها على كيرينتي المحتضر. المركب يتمايل، يروح ويجيء وكريستوريو يمسك الحبال بشدة، يحل الشراع أو ينشره كي لا ينقلب المركب.

ـ أيتها المجنونة البلهاء، توقفي، بحق الرب. أمسكي البينابو مجدداً

لكنها استمرت في عملها، وكيرينتي يطلق حشرجاته الآتية من أعماق بلعومه. من يعرف كم من الوقت سيستمر ذلك الأمر، الذي كان عذاباً ولذة. نظر كريستوريو إلى البحر، كي يرى لونه. بدا كأن الشمس غرقت فيه. لونه بلون القرع، أحمر يميل إلى البرتقالي، والمياه لا تبدو كمياه.

أين هي جزيرة كوروبو.

نهض كي يرى كيرينتي. لقد اختفت ماريا داس أغواس. أغشِيَ عليها في دوامة حيث الأمواج تتدفق. لقد بقي سرّ تلك المرأة

نظر كريستوريو إلى الأثلام على المياه، إلى جانبيه، ولم يرَ أحداً.

صَوَّب نظره إلى البعيد علّه يلاحظ شيئاً. رأى، في البعيد، المركب الأبيض الذي تبعه ذات مرة. بدّل سيره ليذهب في ذلك الاتجاه. لم يعد يهمه كثيراً إلى أين يتجه وكيف ستنتهي هذه الرحلة. بدا كل شيء شاذاً، حتى أن جسده بدأ يقع فريسة شيء غريب. لا شيء له معنى، هدف، إحساس. ركض، أفرد الشراع، وصل إلى الأمام. كان مركبه يسير بشكل مواز للمركب الآخر. يستطيع رؤيته بوضوح. على متنه كانت ماريا داس أغواس، عارية، تتأرجح على البينابو، بينما المركب يبحر نحو جسامة البحر التي لا تخوم لها. ارتعش كيان كريستوريو بأسره، وشعر برغبة في استعادة المرأة التي أمضت فترة طويلة مفرشخة فوق كيرينتي. كانت سمراء اللون، قاسية، متينة، ممتلئة. كانت امرأة بحر، لفحتها الشمس. هي شبح أم سراب؟ إنه يجهل ذلك.

اتجه نحو الإيغوالِيبا. أمضى فترة، مبحراً وحده، من دون أن يساعده أحد في الحفاظ على توازن المركب الذي أنزل شراعه. ترك جزيرة كوروبو في الشمال الغربي، ورحل بشكل مستقيم نحو مصب نهر تيمبوبا، مخاطراً بأن لا يجد تياراً ليدفعه إلى الدخول كي لا يسبح في الوحل. كان بمقدوره أيضاً أن يغرق في أي مكان. بيد أنه ينبغي عليه الذهاب إلى إيغوالِيبا، ليروي ما حصل لهؤلاء الرجال الذين ذهبوا إلى توكوناديبا للصيد، ولتلك المرأة الغامضة التي جاءت من تلك الناحية، والتي لا يعرف ما إذا كانت سقطت في البحر أو أن ذلك كله لم يكن سوى سحر.

*

نجح في توجيه السفينة إلى مبتغاه. رسا. توجَّه فوراً إلى كريزيو، وهو تاجر عند زاوية الشارع، يدير محلاً غذائياً.

ـ سيو كريزيو، جئت أقول لك إن الرجال الذين ذهبوا لتقديد السمك في توكوناديبا، تعرضوا خلال الليل لهجوم، وقد افترستهم الوحوش والكلاب والبيوك.

ـ ماذا جئت تقول يا بنيّ؟

ـ إنها الحقيقة.

ـ أنت مريض.

بالتأكيد لا، جئت كي أروي ما حصل. لقد كانت برفقتي ماريا داس أغواس. أتعرفها.

ـ من لا يعرف ماريا داس أغواس هذه؟ الجميع يعرفها هنا.

ـ حسن، كانت معي وقد اختفت في البحر، قال كريستوريو.

ـ غير ممكن. كانت هنا منذ نصف ساعة. إنها أشهر عاهرة في إيغواإيبا.

ـ أنت تمزح!

ـ لقد فقدت عقلك يا كريستوريو، أيها المسكين، ما زلت صغيراً على ذلك. ما من صياد ذهب من هنا، ليقدد السمك في توكوناديبا.

ـ أتعرف كينزينو وزيديكو وبادوكو؟

ـ بالتأكيد!

ـ عال، لقد ماتوا في تلك الحادثة.

ـ إنك تخرّف! لقد عادوا منذ نصف ساعة، كانوا في رحلة صيد على متن البانكو فيليز.

شعر كريستوريو بارتباك تام. من الصعب ترتيب كل هذه الأمور.

ـ سيو كريزيو، أتعرف ما هو الهذيان؟

ـ قسماً لا.

ـ إنها الحالة التي تشعرني بها الآن.

وصلت امرأة متأنقة. في شعرها زهرة، وردية اللون من الرغبة. نظر كريستوريو إلى عينيها، من هي؟

ـ ماريا داس أغواس.

ركض إلى مركبه. كان كيرينتي ميتاً، وحلقه مشدوداً. ومن عينيه المتقلصتين تسيل دموع حمراء. رحلت تلك الروح إلى اللانهائي، إنه سيفتقد هذا الصديق.

VIII

بدأت الكثبان تجتاح الكوخ المهجور على شاطىء كاريما. رمل أبيض بلون البرق. النخل المطمور يئن كالحمير التي تغرق، إنه يهلك مختنقاً بالرمل الذي يسد مسام الأوراق وعناقيد الثمر. منذ فترة طويلة اكتست «الموريسي»(*) وتكفنت، مثل أموات في مقبرة من الرمل. لقد توقفت، هي، عن الأنين. لم يعد يأتي منها سوى رائحة خفيفة من تعفن الأغصان، رائحة نباتية. ثمة عدد من الأحصنة كانت قد غاصت في التلال المتحركة، وبقيت لأيام، تطلب النجدة، وهي تصهل على أمل أن يأتي أحد لينقذها. أسرعت الأفراس لنجدتها بحماسة، فاقدة الصبر، بيد أن الفحول لم يكن باستطاعتها التحرك. نفقت وهي تتخبط، محدثة بذلك، أعاصير رملية كثيفة كانت تقرقر مثل يُسروع تخبط قوائمه بحثاً عن أرض ثابتة. ثمة تلة بيضاء كانت تكبر يوماً عن يوم، مغلّفة كل شيء. غمرت كل الزرع الموجود، والمياه الراكدة التي كانت حواليه. لم تتوقف الريح عن الصفير، حيث دكّت الرمل فوق بعضه، محدثة الخطوط والانحناءات، الجيوب والحفر، السفوح الشاقولية، والمستودعات التي كان يتبدل شكلها في كل لحظة من

جراء حركة الرمال التي لم تهدأ. الرمال الدؤوبة التي تحملها الريح والتي كانت تبني أوكاراً بيضاء عالية، حيث أن العيون المحدقة كانت تدمع وتبكي تحت وهج الشمس، في هذا البياض الذي يطير ويمتزج بالدموع.

في هذا الصباح، رسا كريستوريو على شاطىء كاريما منتظراً أقصى المد، وألقى شباكه على أمل التقاط «الأوريتينغا»(*)، الذي كان يتواجد بكثرة لحظة المدّ والجزر الشديدين. وبما أن الرمل كان مرتفعاً، ليشكل تلك التلال التي شكلتها حركة الكثبان، رأى، ويا للغرابة، على أعلى قمة ـ القمة البيضاء ـ بقايا نخلة باباسو دمرتها الريح. كانت سعف قلب الشجر تحتضر، وقد هرسها ومزقها تيّار الرمال الذي لم يتوقف عن الدوران، مدفوعاً بهبوب الصابيات[1] الأصفر التي لم تكن تتوقف أبداً في هذا الفصل.

بدأ بالصعود كي يروّض ساقيه ـ وهو تمرين شاق مثل تسلق الكثبان ـ فرأى حينذاك ما لم يكن يتوقع رؤيته أبداً. أمر يشبه تلك الزوبعة التي تتشكل في دست مربى الحليب الذي نحركه لكي نجعله عند درجة الاكتواء المطلوب. كانت الرمال تدور وتشكل تجويفاً عند وسطها، حيث انبثق من أعمق أعماقها أحد ساكني الأحشاء، أي ذلك العجوز الذي كان يبلغ مئات السنين، بينما شعره أبيض جداً وجلده مجعد. رأى كريستوريو حفرة رملية ترتفع لتذهب وتبتعد وهي تطرز عُرف الكثبان، وتتناثر في السماء مثل الهواء، ومن ثم تتفتت كلياً في الأعالي. وهذه العملية كانت تتكرر

(1) أو النكيّبات: رياح تهب من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي.

مراراً وتكراراً. خشي أن تحمله واحدة منها إلى الغيوم. امتلأت عيناه بالرمال. أغلقهما. تمدد ثم نهض وتوجه إلى الشاطىء، إذ خشي في الواقع أن يُغمَر مثلما غُمرت كل الأشجار والبهائم التي كانت تعيش هنا.

ـ من أنت؟ سأل كريستوريو.

ـ أكيموندو، الزمن.

ـ ما هذه القصة أيضاً؟ الزمن؟ الزمن هو حين تمطر، حين تشرق الشمس، حين يكون الزمن. وأنت؟

ـ أنا أكيموندو، الذي لم يمرّ عليه الزمن. أنزّه نظرتي على الأشياء وأحيا. لقد اجتزت بلداناً عدة، صوفالا، كيريمبا، إيبو، بمبا، مومباسا، ميليند، بات، أرموز، ديو، جوا، كوشان، ملقة، سيلان، ميليابور، ماكاو، تيمور، لقد وصلت إلى ناغازاكي مع فرانسوا كزافييه، ذلك الأب اليسوعي الذي أصبح اليوم قديساً، إلاّ أنه يسافر معي فوق الأماكو، «سفينة ختم آب الأحمر»، العاملة على خط اليابان.

ـ لا أفهم شيئاً من كل هذه الثرثرة، حتى أنني لا أعرف عمّا تتكلم. كل ما تقوله، بربرة العالم الآخر.

ـ وأنت، من أنت؟

ـ كريستوريو، صياد من موجوو.

ـ وأنا أكيموندو، صياد الزمن.

فكر كريستوريو: «لقد رأيت الكثير من الأشياء في البحر، والقليل على الأرض. هذا العجوز ليس سوى شبح بحري، جاء إلى الأرض اليابسة كي يلعب دور العائد. ينبغي أن أذهب وأترك هذا العجوز، في مكانه، بين الكثبان».

بيد أنه لم يستطع فعل ذلك. اقترب العجوز منه. وفي اللحظة ذاتها، ارتفع إعصار رملي من الكثبان وبدأ الهواء بالصفير، كما لو كان سوطاً. قال بصوت سلطوي:

ـ من العبث الهرب يا كريستوريو سأرحل معك. أرغب في الإبحار ومغادرة الزمن الذي لا يتركني أموت.

نظر كريستوريو إلى عينيه. كان عجوزاً، له مظهر أقدم عجائز هذه المنطقة. على وجهه، كانت التجاعيد واضحة جداً، بيد أنها كانت تشبه آثاراً مدموغة إلى الأبد. غادر الأرض الرملية وبدأ يتقدم، كما لو أن اهتزاز الأمواج جعل قدميه تترنحان.

ـ لا مكان عندي على متن المركب. إننا ثلاثة أشخاص. وحين يصبح العدد أكثر من ثلاثة، لن نستطيع عندها اقتسام ما نصطاده.

ـ لا تهمني القسمة. كل ما أرغب فيه، هو الإبحار. لقد وصلت إلى هنا على التيّارات التي تجوب المحيطات والتي تركتني فوق هذا الشاطىء. خذني معك. أريد أن أرى البحر، الأمواج، أريد أن أتذكر كراكة[1] الهند.

ـ ماذا يعني ذلك أيضاً؟ نحن هنا، لا نملك من هذه السفن، ولا مراكب فضفاضة.

ـ لكنني أعرف أين نلتقي بها. ألم تلتقِ بسفينة الأموات؟

ـ كيف تعرف ذلك؟ لا يحكى عن هذا الأمر، قال كريستوريو:

ـ ومع ذلك أعرف أين هي المراكب الميتة والتي لم تمت.

---

(1) سفينة مستطيلة ومرتفعة عن سطح الماء كانت تستعمل في القرون الوسطى.

«عجوز خرف يتحدث مثل الأشباح، فكر كريستوريو. من الأفضل أن نطلب الصلاة لراحة نفسه. لا أستطيع أن أبحر مع هذا الهيكل».

ـ سأذهب في جميع الأحوال، قال العجوز، كما لو أنه يستطيع قراءة فكر الآخر. تعرف جيداً أنه عند لحظة الانطلاق ـ أرافقتك أم لا ـ سأكون على متن المركب. الرمال ترتفع هنا، أعلى من تلك التي تنتصب قاطعة الطريق أمام القوافل الآتية من سينيغامبي، المحمّلة بالذهب والمال والعبيد، والمتوجهة إلى سان جورجي دامينا، في إفريقيا، حيث أرسلنا الملك دون جوان الثالث.

ـ توقف عن خطابك المعقد هذا الذي لا أفهم منه كلمة.

ـ حسن، لنذهب بحراً.

شعر كريستوريو بالتشوش. فكّر: «يا لحظي السيء! أكان عليّ أن ألتقي بشبح، هبط كي ينتظر المد، مثلما فعل مرات عدة». رأى كثبان الرمل التي كانت تتقدم ككائنات حيّة، والتي ترتفع وتغطي كل شيء. حينذاك، ظهرت له تلك الشخصية داخل أحد الأعاصير، مثل روح متألمة في وضح النهار، حيث كان من الصعب تصور وجوده في هذا المكان، وسط أشجار النخيل المغمورة والتي كانت تختنق وهي تئن.

ـ من أنت؟ خاطر كريستوريو بالسؤال مرة أخرى.

ـ أكيموندو، سبق أن قلت لك ذلك. لقد أبحرت على المراكب التي توجهت إلى البحر المتوسط في عصر الصليبيين. التقيت بالبوسانتور المركب الذي شارك في احتفال الدوج[1]، حين

---

(1) قاضٍ أول في جمهوريتي جنوى والبندقية.

رمى بخاتم زواجه الذهبي، كي يحتفل بزواج مدينة البندية وبحر الأدرياتيك. كذلك رأيت أحد «الليبانت»، أي اتحاد الماء بالنار. كان البحر مغطى بالجثث والدماء.

تابع هذيانه:

ـ غرزت سيفي في صدر القرصان العثماني غفورعلي. البندقية كلها، كانت تحتفل لاستقبالنا عند عودتنا.

ـ ما هذه التفاهات التي يتلفظ بها هذا العجوز المجنون! تمتم كريستوريو. لا يروي سوى قصص غير مفهومة، كبرطمة سكير يقول أي شيء. ومن كانت تلك الفيلة[1] التي تتحدث عنها.

ـ فيما بعد سأخبرك كل ما أعرفه، من رحلاتي مع برتغاليي الشرق حتى وصولي إلى شواطىء مارانياو، عبر التيارات التي كانت تثلم المحيطات.

ـ أيها المخبول، صاحب القصص المملة، قال كريستوريو مرة أخرى.

صعد أكيموندو إلى متن البيانا. بقي واقفاً فوق مقدم السفينة، تاركاً الريح تداعب لحيته. حدق باتجاه الشمس، سار بذراعين مفتوحتين، بينما كان كريستوريو، يعيش مرة أخرى، سحر المياه.

ـ في أي يوم نحن، باستياو؟ سأل رفيقه؟

ـ الجمعة. أجل، يوم الخداع والسحر! ختم بالقول.

*

وصل إلى مرفأ موجوو. كل ما حصل له، كان ذا معنى: كانت

---

(1) فقمة بخرطوم.

إشارات عن حياته. إنه لا يستطيع الهرب من القدر.

حين ترجل من المركب، حيّاه أحد معارفه القدماء.

ـ صباح الخير سيو كريستوريو.

ـ سيو كريستوريو أيها القذر، يا ابن العاهرة! منذ اليوم، إنني القبطان كريستوريو، لقد تسلمت شهادتي في البحر، وهذا ما أرغب في أن تناديني به. بدءاً من اليوم وحتى إشعار آخر. لا أحد أكثر مني يعرف هذه البحار وفنون الصيد. أنا القبطان كريستوريو.

ـ قليلاً من الاحترام يا كريستوريو! فأنا صديقك منذ فترة طويلة، ولا أقبل منك أن تشتمني.

ـ حسناً، ها قد تمت شتيمتك. استعد لتقول إنني القبطان كريستوريو منذ أن اصطدت في غارابيرانغا.

ـ في جميع الأحوال، لا أقبل أن تشتمني.

ـ إنها مشكلتك. بالنسبة إليّ، القضية محلولة.

يدعى محدثه فيرتوبيل، وكان في مثل عمره تقريباً. هو أيضاً، مثل أخيه لاديسلو، بحار في موجوو، اشتهر بمشاغبته وسكره.

ـ إن كانت هكذا هي القضية، فسنرى.

لم يعد من مجال في تجنب المواجهة. اقترب الرجال الذين يعيشون هنا، في المرفأ، شهق كريستوريو بعمق، وسحب سكينه، الذي يبلغ عرض نصلها، نصف شبر وقال:

ـ ها أنا على استعداد.

تقدم فيرتوبيل بخطى واثقة.

ـ سيو كريستوريو، إن كنت تظن أن الأمر يستحق عناء ذهابك إلى السجن لأنك قتلتني، بحجة أنني ناديتك «سيو كريستوريو»، هيّا، الفرصة مناسبة.

ـ ما عليك سوى أن تتقدم.

ـ حسناً، «قبطان كريستوريو»، إنَّ أمك لعاهرة! قال فيرتوبيل.

ـ ماذا؟

ـ عاهرة أمك! وبدأ بالتقدم باتجاه السكين.

لم يتحرك كريستوريو، وقف مثل سلطعون يستعد للعراك. باعد ساقيه عن بعضهما بعضاً، تشنج وجهه، اشتدت عضلاته، حدّقت نظرته.

عندئذ، ولا أحد يعرف بدعاء ورجاء من، كيف أن الكلبة الصغيرة بيكول ـ وهي كلبة هجين صفراء اللون كانت تتسكع في الأنحاء دائماً ـ هرعت أمام الجميع، منتصبة الذيل، لتصل بالقرب من كريستوريو لتبدأ بالنباح بغضب، كأنها تطلق وعيداً، حتى أن كريستوريو اضطر إلى التراجع، رويداً رويداً، لغاية مركبه. نظر إلى الهيكل فتلقى إشارة الإبحار، الذي كان يقول له بوضع حد لهذا الشجار عديم المعنى، الأنكى من إبحار بلا مياه.

IX

اعتقد كريستوريو أن كل هذه الأشياء التي تحدث له، تشكل جزءاً من معركته، في البحث عن البيوك وكيرتيدي وأسرار البحر. ذات يوم، وبينما كان يلعب البليار في حانة كيبرادو، قال، محدثاً نفسه: «إن الأمور تسوء باضطراد في رأسي. من الصباح حتى المساء ومن المساء حتى الصباح، تدور أحداث وها أنا لا أتوقف عن البحث من دون أن أجد شيئاً».

طلب زجاجة من عَرق المنيوت، الأقوى، الذي لا يترك أحداً واقفاً على قدميه، والذي من الأفضل عدم مزجه بالماء. لم يكن معتاداً على الشرب، لكنه كان يشرب. كرع زجاجة كاملة ففقد السيطرة على نفسه. متأرجحاً، اتجه نحو مرفأ موجوو، فوصل إلى مركبه وهو يفكر بالرحيل. كان انحسار المد في نهاية النهار. فأدرك أنه سيرتكب حماقة:

«أعتقد أنني مخبول بشكل كامل.. لم أعد أعرف حتى كيف أتماسك لكي أبحث. في داخلي ظل أسود. أهي لعنة هذه البهائم القذرة، أم لعنتي أنا؟ إن ذكريات مآسيّ لا تغيب أبداً. أرغب في

أن لا أضع قدمي خارج السفينة. أرغب في السفر بحراً، الإبحار إلى الصدفة، بلا هدف، أشبه بسير السلاحف».

صعد إلى متن مركبه، لم يطلب من أحد أن يرافقه. علا البحر. لم يهتم وقرر الرحيل بالرغم من كل شيء.

ـ ما بك يا كريستوريو؟ أتخرج الآن؟ إلى أين أنت ذاهب؟ سأله فالنتيم.

ـ لا أعرف، ليس لدي أي حساب لأقدمه، أيها الزنجي!

ـ لست على ما يرام!

ـ دعني، ثمة أمر يدور في رأسي. إنني أركض خلف ذلك الشبح الذي رأيته داخل شجر المنغروف، الذي كان يدخن سيجاراً.

ـ أنت خجول يا كريستوريو. حين لا نجيد الشرب، تسير الأمور دائماً على هذا النحو: جرعتان، وينقلب رأسك.

لم يتفوّه بشيء، رفع الشراع وانطلق.

حدث ذلك في شهر نيسان، شهر الأمطار. ثمة عاصفة كبيرة كانت تتحضر عند الطرف الشمالي ـ الغربي، غيوم سوداء ثقيلة، دفعتها الريح، كانت تركض في السماء مثل قطيع ثيران هائج، مُطلقة الزواعق والرعود. ليس هذا ما أشعره بالخوف. انتفخت الأشرعة. شدَّ طرفي المركب كي يتقدّم ويتابع سيره. بيد أنه كان ذاهباً بلا هدف ففكر: «أريد أن أذهب نحو الأجزاء المطمورة في الغابة، هناك ستنشب المعركة. هذه البهائم السيئة تنتظرني، وسأحاول البحث عنها. سيطلق سراح كيرتيدي». لم يكن في رأسه سوى تلك الفكرة الثابتة التي دفعته، منذ ثلاث سنوات، لكي

يطوف من جزيرة إلى جزيرة، ومن ساحل إلى آخر. اجتاز المصب، فظهر رأس باناكواتيرا. كان أكيموندو هناك. إنه يعيش الآن هنا، في كوخ مهجور على هذا الشاطىء، فأشار إليه طالباً منه أن يشطط.

حوّل كريستوريو اتجاه سفينته. كانت تلك نقطة اتصال قناتي تيمبوبا ـ وباو ـ ديتادو، نقطة اصطدام الأمواج والتيارات المائية. عند طرف الحرف، تقع نهاية مساحة رملية جرداء تمتد على مسافة كيلومترات من الرمل الأبيض، تتقاطعها شجرات المنغروف والوحل. كان أكيموندو هنا، ضعيف البنية، أبيض الشعر، يلمع ببريق مضيء كالشمس. طلب من كريستوريو أن يصطحبه معه للصيد:

ـ كريستوريو، أرغب في القيام بنزهة معك. كنت أعرف أنك ستأتي وبأنك بحاجة إلى رفقتي.

ـ آه حسناً، هيا، سيو أكيموندوا أرغب اليوم في رؤية أين تقيم والدة المياه.

صعد أكيموندو إلى المتن، وأبحرا معاً نحو البحر الكبير.

كانت وجهتهما، المساحات البحرية الواسعة، هنا، حيث لا نشاهد إلاّ السماء، ارتفع البحر. أصبحت الأمواج عاتية أكثر فأكثر، والوقت متوعداً أكثر فأكثر. كانت الغيوم تقترب، سوداء دائماً، والهواء العاصف يزوبع يدفع إلى الخوف. إنها إشارات مؤكدة عن المطر الغزير والعواصف. إشارات عن ذلك الطقس الذي يوحي بالخوف للجميع. كان كريستوريو معتاداً على ذلك، كما كان يحب مصارعة الماء. اختفت الشمس. وصلت الحرارة،

ازداد الضغط، وبدأ الجميع بالتعرق. ها هو الهواء الذي يهب، حارقاً كنار الجحيم، حاملاً معه المطر الذي يهطل كالسيل، مثلما يحمل المطر المدرار والخوف. هكذا هو الطقس. كان كريستوريو ينظر بعينيه الاثنتين. كان على مقبض الدفّة، ممسكاً حبال الأشرعة بثبات، متوجهاً إلى المدى، ذاهباً إلى المعركة. لن يصارع البحر فقط، بل الوحش أيضاً. كان يتحدى كل شيء. ما من نقاط إيجابية في أفكاره. أصبح الأمر هاجساً لديه. بدأت الغيوم السوداء بتطويق المركب. آخر ما شاهد كان الحاجز الأحمر. بدأت الأمطار بالهطول، ناعمة في البداية، ثم بدأت تشتد تدريجياً، وسرعان ما أصبحت ذات نقاط كبيرة تسبب ألماً في الظهر. فيما بعد، بدأت الزوابع الغاضبة تزأر، ضاربة الصاري وكذلك جانبي المركب. الماء في كل مكان، حتى في السماء. كانت البروق تمزق المساء الذي يحل كما لو أنها كانت تقطع قماشة الليل بمقصٍ من نور. كان هدير الرعد، يسمع من جهة، فيغلف السماء كلها ويضيع. لم يكن البحر سوى قوة هائجة. دخل المركب في الموج، خرج منه، مرّ عبرها وفوقها. لم تكن تشاهد لا الأرض ولا السماء، ما من شيء آخر سوى المياه التي كانت تهطل وخطوط النار. بدا الأمر كما لو أن السماء ذاتها اختفت. لم يشعر كريستوريو بالخوف. صحيح أن روحه قلقة، إلاّ أن يديه ثابتتين على الدفة. أضيفت ثلاثة أكياس من الرمل كي يزداد ثقل المركب الذي كان يهتزّ في تقدمه، ويرتجّ في جميع الاتجاهات. بيد أن كريستوريو كان ماهراً في أن يكون السيد في جميع الأوقات. لم يكن يرى حتى الصاري. أما الشراع، الذي ثَقُلَ، فكان بإمكانه أن يغرق المركب، في أي لحظة. بالنسبة إلى سيّد

السفينة، فإن الشيء الوحيد الممكن القيام به في حالات مماثلة ـ وهذا ما يعلمه كريستوريو ـ يكمن في نشر القلوع قبل أن تمزقها الرياح العنيفة. وهذا ما فعله. سحب المقود، تاركاً المركب يذهب على هواه حيث لم يكن هناك سوى المطر والهواء وتيّارات الموج.

ـ كريستوريو، قال أكيموندو، تستطيع القيام بما تريده، أما أنا، فلم أعد أجد جديداً في هذه الأمور.

كان المركب يعوم مثل طوافة، بيد أنها طوافة مليئة بالماء. تصدى للبحر. ولم يتبق أي شيء في داخله: لقد حملت الأمواج معها كل شيء. كان كريستوريو، يعرف أيضاً، أنه وسط عواصف مماثلة، لم يعد الإبحار ينفع: لذلك ليس أمامه سوى التوقف، أن يصمد على متن المركب وينتظر. ينبغي ترك الوقت يمر. عندئذ وفي قلب العاصفة، رأى إلى جانبه، ما بين الأمواج الرمادية ووضوح التفريغ الكهربائي، مرور مركب شبحي. لم يكن قد شاهد واحداً مثله قريباً إلى هذا الحد، بيد أن صيادي هذه المنطقة كانوا يعرفون طريق الكرافيلات[1] المبتهجة التي كانت تتردد على هذه البحار. شبح عملاق. مركب بثلاثة صوار، على متنه فريق من الظلال، كان البحر ـ الذي يضرب فوق الكوثل ـ يرميه بعنف من طرف السفينة الأمامي، إلى طرف المؤخرة.

ـ ما هذا الشيء؟ سأل كريستوريو أكيموندو.

فأجاب هذا الأخير:

---

(1) جمع كرافيل

ـ المركب «ريجينت». على متنه ـ المسجون داخل مقصورته ـ الاسير دو لارافارديار، الذي ـ ومنذ ثلاثة قرون ـ يبكي موت ابن عمه، الجنرال باسيو، الذي غامر في محاولة جعل لويس الثالث عشر ملكاً لفرنسا ونافار ومارانياو.

انتفخت الأشرعة كلها. ثمة مصابيح أضيئت في العواصف. لن تنطفىء أبداً. إنه كرافيل يتسع لأربعمئة برميل. على جانبه، رسمت زنبقة، شعار المملكة الفرنسية. مركب متسلح بمدافعه، وفي ليل العاصفة المعتم، يبحر كئيباً. سمع كريستوريو صوت انفجار: إنها ضلية مدفع قذفت باتجاه الليل. من إحدى الكوات ظهر خطم صقر، تراجع فيما بعد. صرخ البحارة:

ـ مضخة الماء، أسرع!

ـ أنظر، يا كريستوريو، قال أكيموندو. هكذا كانوا يعانون في الزمن الغابر.

لقد تسرّبت المياه، ينبغي تشغيل المضخات. ظهر شكل امرأة على الصاري المائل، في ظل الزاوي[1]. ترتدي زياً ملكياً. لم يكن الفرنسيون يصطحبون النساء إلى الحرب. كانوا يحاربون من دونهن. إنها ترتدي مشملاً أزرق. أهو أزرق فعلاً؟ من المستحيل التمييز، لكن من المؤكد أنها امرأة.

أبحر كريستوريو إلى جانب المركب. كان قريباً جداً، في قلب العاصفة. اشتد الهواء، تضاعف هطول المطر، والرعود تسقط مثل أمواج النار. كانت شحنات الإنارة تفرقع مثلما تنفجر الألعاب

(1) شراع مثلث الزوايا في مقدّم السفينة.

النارية في عيد القديس يوحنا، مثل الصواريخ والأسهم والقنابل المضيئة على شرف القديسين. ارتفع صوت مخنوق، أصحل:

ـ إننا نبحث عن اتجاه حصن سان لويس. عن مدخل الخليج.

ـ لا أرى شيئاً. سنقصد عرض البحر، ولا أعرف أين هو.

أضاف أكيموندو تعليقاً أخيراً:

ـ إنه صوت نائب القبطان، الذي يرغب في إيجاد الطريق. لكن هذه الباخرة لن تجد مرفأ أبداً.

«سيغرقوني» فكر كريستوريو. رُكِزت مدافع الكرافيل، ارتفع نحيب يائس من الجسر. كان هناك باخرة وكان هناك ظل «إن أشباح البحر، أولئك الذين يبحرون صوب الهزيمة. أما الانتصارات فتسير باتجاه الأرض الثابتة»، قال أكيموندو، متجاسراً أمام الإعصار. بحركة خاطفة أمسك كريستوريو بالزجاجة التي كانت تحت المقعد وشرب من عنقها. اقتربت «الريجنت». كانت باخرة الأسطول الأميرالي، التي جاءت لتحتل مارانياو، كي تضمها إلى ممتلكات فرنسا.

كان كريستوريو يجهل كل شيء عن هذه القصة. كان يرى الباخرة تلك فقط. وفي مقدمها، راية الملكة.

تساءل إن لم يكن مجنوناً. شعر بشيء في رأسه. استعاد ذكرى البيوك. صرخ:

ـ تعالوا سنذهب للبحث عن الوحوش. افتحوا الكوات، أطلقوا النار من جميع المدافع! سنقتل البيوك! كان البحر يرتطم بقعر السفينة الذي رفعته الأمواج. بينما كانت «الريجنت» تبحث عن مرفأ ضائع. مرفأ لن تصل إليه أبداً.

ران السكون العميق. حدث انفجار أعنف من سابقه. كان كما لو أن الزاعقة تسقط حالياً في داخل المركب. لم يعرف كريستوريو ماذا يفعل كي يتقدم. أمسك بدفة القيادة فقط. كان المطر يهطل بقوة تشبه قوة الطبيعة. واستمر الحال على هذا المنوال طوال الليل. إلى جانبه، كان «الريجنت» الشبح التي لم تبتعد عنه إلاّ في اللحظة التي انبلجت فيها أولى أضواء الفجر. إذ ذاك، بدد النور كل التعازيم.

طلع النهار تحت مطر ناعم. لم تظهر أي إشارة تدل على يابسة، لا شيء سوى لون البحر الرمادي. كان الزورق مليئاً بالمياه. حاول كريستوريو إفراغه، أحس بوجع في رأسه. استدار المركب. لم يعرف سبب عدم غرقه إلى القاع. وحينئذ شاهد بالقرب منه، على حافة المركب تقريباً، جسماً طافياً.

ـ غريق!

حاول الاقتراب. كان الجسد يروح ويجيء فوق وجه الأمواج التي كانت تبعده وتقربه، بشكل متناوب. جاهد في التقاطه. استمر الصراع لعدة ساعات. في نهاية الأمر، استعان بالمحجن، ليشبكه ويسحبه. بدا الرجل، المرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً أصفر، ميتاً. بدا في الثلاثين من عمره. فمه مفتوح بسبب الموج، وبطنه منفوخ بسبب المياه التي ابتلعها. وجد كريستوريو مشقة كبيرة في وضعه داخل المركب. حينذاك سمع صوتاً:

ـ أو.. يه، أيها المركب! إنني غريق.

لم يشاهد أحداً عند النظرة الأولى. بدأ بالبحث واكتشف بالقرب منه أيضاً، جسداً آخر، طافياً على وجه الماء. كانت عملية

إصعاد هذا الرجل، إلى المركب، أسهل. كان حيّاً. ألقيا إليه ـ كريستوريو وأكيموندو ـ حبلاً، وسحباه. كان رجلاً عجوزاً في الستين تقريباً، على مشارف الإنهاك.

ـ انتبه، سنساعدك في الصعود إلى ظهر المركب.

ـ إنني منهوك القوى.

سحبه كريستوريو، وفي وقت قصير، نجح في وضعه في المركب. كان وجهه منتفخاً.

ـ من أين أنت؟ سأله.

ـ من تيمبوبا. لقد سحبتنا العاصفة. كنا سبعة. أجهل أين هم الآخرون.

نظر إلى الجسد وتعرَّف عليه.

ـ إنه زيفيرينو، أحد أبناء العجوزة ماتيلدس.

ـ أين كنتم؟ سأل كريستوريو.

ـ كنا ذاهبين إلى الكوروا فيليز. لم أشاهد مطراً كهذا أبداً، خلال عشرين سنة عملت فيها بالبحر. لا أعرف كيف استطعت أن تنجو. ما من مركب، هنا، استطاع النجاة.

ـ لقد قادتني سفينة الموت.

ـ ماذا؟

ـ سفينة الموت.

ـ لا تقل شيئاً مماثلاً يا بنيّ.

انتظرا انفراجاً جوياً كي يعرفا أين هم الآن، وإلى أين سيذهبون. لا أحد يرى شيئاً. تأرجحت جثة زيفيرينو، داخل

المركب، بسبب قوة تموجات البحر. العجوز المسكين، الذي بالكاد كان يستطيع التكلم، طلب أن يشرب. في ضوء النهار المتصاعد، شاهد كريستوريو في البعيد، مكسر أمواج كانتو، الذي كان يظهر على سطح الماء، في محيط جزيرة كوروبو الشمالي. اتجه إلى هناك. كانت عضلاته منتفخة بسبب نضاله طوال الليلة الفائتة. كانت رائحة عرق المنيوت تفوح من جلده، كما كان رأسه عجلة احتفال كبيرة. بالرغم من كل شيء أمسك بالدفة جيداً، غضّ عينيه، وأدار المقبض.

فكر: «والوحوش والبيوك؟» وسمع صوتاً ـ أحقاً سمعه؟ ـ كان يصرخ:

ـ أين ما يخصني؟. . .

أجاب، كما دائماً:

ـ في قفا أمك. .

مر في السماء سرب من طيور أبو منجل الحمراء، صفاً واحداً، حيث شكلت خطاً مرتخياً، ربما لسعادتها. تُحلّق، تارة إلى الأعلى، وطوراً إلى الأسفل، مرفرفة في الهواء، باتجاه جزيرة سانتانا. كان دليلها يتقدمها بشكل واضح. أما من كانت متأخرة إلى الوراء، فقد أفرجت ذنبها وقوائمها على طريقة الطاووس.

ـ ليتمجد اسم الرب الذي خلق عالماً ماهولاً بمخلوقات عدة.

لم يستطع العجوز سوى الغمغمة.

ـ أريد أن أشرب، أريد أن أشرب! أين رحل رفاقي؟

حاول كريستوريو ـ وهو نصف سكران ـ أن يجيب:

ـ إنهم في التبرّز.

أضاف أكيموندو:

ـ في تبرّز العصور.

وأخيراً، رسى المركب في مرفأ جزيرة كورويو. كان هناك العجوز جوليو، الرئيس جوزيه إيريس، جواو وفيليبينيو. كانت الساعة الثالثة من بعد الظهر.

*

كانت جزيرة كورويو ترتاح فوق البحر. حدودها الرملية تتناقض مع لون شجر البلاذر الأخضر كما مع لون نخيل التوكوم.

ـ سيو جوليو، أنا برفقة رجل ميت وآخر يحتضر. غريقان جلبتهما. لقد غرقا في العاصفة ليلة البارحة. أهطل المطر هنا أيضاً؟

ـ وكيف لا! عليك رؤية الأضرار! من أين هما، هذان الرجلان؟

ـ من تيمبوبا. لكن لم تكن هناك أمواج أو رياح كي أعيدهما. بدأت رائحة الميت بالتخثر. اسمع، أيها العجوز، أريد أن أذهب إلى هناك مع فيليبينيو. ستجد لي صبياً آخر كي يُجدف. لديّ اثنين معي، وستجلب لي ثالثاً. أتظن أننا سنجد قهوة قوية جداً في بيت الصياد؟

ـ سنصنع واحدة إن لم نجد.

ـ سنأخذ الماء فقط، ومجدافاً آخر، ونرحل.

في تلك اللحظة بالذات، شاهدوا إيغوانة[1] كبيرة، بطول

(1) عظاية أميركية عاشبة.

مترين، كانت خارجة من الدغل وتتقدم باتجاه الرملة. توقفت، رفعت رأسها، نشرت غببها ونظرت يميناً وشمالاً. سارت، توقفت، انطلقت مجدداً باتجاه المركب. نظر كريستوريو إلى الحيوان وامتشق عصاً خشبية.

ـ إنها تأتي نحونا. إنها حيوان خطر. ترفس بذنبها، الذي يحرق كالحديد الحامي.

ـ توقف، لا تفعل ذلك! قال جوليو. إن إيغوانات هذه الجزيرة مسحورات، لا تلمسها.

تجمدوا في أمكنتهم. الإيغوانة الكبيرة الخضراء كورقة شجرة وذات الغَبب المتدلي إلى الأرض، تقدمت ببطء. لا يزال رأسها منتصباً، منتفخة الخدين، ولم تتوقف عن النظر إلى الجانبين. تمد قائمتها إلى الأمام وترفع الأخرى على مهل. ترتاح. وتقترب شيئاً فشيئاً. تسمر الرجال. كان فالبينيو الخوف ذاته. طالبهم جوليو الخبير في تجاربه:

ـ لا تتحركوا. دعوها تفعل ما ترغب في فعله. إنها ذاهبة إلى المركب الواقف على شاطىء البحر عند الرملة.

هزّت ذنبها بعنف، استمرت في التقدم بثبات، وانتهى بها الأمر أن تسلقت حافة السفينة، لتنزلق إلى عمق المركب. مشت على جثة زيفيرينو، ابن العجوز ماتيلد. تخايلت. توقفت، مدت عنقها، تنشقت الهواء بعمق ونظرت حواليها، تسمرت فوق صدر زيفيرينو. إلى جانبها، العجوز، الغريق الآخر، كان يتأوه ويتنفس بضعف.

بعد أن زارت المركب، عادت الإيغوانة إلى الشاطىء، ورجعت إلى الدغل بسرعة. لم تترك على الرمل أي أثر.

ـ لهذه الحيوانات مهام تنجزها، ولا أحد يعرف ما هي طبيعتها، قال جوليو. ذات مرة، رمى شخص من هذه المنطقة، عصا على إيغوانة، وعندما لمستها، شعر هو نفسه بالصدمة أيضاً. سقط ولم يتعافَ إلاّ بعد شهر، عندما شفيت الإيغوانة. هناك الكثير منها في هذه الأنحاء. مرة أخرى قتل أحد صيادي إيغواإيبا، واحدة منها، فمات بدوره. هكذا هي الحال. من لا يعرف هذه الأمور، فأسفاً عليه.

ذهبوا إلى منزل الصياد. شربوا القهوة، والماء، وعادوا إلى المركب مع المجداف، ليرحلوا إلى تيمبوبا، تلك القرية الصغيرة الواقعة مقابل المكان الذي تصل إليه قناة موجوو. تيمبوبا هو أيضاً اسم البحيرة التي تصل إلى هنا. كان عليهم إذاً أن يجتازوا الجون الصغيرة حتى رأس باناتيكوارا، وهذا ما يتطلب منهم ثلاث ساعات.

ما أن وصل بالقرب من المركب، حتى أطلق كريستوريو صرخة كبيرة وهو يشاهد الميت. كان هذا الأخير واقفاً، وقد تحول: أصبح كيرينتي.

ـ كيرينتي؟ أيها الرب الإلّه! ألم تمت وتدفن؟ لقد أخذتك بنفسي إلى المقبرة، وقد بكيتك كما لم أبكِ صديقاً أبداً. لقد لعنت الحياة وطلبت من الله أن يستدعي إلى عنده.

ـ هل فقدت صوابك؟ كيف بإمكاني الموت في موجوو بينما أنا من لشبونة؟

ـ لكنك مت. أين جثة زيفيرينو، التي تركتها هنا؟

ـ زيفيرينو؟ أجهل ما حصل له، لقد ذهبنا للصيد في إيغواإيبا، وغرقنا. أما أنا، فقد أنقذني هذا المركب.

ـ أنا سيد المركب هذا، ولم ألتقط جسدك أبداً. كان جسداً آخر. وقد أنقذت أيضاً هذا العجوز، نصف الميت.

لقد قاما ـ بمساعدة جوليو وفالبينيو ـ بوضع رأس العجوز نحو أسفل، حتى يعرفا ما إذا كان سيلفظ ماء. «إما أنا مجنون وإما أن الأمور لا تسير على ما يرام» قال كريستوريو لنفسه، إذ لم يستطع أن يتقبل فكرة انبعاث كيرينتي. شخر العجوز وتقيأ. تنفّس بشكل أفضل. وضع له جوليو، مسواكاً في فمه، وبهاراً أسود في أنفه. سعل العجوز وشخر من جديد.

ـ انه حيّ سليم، قال جوليو.

ـ أيها العجوز، قل لي: من الذي مات، والذي سحبته من الماء؟

ـ إنه زيفيرينو، الذي هو بجانبي الآن.

ـ كيف ذلك، إلى جانبك.

ـ حسن، هنا.

ـ هنا؟ لا يوجد أحد.

نظر العجوز، فرك عينيه وقال:

ـ لقد ابتعد.

ـ أبداً يا سيو باربيكو، إنه أنا، قال كيرينتي. لم يكن زيفيرينو. أجهل أين هو زيفيرينو، أكان حياً أم ميتاً، مع الآخرين.

ـ كيرينتي، ماذا فعلت لكي تبقى على قيد الحياة؟.

*

ـ سيو فالبينيو، هذه الإيغوانات ـ وهو متأكد من أن لها علاقة ما بالشيطان أم بالرب ـ لا تقوم بأي أذى، ولكنها مسحورة.

ـ سيو كريستوريو وسيو كيرينتي، قال جوليو العجوز، هناك مكان لكما لتمضية الليل. ستتعشى وتذهبان للخلود إلى الراحة، لأن ليس لديكما أي شخص لتدفنوه، سترحلان فيما بعد.

عادا إلى منزل الصياد.

في الواقع، لا داعي للعجلة. لقد اختفى الميت، وها هو كيرينتي هنا، حياً يرزق. يستطيعان أن يستردا قوتهما الضائعة في أحداث الأربع والعشرين ساعة الماضية.

كانا يستعدان إذاً لتمضية ليلة هانئة من النوم، كي يريحا جسديهما المنهكين بسبب تعب الليلة الماضية. تمدّدا في الرواق على الأرض حتى غفيا، هنا، حيث ينام جميع الصيادين. كانت الكلاب تنبح. صرصرت رفوف عرار الغاب سوية. الخفافيش ـ وهي تطير ـ كانت ترسل صفيراً أشبه بصوت القبلات. ثيران تزأر، عصافير شجر المنغروف تعود إلى أعشاشها لتغني بدورها. صوت البحر الذي تحمله الريح، كان يهدهد الآذان.

عند الفجر، استيقظوا كلهم وذهبوا إلى الشاطىء. كان بيستانا قد سبقهم إلى هناك، منتظراً. هو أيضاً، كان يعمل في الجزيرة. كان صياداً قديماً.

تبادل الرجال الأربعة الثرثرة، لكنهم توقفوا بسرعة. في البعيد، على طرف الشاطىء، ثمة ما لفت أنظارهم.

ـ جوليو! أنظر إلى هناك، سرب من طائر البُغاث الأسود.

ـ تبدو كأنها جثة. هيا لنرى.

وتوجهوا إلى تلك الجهة. وجدوا جثة رجل على الرملة الجافة بسبب الجَزر الذي حدث في الصباح الباكر.

ـ بالتأكيد إنها جثة رجل من الذين غرقوا ليلة ما قبل أمس.

اقتربوا تدريجياً. أشار كريستوريو بحركات كبيرة بذراعيه. ابتعدت طيور البُغاث، ثمة رائحة قوية. البطن منتفخ، أما العينان والشفاه فقد أكلتهما أسماك السردين.

ـ إنه زيفيرينو، صرخ كيرينتي.

نظر كريستوريو إلى عينيه. كانتا جذلتين. ارتعب جوليو وفالبينيو وبيستانا.

في ذلك اليوم، لم يذهبوا إلى الصيد، بل ذهبوا ليحفروا قبراً.

X

ـ كيف تستطيع تحمل العيش في البحر كل أيام السنة؟ سألت ماريا داس أغواس. وكيف تستطيع العيش وأنت لا تفكر إلا في المد والجزر؟

ـ لأنني أحيا من البحر، أجاب كريستوريو. إنه قدري. في البحر، أشعر دائماً بأنني رجل آخر. حين أكون وراء الدفة، أشعر كما لو أنني عملاق. أقف وأترك الريح تصفع لي وجهي، فأفتح ذراعي كي أتلقى، بشكل كامل صدمة الزوبعة. في تلك الأيام، أرى أعداء في الأمواج. يهدر الزورق، وأنا، أتمدد كما لو كنت في خضم مشاجرة بالسكاكين. بيد أن هناك أياماً، أكون فيها روحاً مسالمة، حيث يُصبح الإبحار ندماً، عقاباً، حيث أشعر بالحزن الشديد في أعماقي.

ـ ما زلت شاباً كي تتحدث بهذه الطريقة. لماذا جئت تبحث عني؟

ـ لم أنسَ شبقك عندما كنت فوق كيرنتي. حين أفكر بذلك،

أشعر بالانتعاظ[1]. ومن ثم اختفيت، ورجعت إلى باو ـ ديتادو. لا يزال أثر يد البيوك على مؤخرتك، موسومة في مخيلتي. ومنذ هذه الساعة، وتلزمني امرأة، كل يوم. لهذا السبب أردت اصطحابك فوق مركبي، لتبقي هنا، بجانب مقبض الدفة.

ـ سينتهي بنا الأمر بأن نغرق، انتبه. من الذي سيهتم بالزاويّ؟

ـ سأنزل الشراع وأدع الأمور تسير وحدها .اجتازا الخليج الصغير، اتجها نحو بانكو فيليز، وضعا كيس رمل على الجانب الآخر من الدفة. حين تعلو المياه، يُصبح المكان، مكاناً بلا أرض صلبة، وخلال الجزر، يمتد الرمل إلى ما لانهاية: أمر جميل يشبه سماء شهر آب.

ـ توقف عن ملامستي بهذا الشكل، قالت ماريا داس أغواس. من المستحسن أن تنتبه للزورق.

ـ قفي مثلما كنت حين غادرنا توكوناندييا، قال كريستوريو.

ـ فعلاً، أنت لا تطاق. ارفع يدك من على نهديّ. صحيح إنني عاهرة، بيد أنني لست فاجرة.

بدا اهتزاز المياه كما لو أنها هزة أرضية. لم يكن كريستوريو سوى رغبة مشتعلة. هزت المياه المركب وبللته. كان كريستوريو يقود بعينيه، في حين أن يديه تطوقان ماريا الجالسة إلى جانبه. لقد عرّتها المياه. فثوبها المبلل، التصق بجسدها. فظهر نهداها، كما لو أنهما كانا سينفذان من القماشة. بينما صلّب البرد حلمتيها.

---

(1) توتر، هياج جنسي.

ـ هكذا هو البحر في شهر آب!

ـ ألم أقل لك، إنَّ اليوم، وفي بحر كهذا، ليس من المناسب القيام بأي شقلبة؟

ـ حسناً. لكن كوني مستعدة على الشاطئ، حين نصل إلى بانكو فيليز.

كان مكاناً غامضاً على الجميع. تجد فيه مياهاً عذبة ما ان ينسحب البحر. وكان من السهل معرفة ما إذا كان الشخص الواصل إليه، يكرهه أو لا: يكفي أن تحفر بئراً في الرمل. إنْ كانت المياه عذبة، فبإمكان ذلك الشخص أن يبقى، كان مُرحبا به. أما إذا كانت المياه مالحة، فهذا دليل رفض، عليه أن يرفع المرساة، إذ من المستحيل أن يبقى هنا. لأن بانكو فيليز لن تستقبلكم أبداً، وليس أمامكم سوى أمر واحد: الرحيل.

*

لن يستطيع كريستوريو تحقيق رغبته. وكان يخشى أن يرى رؤية ماريا داس اغواس تختفي، كما فعلت في طريق العودة إلى توكوناديبا. فالبحر الهائج كان يقف عائقاً أمام رغبته في الاستيلاء على هذا الجسد، في رميه بقعر الزورق، وامتلاكه، هنا للحال، هو وكل الشياطين التي تسكنه. فحركة المركب، وتأرجح الهيكل، وتحريك الأشرعة، لم تكن بأمور تسمح له بتحقيق ما كان يرغب به. ومع ذلك، فإن ماريا داس أغواس، كانت هنا، وبقوة سحرية ـ قد تكون قوة الجحيم، من يعرف؟ ـ كان الأمر استفزازاً، وثقةً بأنه ما ان يصلا إلى اليابسة، حتى يروي ظمأ جسده. كان مستعداً. إنه الفحل، لكنه لم يشرب بعد من النبع.

ـ لن تختفي، أليس كذلك؟ سألها

ـ لكني لم أختفِ في يوم من الأيام.

ـ لست الشيطان لأنك شابة، لكني لن أنسى ما عشناه خلال تلك الرحلة.

ـ أي رحلة؟

ـ أنسيتِ؟

ـ كلا، لكنني متُّ في عملية تمليح السمك، تلك، في توكوناديبا.

ـ وها أنت حيّة مجدداً كي تتذوقي قوة رغبتي.

ـ تعال إذاً، إنْ كنت تستطيع!

كاد الزورق يصل إلى بانكو فيليز. بيد أنه، وقبل بلوغه، قرر كيستوريو، أن يضع الصنّور في الماء، كي يمارس مهنته كصياد.

وضع الطعوم في الشباك، والطوافات كذلك، وأنزل الحبل. ساعدته ماريا. وعند ارتداد الموج، سيذهب للمّ السمك الذي يكون قد عضّ وعلق.

بدأ البحر بالارتفاع. والمقعد كان خارج نطاق الماء بشكل كامل. ثمة ظل يمتزج بغيمة كبيرة طافية فوق البحر. موقع جيد للصيد. بيد أنه مع وجود تيّار مائي، ينبغي الانتباه كي لا تصطدم مؤخرة المركب به. كان عرض البحر، المكان الذي تتحطم فيه الأمواج. فشفراتها، تذهب إلى هناك، كي تلتقي الواحدة بالأخرى. عند ذاك، يتشكل جبل من السوائل، من الأمواج المتفككة، الهستيرية، التي تتراءى كأنها تتلاطم بعنف وبشكل مستمر.

رمى كريستوريو مرساته. ولم يكن أمامه سوى النزول إلى الشاطئ، وترك المركب، ليصل إلى أعلى نقطة ممكنة، مع ارتفاع الموج. بيد أن أمامه خمس ساعات من الانتظار كي يخمد البحر، ومن ثم ينبغي الذهاب لرفع الصنّور رافقته ماريا داس أغواس. سارا إلى الشاطئ وحفرا البئر. ذاق المياه، كانت عذبة. كان مرحباً بهما إذاً. نهاراً، لم نكن نرى سوى بياض الرمال، ذلك البياض الذي يثير نخزاً في العيون. أما في الليل، فكانت تلك النيران التائهة، مثل كرات القديس يوحنا، التي كانت تذهب من جانب إلى آخر، الراكضة كأطفال يلهون. ما من أحد، كان قد شطط. بيد أننا كنا نرى، من البعيد، ذلك الضوء وعيد تلك الشموع، والقناديل والمصابيح. لكنّ ذلك لم يكن يثير الخوف، كما لو أن البحر، لم يكن سوى رأفة. نهاراً، كانت مباركة المياه العذبة، وفي الليل أعياد الأضواء.

لهذا السبب كان يدعى الـ «بانكو فيليز» (الجرف السعيد). نظر كريستوريو إلى البعيد، فرأى مركباً آخر في الطرف المقابل. لا بد أنهم صيّادو ريبامار. انهمك في أعمال التقرب. كانت ماريا داس أغواس قد أصبحت عارية. ثوبها في يدها كي تنشفه. ومن فوق هذا الجسد المكسوّ بالملح برز نورس ذو جناحين مطويين، سوداوين عند طرفيهما. كان ذا عنق منتفخ.

ـ أأصبحت مستعدة، يا جميلتي؟

ـ ليس بعد، دعني أمشي بضع خطوات. قليل من الصبر.

نظر كريستوريو إلى جسدها، مرة جديدة، ووجد أن لونه بلون الأرض المحروقة. بيد أنه، فجأة، أصبح أبيض. اقترب منه، فعاد لبصبح أسمر ذهبياً. وجهت نهديها صوب البحر كانا أشبه

بعينين، بحلمتيهما الصغيرتين، السوداوتين، المكللتين بدوائر قرمزية عريضة. عينان ذات غموض غير محدد. وفيهما الوحي الذي يمكن له أن يختفي. كان جسدها بأكمله، يعبر عن يقظة نسوية، تمتد بقوة متصاعدة، حتى الشعر والوركين والبظر الراسي فوق فخذين ممتلئين، وهو ذو رائحة مياه، بدت لكريستوريو، كأنه عطر سحري؛ حين تنشقه، فقد عادة الكلام، كما أن صمتاً كبيراً اجتاح روحه؛ سدَّ أذنيه، فتوقفت الريح، وبدأ يرتجف كما لو أنه عُزل عن كل شيء، بدون هواء ولا لون، مع ذلك المذاق اللانهائي في السماوات. لم يسترد رشده إلاّ حين أدرك أنه كان يحتضنها ويعانقها، وقد هيمنت عليه متعة غير منتهية. ولا من مرة، فكر بأن امرأة تستطيع أن تملك هذا المذاق وتلك الرائحة، بأنه لم يكن هناك الامتلاك فقط وإنما هذا الشعور بالرحابة والإنطلاق. كان جسده يحتضن جسد ماريا بصرامة، وكانت الأمواج تتحطم، فرغب في أن لا تنتهي تلك اللحظة أبداً. طلبت منه الاستمرار، وطلب منها أن لا تتوقف عن الدوران كما تدور الأرض. لم يعرف كم مضى من الوقت. حين أبصر الاثنان أنهما لا زالا على قيد الحياة، كان البحر قد أصبح أعلاه، أسفله، بشكل كامل. فالزورق يحاول شد المرساة، وها هو يتأرجح.

ـ لم أضاجع رجلاً أبداً مثل اليوم.

ـ أي امرأة أنت، يا ماريا داس أغواس؟

عاد كريستوريو لمداعبتها.

ـ تأخر الوقت، عليّ أن أرحل، قالت ماريا داس أغواس.

ـ لا. علينا انتظار المدّ القادم واشباع رغباتنا.

ـ حسن.

استلقى كريستوريو فوقها من جديد. انتفخ شراع متعته من الهواء، وأبحر في نيران الحب. لمس بيده، عضوه الناعم الملمس والضخم. قبّل لها نهديها. داعبها مطولاً، استند إليهما. وبهدوء، أفشى لها بأسراره وغاص في بحر الألغاز العميق. أمواج الأعماق، الأمواج المتناثرة وشق الماء، لمسة يديه الخفيفة، كما لو أنه كان يحرك الحبال. انزلق نحو العانة التي كانت تظهر كريش الـ «سورولينا»(*) قرّب الشفاه المفتوحة كلجة تنحفر خلال مدّ شهر آب.

ـ اهمس باسمي في أذني

ـ ماريا داس أغواس، ماريا..

أحس بأن شيئاً ينقصه: الهواء والتنفس. كان يلهث. بحث عنها. لم تعد موجودة. لم يتبق سوى رائحة المياه والجسد، والندم الغريب جداً. أسوأ ندم، ندم الرحيل. لقد اختفت، مخلفة رائحة المياه هذه التي كانت تزيد في إثارة رغبة كريستوريو.

ـ ماريا؟

تاهت صرخته في البحر.

لم يُفارق عطر الجسد والمياه خياشيمه، وكان يعرف أنها لا تزال بعد هنا. ركض باتجاه الزورق. لم تكن موجودة. لا شيء سوى أكياس الرمل للصابورة[1] وسروالها الداخلي المكور تحت المقعد أغلق كريستوريو عينيه وبدأ يفكر: «ينبغي عدم المزاح مع السحر، فهذا أمر خطير. لكن تراءى له، أنها تركت فيه، قوة

(1) ثقل يوضع في سفينة لحفظ توازنها.

عملاق، كي يمتلك النساء كلهن. سترافقه القوة هذه، حتى نهاية الأزمنة».

صعد إلى المتن. رفع الصنُّور. وصل إلى الطوافة الحاملة علماً أحمر، كإشارة، فبدأ بسحبها. كانت الشباك مليئة كلها: «باغر» كبير، «أوريتينغا»، شبيبات[1]، سمك ـ حجارة «غوريجوبا» أصفر، «غوريبو»، «كانغاتان»، غبّر صغير.

ثَقُل الزورق. ازدادت حمولته، ربما، بين مئة ومئة وخمسين كلغ. عمل هائل بالنسبة إلى رجل واحد. الآن، عليه العودة إلى موجوو. ومن ثم، سيتذكر هذا اليوم: اذ لن يقوم، بعدها، سوى بعمليات صيد جيدة. لقد تباركت يده.

اتخذ قراره.

«عليّ الآن تكوين عائلة. لقد رحلت كيرتيدي نهائياً. أريد أن أعود لرؤية دونا جيمينيانا كي أصحطب ابنة أختها».

(1) فصيلة سمك من رتبة شانات الزعانف.

XI

ـ دونا جيمينيانا، ها قد مضت ثلاث سنوات وأنا أجوب البحار. لقد جعلت جميع الوحوش تهرب من هذه الأنحاء. ليس خوفاً مني، وإنما لأنها بدلت مكانها. لقد اختفت كيرتيدي إلى الأبد، ولم أجد مجدداً، لا هي ولا البيوك.

ـ قلت لك بأنه ينبغي علينا، عدم طرح الأسئلة حول دسائس الشيطان. الشيطان هو الشيطان، وهو في داخل البشر. ألا تعرف أن فيّ، قطعة من ابليس؟ قالت بثقة. عبر هذا الجزء، أقدم نصائحي. عملي هذا، ليس من عمل الله. الإله الطيب، مع الصلوات. بيد أن سلطاتي، أمور لا أعرف من أين تأتي، قالت جيمينيانا، التي ازداد وزنها، وعرض وركيها، بيد أن سماتها لا تزال تترك الانطباع أنها كانت خلاسية جميلة فيما مضى.

فكر كريستوريو: «لماذا، يا إبليس، لم تتزوج هذه المرأة الطيبة أبداً، ولماذا تصر على أنها كانت تعيسة لأنها لم تجد رجلاً؟ لو بحثنا جيداً، لكانت حقاً عجوزاً قاسية».

ـ والرجال، دونا جيمينيانا؟

ـ دع الأمر. لم أعد أفكر بذلك، حتى أنني لم أعد أشعر بالرغبة في أن أحلم برجل جسده مليء بالشعر. لقد قطعت التجربة من جذورها. وقد رحلت من جسدي. تعال. انظر.

رفعت تنورتها، لتظهر أن ليس لديها أي شيء تحتها.

ـ أرأيت، يا طفلي، لقد تساقط الوبر، وما بقي منه، أصبح أبيض اللون.

أضافت، وضحكتها ترن:

ـ ومع ذلك فقد كان جميلاً جداً. غابة سوداء بالكامل حيث كان يختفي فيها يَغْوَر[1] فاقد الصبر كي يعض. لكن أحداً لم يرغب في ذلك. الآن، أصبح من أتباع القديس بطرس. حين أذهب إلى السماء، سيقول: «جيمينيانا، أدخلي هُنا!» عندها سيصطحبني إلى الغرفة. «لن تكوني في صف الإحدى عشرة عذراء». في السماء لا يُمارس الحب مثلما يُمارس هُنا في هذا العالم السفلي. هناك في الأعلى، الأمر قضية ملائكة. ثمة بخور هنا، بخور من هناك، ولا يعرف الرغبة لا الرجال ولا النساء.

استمع كريستوريو وقال لنفسه: «أنا، بعد ثلاث كؤوس عرق، لن أتنازل عن هذه البكورية للقديس بطرس». وانتبه إلى أن ما يقوله، بلا معنى. «أصبحت تتفوه بحماقات يا كريستوريو، أترك هذه العجوز بسلام» همس له صوته الداخلي.

ـ دونا جيمينيانا، سبق أنْ قلت لي إنَّ لديك ابنة أخت، تدعى

(1) نمر أميركي مرقط يبلغ طوله أحياناً 130 سم.

كامبورينا، وإنني أستطيع المجيء لاصطحابها إنْ لم أجد كيرتيدي. لهذا السبب جئت إليك.

ـ لم أعد أتذكر حتى ذلك، يا بنيّ، على كل، أصبح الأمر مستحيلاً الآن. إذ إنها مخطوبة، وستتزوج في كنيسة القديس يوحنا مع ابن أخت زوجة أحد أخوتي. لقد اتخذ القرار في هذه القضية وانتهى الأمر. قمت برحلتك من أجل لا شيء.

ـ غير ممكن يا دونا جيمينيانا، طوال هذه السنوات الثلاث، كنت أفكر بهذا الوعد، لقد تعرفت على الكثير من النساء، بيد أنني لم أرغب في الارتباط مع أي منهن، لأنك وعدتني بابنة أختك، وهذا أمر كان أكيداً وتعويضاً عن فقدان كيرتيدي. لقد قلت لنفسي إنها تستطيع أن تحل محل الأخرى. كان أمراً جيداً لدرجة أنني لم أرغب في لقائها. إذ أن القدر رتب القضيّة. لا تستطيعين الآن يا دونا جيمينيانا أن تخلّي بالتزامك نحوي بهذا الشكل.

عندها، نظر كريستوريو إلى المنزل بشكل أكثر انتباها، وشاهد المذبح الصغير حيث كان موضوعاً تمثال القديس جوزيه دو ريبامار. كان الهواء يحرك سعف شجرة جوز الهند في الحديقة، بينما كان هناك دلو معلق على عارضة البئر . هذا هو حظي، ايها الإله المقدس! كامبورينا هذه التي سبق لها أن وعدتني، الآن. .»

ـ دونا جيمينيانا، مع ذلك أرغب في لقائها، في التحدث إليها على الأقل. تعرفين، لقد ادخرت قليلاً من المال، إنني صياد ماهر، وقد اشتريت قطعة أرض في موجوو، وأملك بيتاً، أرغب في ترتيبه بشكل أفضل مع وصول المرأة إليه. سأضع له باباً

خشبياً، سأطيّن الغرف من الداخل وأشتري البط والدجاج؛ لن ينقصنا السمك والطيور وطحين المنيوت. أنا رجل لا يدخن، يشرب قليلاً ولكنه سيتوقف عن ذلك. أعمل، محترم، لدي رصيد عند التجار، وليس هناك أي شخص حالياً، اسحب له قبعتي فيما يتعلق بأمور البحر والمراكب وكل أنواع الصيد.

ـ سيو كريستوريو، ماذا تريدني أن أفعل كي أتكلم مع كامبورينا؟ أقول لها: «تعالي هناك رجل قد جاء لمغازلتك»؟ ستجيب أنها مخطوبة وستعتقد أنني عجوز قوادة أو أنني مومس أصطاد الشبيبة. ستعتقد أنني أقوم بذلك من أجل المال. خذ زورقك وارحل من هنا. عليك أن تعرف ما هو العالم يا سيو كريستوريو. أنا، على سبيل المثال، انتظرت أربعين سنة، ولم يأتِ أحد. أنظر ما أنا عليه.

من جديد، رفعت تنورتها لتظهر ركامها، مع ضحكة طنانة أخرى.

ـ دونا جيمينيانا، أين تسكن كامبورينا؟

ـ هنا، في مكان قريب، في ذلك المنزل بجانب الكنيسة الصغيرة.

ووقفت لتدله على الباب باشارة من يديها.

ـ هنا بالضبط..

لم يضف كريستوريو أي كلمة. أعاد وضع قبعته المتسخة ورحل من القرية، في الرمال. على مسافة قريبة، كان يوجد المرفأ، وفيه بعض المراكب، وتحت ظل خص[1] كبير، كان بعض الصيادين

(1) كوخ من قش.

يلعبون النرد. سرّح فكره قليلاً، مُفكراً بالسنوات الثلاث الماضية التي بحث فيها عن كيرتيدي. في الممرات المائية الأقل ارتياداً، في سكون «المنغروف» البعيدة؛ بحياته. «أي حياة سيئة هي حياة الصيّاد ليس في رأسه سوى فكرة واحدة: كيف يخدع المخلوقات الحيّة. يمضي كل وقته في قتل الأسماك، يخدعها، في إعطائها ما تأكله، على طرف الشباك، ليجعلها تعتقد أنه يساعدها على العيش، في حين يجلب لها الموت. على كل، وبالرغم من كل شيء، هذا ما أراده الرحمن بالضبط. ألم يهب البحر للشيطان؟ ينبغي علينا أن نصارع، وما خلقت البهائم إلا كي تموت؟ أليس صحيحاً أننا لا نعيش، الاّ حين نأكل بعضنا البعض؟».

تعبش دونا جيمينيانا في منزلها الصغير، على حافة الشاطئ. في الواقع، هنا كان أولئك الذين يسكنون الخلجان الصغيرة والأجوان يبنون في هذه البقعة أكواخهم من قش البابا سو، وشجر القرام واللبن[1] لينتظروا كل شيء من البحر. وبما أنها بقيت عانساً، كانت تحيا هنا، برفقة صبية أشرفت على تربيتها، مثلما كانت صاحبة تجارة صغيرة تؤمن لها حاجاتها. زيادة على ذلك، فإن مواهبها الخاصة، جلبت لها مكانة كبرى، حيث أن الزيارات لا تتوقف؛ يقدمون لها الهدايا، يهبون لمساعدتها، كما أن أقرباءها يحترمونها جداً، وبخاصة فيما يتعلق بالشائعات الخاصة بموضوع قدراتها الخاصة، بل بالأحرى معاشرتها الشيطان. كان البعض يصدق ذلك، بينما يكذبه الآخرون، بيد أن الجميع يخشونها. كانت تستطيع أيضاً أن ترمي السحر مثلما ترفعه. حين جاءها

---

(1) طين ممزوج بالقش.

كريستوريو للمرة الأولى، وجد في جيمينيانا ملجأ مضموناً. احتفظ في رأسه بالكلمات التي قالتها، ثم ربطها بمصيره. خلال ثلاث سنوات، أبحر بحثاً عن كيرتيدي، بحثاً عن البيوك في كل مكان، وتعلم أسرار المياه. البحر أمر لا يعرف أحد كيف هو موجود. فهذه الأنهر، تلتقي في اللانهاية وتتسرب داخل الأرض وتشكل جُزراً وأودية بحرية ومجازات كما لو أنها كانت تشكل البحر، حيث نجد جميع أنواع المخلوقات، وحيث تحدث أمور لا يعرف أحد ما هو كنهها بالضبط. عندما عاد من ذهابه لرؤية أين كان يقع منزل كامبورينا، عاد كريستوريو إلى منزل دونا جيمينيانا، وجلس على منضدة خفيضة في حانوتها.

ـ دونا جيمينيانا، ركضت خلف كيرتيدي وأنا أعرف أنك اقترحت عليّ الزواج من كامبورينا. لم يكن هناك أدنى شك بالنسبة إليّ، بأن ذلك كان مصيري، الذي رسمه قديسو الجنة. أصل إلى هُنا، وها أنا أمام قصة خطوبة كامبورينا، ومن دون أن أعرف ماذا أفعل، بعد أن جبت البحار، وتهت، غير عارف أين أنا، بلا أمل، ضحية الأذيّات. ها أنا أصل إلى هنا، وآتي لأحدثك، لكن لم تعد هناك امرأة؟ كثير، هذا كثير يا دونا جيمينيانا!

ـ لست محظوظاً، سيو كريستوريو، المرأة، مثل ارتفاع الأمواج، انها لا تنتظر أبداً. حين تحين الساعة، تهبط أو ترتفع. وأمواجنا هنا، كما تعرف جيداً، أمواج ترتفع إلى نحو سبعة أمتار: إما أن تبتلعك، وإما تعيدك إلى اليابسة. من يصل متأخراً، عليه تحمل خطئه. في جميع الأحوال، لم أجد أنا، موجة تحملني، لم أبتل أبداً، هذا ما لدي لأقوله.

ـ دونا جيمينيانا، إنك تعرفين تلك التعابير، عليك أن تقولينها، كي تنفك قصة الخطوبة تلك.

ـ إنني لا أتلو الصلوات، حين يتعلق الأمر بابنة أختي، إنها قضايا عائلية ولا أعرف كيف أتصرف معها. ثمة أمر آخر، إنَّ خطيبها، زيكيدو، شاب يعجبني كثيراً. إنه صياد ماهر، يحبني جيداً، حتى أنه من وقت إلى آخر، يجلب لي الأسماك.

ـ أستطيع أن أفعل مثله، وأنت تعرفين كيف أتصرف معك منذ أن جئت إلى هنا. لقد جئت اليك أولاً، قصصت عليك حياتي، ومنذاك لم أتوقف عن التفكير بك. جئت كي أراك وعندي توصية جيدة، وقد وثقت بك.

ـ اسمع، عليك أن تجد مصالحك في مكان آخر، لأنني لن أتلو الصلوات كي أحل ما سبق له أن انعقد، والذي حدث بمباركة الرب. إنها سعيدة، وهو أيضاً، لذلك ليس علينا أن نسد الطريق حين يكون الدرب قد رسم.

ـ هذا أمر مستحيل يا دونا جيمينيانا، قولي لي ما عليّ أن أفعله، لكن قومي بالعمل، سأدفع لك.

مع هذه الكلمات، نظر جيداً إلى العجوز، فلمح ساقيها المكتنزتين، وقال بصوت حنون:

ـ كما تعلمين، يا دونا جيمينيانا، ما زلت بعد امرأة جميلة، في أبهى صورك، حتى أنَّ أي رجل يتمنى أن يضعك في سريره.

ـ لا تتفوه بالحماقات، أيها الصبي الصغير، لقد خرجت تلك الأمور من راسي، لم أعد أفكر بتلك الأمور أبداً. إلى أين تريد أن تصل، قل؟

ـ ما أريد قوله. . . (اختنق صوته، ولم يعد يعرف ما إذا كان عليه الاستمرار في الحديث أم لا. لكن، في النهاية، خرجت الكلمات من بلعومه، كأنها نداء). . . . إنْ تلوت صلواتك كي تسير الأمور على ما يرام، ستلتقين برجل، أعرف من هو: سيكون أنا.

تحولت عينا دونا جيمينيانا إلى مشعلين:

ـ لا تقل ذلك، يا بني، لا تحرك الجمر من تحت الرماد. بالنسبة إليّ، لقد انحسر المد، لقد انتهى الأمر. ففي داخلي، كل شيء أصبح هادئاً. ينبغي عدم القيام بذلك. . . لم أعد أرغب برجل.

ـ اليوم أفضل من غد، دونا جيمينيانا.

تركت نفسها تسقط تحت ثقل هذا الأمر، خلف مِبسطها، وحنت رأسها وصرخت بغضب:

ـ إرحل من هنا، سيو كريستوريو. لقد صببت النفط في المكان الذي لا يوجد فيه، لا نيران ولا جمر.

رحل كريستوريو، وهو آسف على تفوهه بما قاله. لقد تشوشت المرأة بالكامل. ذهب لرؤية منزل كامبورينا، وبدأ بالسير في أزقة القرية الرملية، باحثاً عن حلٍ لهذا الوضع الميؤوس منه والذي يبدو بلا مخرج. عاد ليحلم بكيرتيدي. هل من الممكن أن يعود للالتقاء بها ذات يوم فوق طرقات هذا البحر الذي يجوبه، من دون أن يعرف أين يتوقف أو يصطاد؟ وان رمى شبكة في بانكو فيليز، حيث تظهر ماريا داس أغواس، فجأة، بالطريقة ذاتها التي اختفت فيها. ينبغي عدم التفكير بهذه الأمور. تذكر ذلك اليوم

في قناة لامبادوسا، حيث شاهد ذلك الوحش الذي كان يتقدم في شجر المنغروف: لقد أطلق عليه النار، بيد أن ذلك المخلوق الملعون، غطس في الوحل كما لو أنه كان يغطس في المياه، تاركاً وراءه، رائحة سمك نتن دخلت في خياشيمه، وأشبعت جسده، وكانت قوية، لدرجة أنه لزمه ثلاثة أيام كي يتخلص منها.

«الإنسان حيوان غريب، فكر بذلك. في مقدوره أن يفكر، وثمة أشياء لا يدري كيف تطفو في داخله. على كل حال، أعتقد جيداً، أنَّ قصة الحب هذه، مثل الذي يتحدث عن تبعية حصلت تجاه أحدهم ونحتفظ بها، بيد أنها تبعية تستدعي تبعاتٍ أخرى تكبلنا، هي أيضاً، من دون أن نعرف كيف حدث ذلك.

لم يغب عنه هاجس كيرتيدي. من ثم، جاءه الوعد بكامبورينا هذه ليدخل ضمن مشاريعه. واليوم ها هو يفقد الاثنتين معاً. شعر بمذاق اليأس.

لماذا قلت لدونا جيمينيانا إنني مستعد لممارسة الجنس معها. من أجل الحصول على كامبورينا؟ ممارسة الجنس مع هذه العجوز! ماذا يشبه هذا الأمر، بالنسبة إلى شخص في عمري؟ مع كل هؤلاء الصبايا الموجودات هنا، واللواتي لا يرغبن سوى في التمدد معي على الرمل، أي حاجة بي إلى كل هذا الماخور؟ أتساءل إن لم أكن مقرفاً»، قال كريستوريو لنفسه.

عاد إلى محل دونا جيمينيانا، كانت هناك. لم تعد المرأة ذاتها. لم تعد تكنّ له ذلك الغضب الذي أظهرته قبلاً.

ـ سيو كريستوريو، لست بحاجة لشراء جسدي، كثمن لما طلبته مني، لأجل كامبورينا. بيد أنني أشكرك في جميع الأحوال.

ـ دونا جيمينيانا، صدّقي ذلك، إن أردت، بيد أنني الآن أشتهيك، حتى وإنْ لم تقومي بصلواتك.

ـ لا داعي كي تكمل لطفك، سيو كريستوريو، على كامبورينا أن تواجه قدرات جيمينيانا.

ـ ما يجب أن أقوم به؟

ـ هذه الليلة، وتحديداً عند منتصف الليل، اذهب وقف أمام منزلها، أكتب كامبورينا فوق الرمل، وردد هذه الصلاة عشر مرات: «أيها القديس سيبريان، الطيب، المليء بالفضيلة أتوسل إليك باسم فضيلتك الكبرى بأن لا تتخلى عن شهيد حب مجنون شبيه بذاك الذي كنته أنت لإلمير الرائعة. إجعل كامبورينا تفترق عن زيديكو، مثلما ابتعد الله عن الشيطان ورفضه، ولم يتقبله بل احتقره. ليتعلق قلب كامبورينا بي، مثلما أتعلق بهذه الرمال». قبل أن تصل إلى هناك، أنظر للقمر، لترَ أين يحدث ظلاً على الرمل، وفي هذا المكان بالضبط، خذ حفنة من الرمل، وضعها في جيبك. في اللحظة التي تتلو فيها صلاتك، امسك بيديك الاثنتين وافركهما جيداً. من ثم، خذ خصلة من شعرك، ضعها على الرمل، وادفنها كلها أمام بيتها. يجب القيام بذلك ثلاث مرات، الأولى عند منتصف الليل، وفي المرتين اللاحقتين، عند الرابعة صباحاً، حين تلمع نجمة الراعي. لا تقم بأي شيء في حال وجود غيوم في السماء.

ـ وبعد ذلك، دونا جيمينيانا؟

ـ سأقول لك بعد ذلك.

ـ أينبغي أن آخذ حفنة رمل في كل مرة؟

ـ كلا، في الليلة الأولى فقط. فيما بعد سأقول لك إنْ كان بجب إحضار ذنب لياء[1].

كانت جيمينيانا حزينة. لم تكن ترغب في المشاركة في تلك المعركة، بيد أنه لم يكن هناك وسيلة للقيام بأمر آخر. من دون أن تضيع الوقت، أغلقت على نفسها باب غرفتها وبدأت بتلاوة صلواتها. إنه الغمّ الذي دفعها، في البداية، لممارسة دور قارئة السحر هذا. بيد انها اكتشفت في ذاتها، فيما بعد، بعض المواهب التي بدت لها، أنها موهبة معرفة الطبيعة والقدرة على التدخل في مسار الأشياء. هكذا بدأت من نفسها، عصامية، بيد أنها فيما بعد، حصلت على كتاب القديس سيبريان، وتمكنت من تنفيذ الطرق التقلبدية القديمة. في تلك الأثناء، لم تكن قد تلفظت بعد بدعاء العنزة السوداء. صلاة قوية جداً، وهي على علاقة مع السوء.

ـ دونا جيمينيانا، أين تعلمت صلوات القديس سيبريان؟ سأل كريستوريو. إنه القديس الأكثر قدرة على عَقْدِ الأشياء وحلّها، أليس كذلك؟

ـ أنت على حق يا ولدي. لقد حصلت على كتاب القديس سيبريان. لقد شاهد الشيطان، ويعرف حِيَله. وحين أدخل المسيح في التجربة، وَهبه، للتو، كل ما له علاقة بالمتع الأرضية، كما لو أن الأرض كانت تخصه. لقد كان القديس سيبريان أسقفاً. حين تَنَصّرن، روى أن ذلك جاء عبر تأثير السحر الأسود، واعترف: «صدقوا كلامي، لقد رأيت الشيطان، قبلت جبينه، كنت واحداً من

---

(1) شفنين بحري.

حاشيته، بيد أنني أطلب المغفرة». لقد روى القديس سيبريان دسائس الشيطان وكيف كان يتصرف. وهذا الكتاب الذي نستند إليه، ليس كتاب القديس.

ـ وأنت، هل تستندين إلى إبليس؟

ـ ليحفظني الله منه! ينبغي عدم ذكر اسمه، وإلاّ ظهر. أنا أعرف مكائده. كان لدي صديق روى لي بأن الشيطان كان يأتي إلى الأرض متنكراً في زي رجل أو امرأة، وكان يتمتع بالقيام بأعمال بذيئة رجالية مع النساء ورجالية مع الرجال.

ألا يقال في قرية مونيم بأن دونا جيمينيانا كانت على علاقة مع الشيطان؟ ثمة شائعات وصلت حتى مارانياو، تفيد بأن الشيطان عجوز وبأنه سرمدي. إلاّ أن الحقيقة كانت في أن دونا جيمينيانا لم تكن على علاقة جسدية مع الشيطان. كانت عذراء، وإبليس، بكل وسائله ومكائده واحتفالاته المشبوهة، لم يستطع مسها أبداً. بيد أنها كانت تخشاه، وعادات القديس سيبريان التي كانت تلجأ إليها، كانت كلها كي تجعله يهرب وليس لمناداته أو طلب مساعدته.

*

شارف الوقت منتصف الليل. سكوت عميق يلف القرية. كان كريستوريو قد وضع حفنة الرمل في جيبه، والصلاة في رأسه. لم يجرؤ على الاقتراب أكثر من المنزل. انتظر الساعة المحددة وبدأ القيام بالطقوس، منفذاً تعليمات العجوز جيمينيانا بحذافيرها.

«أيها القديس سيبريان الطيب، المليء بالفضيلة، أتوسل إليك باسم فضيلتك الكبرى بأن لا تتخلى عن شهيد حب شبيه بذاك

الذي كنته أنت لإلميرا الرائعة. . .».

نبح كلب بعنف في الجهة الأخرى. أحس كريستوريو بأن نَفَسَهُ انقطع، بيد أنه وجد القوة للمتابعة:

ـ اجعل كامبورينا تبتعد عن زيديكو.

سمع صرير باب، خفيفاً في البداية، ثم بشكل أقوى، وفُتح الباب في النهاية. اجتاز الباب شكل ما، وتقدم باتجاه كريستوريو. لم يكن الليل حالكاً. فالنجوم تلمع بشكل خفيف والظلال تشعشع في الرمال ومحيط المنزل والأشجار.

إنها امرأة. لم تكن ترتدي سوى ثوب خفيف. كانت تسير كأن نقطة لامرئية تقودها، سحبت خطواتها وروحها. في رأسها، كان هناك دوار سحري تقوده رغبة لم تكن رغبتها هي. أما كريستوريو، فقد بقي جامداً بشكل كامل، مثلما كان قبل ذلك.

ـ ها أنا قد جئت.

كانت كامبورينا. لصلوات جيمينيانا القُدرة. بدا الأمر كأنها تعيش في حلم لاإرادي. ضمها كريستوريو. عندذاك، فقط، استطاع رؤيتها كما هي. لم يكن يشعر بالحب تجاهها، وإنما بالشعور بأن الأمر يتعلق بشيء سبق ووُعِدَ به، كان له وها هو يجده أخيراً. إنه شعور بالتعزية.

لقد ترك ذلك الحلم يسحره، حتى من دون أن يعرف لماذا ضعف أمامه. كل شيء عبارة عن مزيج من البحث عن كيرتيدي وممارسات دونا جيمينيانا والوعد الذي قطعته، الذي لم ينسه أبداً طوال هذه السنوات في البحر: «إن لم تجدها، عد إلى هنا لديّ ابنة أخت، كامبورينا، التي تصلح زوجة لك». لازمته هذه

الكلمات حيثما قام بعمله الجنوني في الجري خلف البيوك. فكل شيء في وجوده كان موسوماً بتلك الرؤية الضبابية والهاربة للمرأة التي عليه إيجادها. كل شيء كان سريعاً وغير متيقن. كانت كيرتيدي رغبة في التملك ووعداً بالزواج. على كل، ففي هذه النواحي، ومع الحياة العملية التي يفرضها البحر، فانه من الصعب ايجاد النساء بسهولة. فالنجاح بالحصول على واحدة، يشكل جزءاً من الحياة. بالنسبة إلى الصياد، تشكل المرأة ضمانة، مرفأ، حيث يرمي المرساة عند عودته من البحر، من العمل يوماً بعد يوم بعيداً عن منزله كي يحصل على قوته. لم يكن كريستوريو يعرف بالضبط لماذا كان فريسة هذا الهوس الذي لم يكن هوساً حقيقياً، ومع ذلك كان موجوداً. لم يكن يعرف ما هو الحب، كل ما يعرفه هذه العادة وهذا القانون اللذين يجعلان من المرأة، شيئاً للتملك، في هذا الألم المشترك بين الجميع، في هذه الوحدة التي في قلبها لا تعرف المرأة من الحياة سوى الرجل.

ـ إنني هنا، قالت.

استطاع عندها أن يراها على مهل. لم تكن جميلة. جسد سميك، جسد امرأة متينة، لكنه يثير رغبة ما. نهداها ثقيلان، لكنهما متماسكان أيضاً. كانت في الثامنة عشرة تقريباً. كانت قريبة جداً منه كي يتنشّق رائحة جلدها. بقي هكذا من دون أن يعرف ماذا كان يقول. في الواقع، كان لا يزال وسط صلوات القديس سيبريان. لم يلمسها. فيها شيء من روح العالم الآخر وقد جاءت كأنها تشكل جزءاً من هذا التقليد.

ـ كامبورينا، جئت لآخذك.

ـ هذا أمر مقرر سلفاً.

ـ لكنني هذه الليلة، لا أستطيع أن أكلمك فترة أطول. لا زلت تحلمين. إنها من مكائد خالتك، أعود غداً. من المستحسن أن تعودي إلى منزلك.

ـ لقد قررت: إنه قدري. لا أعرف لماذا، بيد أنني عرفت أنك كنت هنا فجئت. في داخلي شيء قال لي ذلك. في البداية، كان حلماً ولكني استيقظت تدريجياً بعد ذلك وجئت في هذه الحالة التي أنا عليها.

ـ انها دونا جيمينيانا.

ضمها. أحسّ بجسدها المتين وبحرارة لحمها الأقوى من حرارة الحمى.

ـ أدخلي إلى منزلك

دخلت حدث كل شيء بشكل خاطف. رأى الليل التي تصاحبه العديد من النجوم. على سطوح المنازل الصغيرة المصنوعة من القش، كان هناك بعض الظلال الزرقاء. كل شيء كان سرّاً ينحلّ داخل عينيه.

ذهب كريستوريو إلى منزل جيمينيانا كي يروي لها ما حصل.

*

قرع الباب:

ـ هل أن أحداً في الداخل؟

لم يجب أحد

ـ أهناك أحدٌ؟

ـ من هنا؟ ماذا تريد؟

ـ ها أنا، كريستوريو.

ـ عد غداً.

ـ لا أستطيع، أمر طارئ. أريد أن أكلمك.

وصلت جيمينيانا وفتحت الباب. عيناها مغمضتان، مثل عيون الجميع في الليل. لم تشعل أي ضوء.

ـ ماذا حصل؟

ـ لقد فعلت الصلاة فعلها. في منتصف الليل، خرجت كامبورينا من المنزل وجاءت نحوي قائلة إن القرار اتخذ.

ـ أفعلت شيئاً معها؟

ـ أبداً، دونا جيمينيانا، أنا رجل لائق. كيف كان باستطاعتي القيام بشيء وهي لا تزال تحت تأثير سحر الصلاة؟ جئت كي تقولي لي ماذا عليّ أن أفعل الآن.

ـ طيب، اسمع إنها قضية قد تحل غداً. أما الآن، فأشعر بالنعاس. إذهب من هنا.

ـ ليس لدي أي مكان آخر لأذهب إليه. لا شيء سوى مركبي.

ـ ما من شيء هنا كي ينام الرجل عليه. تعرف جيداً بأنني عزباء، ولا أحبّذ كثيراً أن تبدأ الثرثرة حول ما يجري عندي.

ـ دونا جيمينيانا، أريد أن أشكرك فقط على ما فعلته لأجلي.

ـ ليس الوقت المناسب للقيام بأشياء مماثلة.

وهنا، فقدت القدرة على النطق. فمن سروال كريستوريو، شاهدت قضيباً أحمر يخرج. «يا إله السماوات، احفظني، إنه

الشيطان!» ـ هكذا كانت آخر فكرة طرأت على بالها. سندها كريستوريو وحاول حملها إلى غرفتها مصطدماً بكل شيء في العتمة. لم يكن يرى شيئاً مطلقاً وهو يمسك بساعديها محاولاً منعها من السقوط، اذ كان ثقلها كله عليه. عندئذ فقط، أدرك أنها كانت عارية وجسيمة. تقدم، وهو يرشدها، لكنه شعر أنها كانت تقوده. حين انتبه إلى ذلك، كانا على السرير، أطلقت جيمينيانا تنهدات عميقة، وفتحت ذراعيها وساقيها. لم يكن كريستوريو يعرف ماذا يحصل. كانت تفوح من جسد جيمينيانا، رائحة امرأة قوية، ممزوجة برائحة البخور واكليل الجبل، رائحة تنفذ مباشرة إلى الرأس. بدأت تتنهد بشكل أقوى ومتصاعد، وتتأوه على مراحل. لم يكن كريستوريو واعياً الحالة الموجود فيها. نظر إلى نفسه ورأى أن عضوه أصبح جمرة ملتهبة، بيد أنها جمرة لا تحرق. كان بارداً مثل الصباح الباكر ويتقدم باتجاه جيمينيانا التي كانت تتأوه، وهي مغلقة العينين، بعد أن استولت عليها نشوة، لا نعرف معها إن كانت نشوة موت أم حياة. حين فتح عينيه، شاهد جيمينيانا وهي تطلق صرخة. غاص في الشعائر وعادت لتسقط في نوم عميق، متأوهة ونائحة، باضطراب كبير، هذيان لا نهاية له. استعاد ذراعاها قوتهما، إذ عادا ليضماه ويجلداه، فأراد كريستوريو الانسحاب لكنه لم ينجح في ذلك. لم يكن يعرف ماذا يحصل في هذا السواد. حتى ولا إن كانت حقاً هي جيمينيانا أم شبحاً يسكن جسدها ثمة حرارة مفترسة كانت تلتهب وجوده كله، حرارة متزايدة باضطراد، وشعر حينذاك بتلك القوة التي ولّدتها عنده ماريا داس أغواس، خلال تلك الليلة الشهيرة، في البحر، والتي لم تغادره مطلقاً طوال حياته، فيما بعد. لم يكن كريستوريو هو ذاته،

بل ثوراً يتأوه عند رؤية تلك الشعلة الملتهبة في العتمة، نار ذات احمرار مجهول لا ترى الاّ في تأرجح الأمواج. خضّب عرق بعطر المسك جسده كله، كذلك نضح جسد جيمينيانا بالعرق أيضاً. حين استيقظ من هذيانه هذا، كان الفجر قد بدأ بالبزوغ، إذ بدت أولى أنواره. ارتدى ملابسه ببطء. كانت جيمينيانا تشخر. جاهد بالخروج على أطراف أصابعه. في الخارج، شعر بضعف في قدميه وروحه، بينما كان رأسه يدور كالبلبل. لا يذكر شيئاً، ويتذكر كل شيء. تحت تأثير هذا السحر والغموض، وجد نفسه في المرفأ، ذلك الصباح. ارتمى في قعر مركبه ونام.

*

كانت عينا جيمينيانا محاطتين بازرقاق غامق. أما جفناها فكانا ثقيلين ومحمرّين. تتذكر بشكل مبهم تلك الليلة التي لن تنساها مطلقاً. بخلاف عاداتها، استيقظت حين كانت الشمس قد أشرقت وشعرت بأنها استحمت في بحيرة فاترة المياه، إذ احتفظت منها بشعور من الاسترخاء والاكتمال.

لم تكن تشعر بأي ألم، بل بتعب خفيف غير مزعج. أرادت استكشاف حالة جسدها. لذلك تفحّصته بيديها، بدقة، إذ أعادت النظر في جميع زواياه. كل شيء في مكانه. الفخذان، الوركان، الساقان، الأخاديد. بحثت عما إذا كان هناك أي شيء لم تستطع نظراتها الوصول إليه، فوقفت بمواجهة المرآة وتفحصته. لقد كانت سليمة. «ومع ذلك، أذكر بأنني شعرت بجسدي يتحول. لم أعد أنا نفسي. هل سيتكلم هذا الصبي؟ كل ذلك، من مكائد ذلك الملعون! هل صرخت؟ هل سمع الجيران صراخي؟». بدأ قلقها هذا يُشغل مخيلتها. طيلة النهار، رغبت في محادثة جيرانها،

لتكتشف أي اشارة تسمح لها بمعرفة ما إذا كانوا قد شاهدوا أو سمعوا ما حدث عندها. «أمر لا يمكن تصوره، وأن يحدث لي، أنا العانس! قاسيت طيلة تلك السنين، وها أنني الآن، أنسى نفسي مع مجهول، كما لو أنها عاصفة شباطية».

سرعان ما طرأت في بالها فكرة أخرى: «لم أفعل شيئاً حتى يحصل ما حصل، الأمر برمته ضرب من السحر، انه لغز. ثم فكرة أخرى: «الأنكى، هو أنه كما لو أنني شاهدت السعادة أمامي ورأيت شيئاً اشتهيته طيلة أيام حياتي ولم أحصل عليه أبداً».

ساورها شك: «هل فعلاً حصل ذلك الشيء، أم أنني لا أزال دائماً في الحالة نفسها التي جئت فيها إلى العالم؟». ينبغي معرفة ذلك «وكيف أعرف! لا أستطيع أن أعرض ما حصل أمام أحد، حتى أنا رأيت ولم أرَ، ربما كان ينبغي أن ألجأ إلى وسائل أخرى، وأن أجد تفاصيل أخرى كي أعرف كيف هو جسدي. حاولت جاهدة بنفسي أن أزيل الشكوك التي ساورتني. بيد أن شيئاً لم يتغير فيّ». استولى على جيمينيانا خوف من أن يكون الذي حصل، لم يحصل في الواقع. تذكرت قصة زيفينيا، التي ـ وفي أحد أعياد القرية، وكان عيد «الحبل بلا دنس» ـ تناولت قيثارتها وبدأت بغناء هذا المقطع:

تزوجت سبع مرات

حصلت على سبعة عرسان

لكن صدقوني

لا زلت عذراء

«هل حدث لي الأمر ذاته؟» تساءلت.

بينما كانت الشكوك هذه تعذبها، وصلت ابنة أختها، كامبورينا:

ـ خالتي جيمينيانا، لم أعد أرغب في الزواج من خطيبي زيكيدو. لقد وصل غريب إلى القرية، شاب من موجوو، سحرني. جئت أولاً لأطلب النصح، كما لأطلب منك أن تصلّي،، كي تسير الأمور معي على خير ما يرام. ثانياً، لي نية في الرحيل من هنا، حيث عائلتي والناس الذين يعرفونني منذ أنْ كنت طفلة، وحيث كل واحد يدسُّ أنفه في شؤون الآخرين، نعيش كعائلة واحدة، الجميع متفقون على ذلك، كما أن المرأة مضطهدة دائماً ولا تساوي قدر مسمارا.

ـ كامبورينا، يا ابنتي، لقد قال المسيح إنَّ المرأة تترك أباها وأمها من أجل الرجل، كي تؤسس عائلتها الخاصة. إن ترغبين في ذلك، هيا، ارحلي، وإنْ لا، إبقي.

ـ لكن يا خالة، عليك أن تساعديني كي أقرر، عليك أن تصلي، وأعود، غداً لمعرفة بماذا تنصحينني.

ـ وسوف أتلو صلواتي.

وفكرت: «من الأفضل أن يرحل هذا الصبي من هنا، وأن لا يصطحب ابنة اختي معه، بعدما جرى الليلة الماضية؛ عليه أن يخرج من حياتي. سأصلي كي أفك عقدة ما قمت به».

تاهت نظرتها في البعيد، أعادت مضغ أفكارها، إلاَّ أن كامبورينا أعادتها إلى الواقع:

ـ أين رحلت، يا خالة؟ هل سمعتِ ما طلبته منك؟ أريد أن تقومي بصلواتك وأن تسدي النصح إليّ. إنها لحظة مهمة بالنسبة إليّ. هناك شيء لا أستطيع إخبارك به الآن. فقط، فيما بعد.

ـ جيد. ينبغي المحافظة على السر، وكما يقال، السرّ الوحيد الذي لن نفشيه، هو الذي نجهله.

ـ فضلاً عن ذلك، أنت تعرفين زيكيدو. إنه يحتسي الخمر مباشرة، وأنا لا أحب الذين يشربون. يكفي هذا الأمر، وهو كثير بالنسبة إليّ. حتى وإن كنت لن أغادر مع ذلك الذي من موجوو، فأنا لا أرغب في زوج مدمنٍ على الخمر.

في المرفأ، فتح كريستوريو عينيه. لم يكن يحمل في رأسه، أي أثر من الليلة الماضية. لم يحفظ أي شيء من الذي حصل. بعد أن استيقظ بفترة، بفترة طويلة، عاد كل شيء إلى ذاكرته، اكتشف آثار حروق، كانت ظهرت ذات صباح، على حالبِه الأيسر، ولم يعد يراه حتى اليوم.

مضى على وجوده هنا، ثلاثة أيام، وعليه أن يعود للصيد ويذهب إلى عند دونا جيمبنيانا. في تلك اللحظة بالذات، لم يكن يفكر كثيراً بكامبورينا. خَلُصَ إلى أنَّ القصة هذه، كانت وهماً بمخيلته، مثلما كان أمر رحيله بحثاً عن كيرتيدي وعن أسرار أخرى. تناول قهوة على المرفأ ومن ثم ذهب ليقوم بزيارته هذه.

ـ صباح الخير، دونا جيمينيانا.

حين رأته، أحنت رأسها وشعرت بعرق بارد، إلاّ أنها تحاملت على نفسها لتظهر له طمأنينة واضحة.

ـ صباح الخير، دونا جيمينيانا، لقد هبّ هواء عاصف الليلة الماضية، إلاّ أن النهار جميل.

اعترتها رعشة قوية: «كثير من الهواء الليلة الماضية؟». أكان كلامه هذا، إشارة إلى ما حدث؟ بيد أنها لم تحرك ساكناً.

ـ أجل، نهار جميل.

ـ دونا جيمينيانا، عليّ الرحيل، أما بالنسبة إلى كامبورينا، فأنا غير واثق من الأمر. لقد تلوت صلواتي في الليلة الماضية مثلما قلتِ لي، وما زلت أنتظر النتيجة.

اطمأنت: في نهاية الأمر، لا يتذكر ما حصل، أو ربما، لا يرغب في إثارة الموضوع.

ـ فيما يخص قضية الصلوات، ينبغي الانتظار دائماً.

ـ أجل، لكن عليَّ الذهاب، ولن أعود قبل الشهر المقبل.

ـ هذا أفضل، لكن لا تنسَ أنك لم ترفع الصلاة إلاّ في ليلة واحدة.

ـ هذا صحيح. سأتلو الصلوات الأخرى على الآثار[1]. إنَّ لها المفعول ذاته، أليس كذلك؟

ـ ما من آثار على البحر.

ـ ثمة اتجاه علينا أن نتبعه، فالأمر مشابه، وحين ندور حول اتجاهنا، الأمر سيان.

ـ بعد رحيله ذهبت جيمينيانا لتضع فوق المذبح الصغير في بيتها، المزهرية التي تحوي نبتة النعناع، وبدأت بتلاوة صلواتها كي تنقض تلك الصلوات التي تلتها لتلفت انتباه كامبورينا. لكن ما إنْ بدأت، حتى ذبلت بسرعة النبتة الخضراء والقوية، كما اسودت

(1) ترجمة حرفية، إذ بحسب المعتقدات الشعبية في تلك المناطق، وبخاصة في المجتمعات الرعائية الزراعية، نجد أن تلاوة الصلوات (أو الصيغ السحرية) والمعالجة وحتى خصي البهائم فوق آثار قوائمهما، قد تكون وسائل فعّالة، للحصول على النتيجة المتوخاة.

وتساقطت. ركعت جيمينيانا على ركبتيها ولمت ثوبها، بين ساقيها: شعرت بشيء حارق في أسفل بطنها، ورأت أن ثوبها تلطخ ببقع دماء.

ـ أيتها الأم المقدسة! هذا مستحيل. ها إن الطمث يعاودني.

من تلك اللحظة، فقدت كل موهبتها وبدأت بانتاج السكاكر، والحلويات الصغيرة وبيعها، مثلما تفعل الأرامل والعوانس.

XII

لما غادر منزل جيمينيانا، عرّج كريستوريو إلى الحانة التي تقع بالقرب من المرفأ. كانت بناءً واسعاً، يشكل، في الوقت عينه، مخزناً للأغذية وخمارة، مع طاولة للبليار وبعض المقاعد. كان هناك بعض الصيادين والنوتيين والموظفين الصغار، وتجار السمك، جالسين، بعضهم يشرب، وبعضهم يلعب، فيما القسم الثالث منهم الذي يلهو بقتل الوقت، فكان ينظر إلى الموج، هائم الروح ويجتر الساعات.

ـ من منكم هو المدعو كريستوريو، الصيّاد من موجوو؟

كان صوتاً قوياً ذا نبرة تحد. إنه صوت زيكيدو.

ـ أريد محادثتك على انفراد.

ـ لا أتكلم على انفراد مع أحد لا أعرفه، ولا أعرف حتى بأي خصوص. إنْ كان لديك ما تقوله، فقل فوراً.

كان كريستوريو شخصاً بلا مواربة. هكذا هي طباعه. بيد أنه شك في أن الأمر يتعلق بقضية مع كامبورينا، لأن الشائعات سرت في القرية

ـ مسألة عائلية.

فهم كريستوريو، بسرعة خاطفة، بأن الشاب هو خطيب كامبورينا الشهير، وذلك من جراء نظرته وتصرفه. خرجا من الحانة، كي يستطيعا التحدث من دون أن يسمعهما أحد.

ـ علمت أنك قمت بزيارة كامبورينا، وبأنك قدمت لها عرضاً. إنني مرتبط بها، وفي هذه المنطقة، يعتبر المجهولون بمثابة أعداء.

ـ لقد وُعدت بهذه الفتاة منذ ثلاث سنوات، أجابه كريستوريو بجفاف.

ـ ماذا؟ على كل، انها خطيبتي. من قطع لك ذلك الوعد؟

ـ دونا جيمينيانا.

ـ إنها ليست أمها ولا تملك أي سلطة عليها. إنها ساحرة عجوز على علاقة بالشيطان. وتقوم بالخداع. جئت لأقول لك، بأنه من الأفضل أن ترحل حالاً عن غوارابيرا، وإلاّ لن تستطيع أبداً أن تغادرها.

ـ لا ينفع التهديد معي أنا، وفيما يخص هذه القضية، على الفتاة أن تقول ما قررته، لا أنت. انني لا أخشى، لا العواصف ولا الأفواه الكبيرة.

سحب زيديكو سكينه وهجم عليه. تمكن كريستوريو من توجيه ركلة إلى يده، وصرخ في وجهه:

ـ اذهب من هنا، وإلاّ قتلتك.

كان الصيادون الآخرون قد وصلوا، ليشكلوا حلقة حول الرجلين، كي يباعدوا المتخاصمين.

ـ يكفي هذا، ما من مشاجرات هنا، قال صاحب الحانة.

ـ سألاقيك مجدداً، ولن يطول الأمر، قال زيكيدو.

ـ أينما ومتى شئت.

*

رحل كريستوريو بخطوات بطيئة وعاد إلى جيمينيانا. روى لها الحادث فاستدعت ابنة أختها.

قال لها كريستوريو، الذي كان لا يزال ثائراً من الغضب:

ـ اسمعي، كامبورينا، يجب تسوية القضية اليوم، وإلاّ ذهبت وقتلت زيكيدو هذا؛ لا أرغب في أن أصبح قاتلاً. بعد أن وصلنا إلى هنا، يجب اتخاذ قرار. فكرت في البداية أن أرحل من هنا وأن أنتظر الشهر المقبل، بيد أنه اليوم، من المستحيل الانتظار أكثر.

ـ أيها الرب الإله، قالت كامبورينا، في أي وكر للزنابير علقت، من دون أن أكون قد فعلت شيئاً! مجنون، جعلني مجنونة، وجلب الشقاء لهذا البلد.

ـ هذا هو الأمر. سنرحل مع ارتفاع الموج في هذه الليلة. إن خطفتها، لن يكون ذلك لا أول مرة ولا آخر مرة. أما أنْ تأتي معي، وإما، في جميع الأحوال، لن تتزوجي زيكيدو هذا، لأنني سأقتله.

ـ لينجنا الله من الشر، قالت جيمينيانا.

ـ إن القرار بين يديك، دونا كامبورينا. أنتظرك عند الثامنة في المرفأ الصغير، أمام السوق. خذي أمتعتك معك، أما الباقي، فهو من شأني.

أصاب كامبورينا الذهول الكامل، بينما كانت جيمينيانا تبكي. في حين أظهر كريستوريو ـ وبنظراته المليئة بالشر ـ عزماً شديداً، جعلته السنوات أشد بأساً.

تصاعدت الضجة في الحانة. أكثر زيكيدو من الشراب، وبدأ بالتشدّق:

ـ القذر، سأريه من أنا! في أقل من أسبوع، سيبدأ النمل بزيارته.

ـ الهدوء يا صغيري، قال لورنتينو، صاحب المحل. لقد أفرطت في الشرب، سيتحسن الأمر غداً. لماذا تريد أن تقتله!

ـ هذا شأني، لا نيّة لي في إخبارك!

بيد أن الجميع يعرفون جيداً، بأنه ومنذ أسبوع، بدأ هذا الشاب الآتي من موجوو، في الذهاب والمجيء ما بين منزل جيمينيانا وبيت كامبورينا. كان والد هذه الأخيرة، غائباً، بسبب عملية بيع سمك مملّح بالقرب من روساريو، وعليه أن يعود بعد ثمانية أيام تقريباً. دونا سيتمبرادا، والدة كامبورينا، كانت سيدة عجوزاً، ذات روح معتوهة، غير جديرة بالاهتمام بيناتها، أو بأي شيء.

طلبت كامبورينا من كريستوريو أن يصاحبها إلى المطبخ، لأنها ترغب في محادثته على انفراد.

ـ اسمع، سيو كريستوريو، لا أستطيع الرحيل معك، ليس لأني لا أرغب في ذلك، بل لأنني في مشكلة، انها قصة نسائية، تجعلني لا أكون لك.

ـ وما هي؟

ـ لست فتاة عذراء، هذه هي. إنْ أردت قتل زيكيدو، فأنت ستقتلني أيضاً حين أصل إلى عندك.

لم يفهم كريستوريو عمّا كانت تتكلم. نظر إليها مباشرة، في عينيها وقال:

ـ لا أصدق كلمة من هذه القصة؛ كل هذا كي تجعليني أرحل، وأنا لستُ هنا كي أصدق هذه الخرافات.

ـ ومع ذلك فهذه هي الحقيقة. إن أردت أن تتأكد، ما عليك سوى المجيء معي، سأقدم لك الدليل. هيا، تعال.

بقي كريستوريو ثابتاً.

ـ لستُ رجلاً يستفيد من امرأة ويقوم بهذا النوع من التصرفات. أريدك أن تكوني لي، لأنني وُعدت بك، وقد أبحرت ثلاث سنوات قبل أن ألتزم الرجوع إلى هنا.

ـ تعال، سيو كريستوريو، من المستحسن أن تأخذني الآن وترحل، بدلاً من أن تقتلني فيما بعد قائلاً بأنك خدعت.

ـ هل دونا جيمينيانا على علم بذلك؟

ـ كلا، لا تعرف شيئاً. لا هي ولا أحد آخر.

ـ أهو زيكيدو من فعل ذلك؟

ـ كلا، انه ابن عمي سانتيدادي، لما بلغت الرابعة عشرة. لا أرغب في أن أحدثك عن حياتي.

ـ على كل، سأصطحبك معي. انها مسألة عواطف، فثمة عاطفة تجاهك: من ثم، وعدت نفسي بك، بعد ثلاث سنوات في البحر.

ـ من الأفضل أن تنساني، سيو كريستوريو، هناك الكثير من النساء الأفضل مني.

ـ هل زيكيدو على علم بالأمر.

ـ قلت لك بأنني لا أرغب أن أخبرك أكثر عن حياتي.

ـ حسن إذاً، اذهبي إلى منزلك لتوضبي أغراضك.

ـ لكنني لا أستطيع الرحيل هكذا، تاركة جيرمانا وحدها. إننا شقيقتان، وأكثر من ذلك، متحدتان مثل أصابع اليد. وأنا، لا أجرؤ على الزواج منك من دون أن أكون شابة حقيقية. لن يعطي ذلك شيئاً مفيداً. من ثم لن أرحل الآ مع شقيقتي. أخاف أن ارحل وحدي. لا أعرفك، وحتى أنني لا أعرف إلى أين تصطحبني.

ـ وجيرمانا؟ أهي عذراء؟

ـ أجل.

ـ حسن، ستأتي معنا، ستقيم معك.

ـ سأحدثها بالأمر. لا أعرف الجنون الذي نقوم به.

ـ هكذا هي حياة من يحيا في البحر. لا نعرف أبداً ما سيحدث، ومع ذلك، فهو يحدث.

*

عند الثامنة مساء، وكان الليل شديد السواد، وصلت الفتاتان الى المرفأ، مع صرة ثيابهما وحقيبة قديمة كانت تحملها كامبورينا على رأسها. صعدتا إلى الزورق وبدأت الرحلة. في البداية يجب هبوط قناة مونيم، ثم اجتياز خليج ريبامار باتجاه باناكواتيرا.

جلستا على المقعد الوسطي، بالقرب من الشراع، وبقيتا صامتتين. أهو حلم أم حقيقة؟

لم يكن كريستوريو يقول شيئاً، بل يقود مركبه بيد حازمة. كان الهواء ثابتاً ومن فوق المركب كان بإمكان مياه الخليج المزبدة أن تظهر. في المساء، لا نرى شيئاً. فقط، نشعر بأنفسنا ونحن نصعد ونهبط، ولا مجال للنظر إلى الوراء، لأن مرأى الهاوية المائية يولّد رعباً عظيماً عند المسافر الذي لا يعرف البحر. تشبثت الفتاتان واحتمتا الواحدة بالأخرى. لم يكن البحر هائجاً، بل جميلاً وهادئاً كما لو أنه وقع ميثاقاً مع كريستوريو. كانوا الآن في عرض اليمّ، والزورق لا يتأرجح أبداً؛ لا شيء آخر سوى السماء السوداء والمياه.

هكذا هو البحر. لديه مفاجآته، لكنه لا يتغير مثل الأرض. إنه على هذه الحال منذ بداية الخليقة. على الأرض يتبدل كل شيء. المدن التي تكبر، التي تنهار وترتفع وتتحول. ما من مدن فوق البحر. ما من شوارع، ولا ساحات. سمعتا كريستوريو يتحدث وحده، وشعرتا بالخوف والبرد.

ـ لا تقلقا. أنطون كريستوريو هو أحد أسياد فن الملاحة. ما من شخص آخر مثلي يعرف هذه المحيطات.

في اللحظة ذاتها، ارتعد وهو يرى من طرف عينه، نوراً بعيداً إلى يمينه. لقد سبق أن التقى مرات عديدة بأشباح البحر. لا يزال هذا بعيداً، إلاّ أنه يتقدم باتجاهه. نظرت الشابتان إلى الناحية ذاتها، كانتا ترتجفان. ابتدأ بالدنو شيئاً فشيئاً. هدأت الريح ولم يعد الزورق يتقدم. انه لا يشبه المراكب. بدا طافياً فوق البحر، سور

بأبواب مقوسة، مضاءة كلها. في الوسط، قاعة بارضية مبلطة، مع جدرانيات تمثل عناقيد عنب كبيرة. وفي جميع الأنحاء، ثريات معلقة في القبة السماوية. موسيقيون يعزفون مقطوعة من «الغوارانيا»(*) حزينة وواهنة، بينما هناك امرأة سمينة، جالسة على منضدة، تداعب بأطراف أصابعها قيثاراً تتشتت نغماته فوق البحر.

هل كان قصراً؟ بالأحرى كان منطقة كبيرة، مع منزل ريفي، وصالونات حيث يرقصون. هناك الكثير من الناس: رجال في بذاتهم الرسمية، ولحاهم الطويلة، ونساء في أثواب ذات ياقات يحيط بها الكريتولين[1]، شبان بأجساد منتصبة، يرتدون سراويل مخملية وينتعلون أحذية حمراء. ثمة شخصان كانا على حدة، في صالون أصغر، يبدو كأنه مقصورة الكوثل؛ إلاّ أنه كان الكوثل نفسه. هو، رجل قصير القامة، ذو عينين غجريتين لامعتين، يرتدي بزة كاملة ذات أزرار ذهبية، ونظرته غير نافذة، كانت تلتقي بنظرة المرأة التي ترقص بين ذراعيه. أما هي فكانت شقراء، نحيفة، ذات سيماء توحي بعزة النفس والتسلط، وذات سمات حساسة، كانت تصاحب اللحن بهزة رأس خفيفة.

ـ يا إلهي، ما هذا الشبح الغريب، الذي يطفو بهذا الشكل فوق المحيط، في هذه الليلة المعتمة؟

كانت الفتاتان في حالة قريبة من الرعب. كانت السفينة في تلك اللحظة قريبة جداً، ولم تكن مركباً. كانت صالوناً عائماً. طوراً تبدو قصراً، وتارة منتزهاً كبيراً مع أشجار تولد من الماء. كانت الموسيقى جميلة جداً، وحزينة جداً، لدرجة أنها ساهمت في زيادة

(1) قماش قطني يابس لتبطين الثياب.

هدوء البحر الهادئ. وكان الزورق مبحراً.

ـ من هي تلك المرأة، يا إلّهي، ومن هو ذلك الرجل؟

عندئذ سمع كريستوريو، في أذنه، صوت أكيموندو.

ـ لا ترتعب يا كريستوريو. هذه الباخرة هي باخرة حب، كان بدوره حباً كبيراً. أناس من بلد آخر. من الباراغواي. هنا أيضاً، إحدى تلك البواخر الأبدية التي تجوب ليلاً جميع بحار العالم. إنها تجيء من حرب بعيدة، تهبط نهر، الريودولابلاتا، ولن تجد أبداً مرفأ لترسو. تنقل على متنها، غراميات، سيولاً من دماء، غيرة، جرائم وانتقامات. في عداد المسافرين، إليزا لينش، بعد موت عشيقها الماريشال فرانشيسكو سولانولوبيز. لقد غادرت أوروبا لتلحق به، فعاشت مأساة حرب الباراغواي.

ـ هناك دائماً مفاجاءات معك، يا اكيموندو، وأيّ مفاجآت! هاتان المرأتان، المرتعبتان، سيزيد رعبهما أكثر.

ـ لكنهما ستفهمان الحب، وأنه خالد مثل البحر.

*

كانت السادسة مساء حين قام كريستوريو برمي مرساته في مرفأ موجوو، برفقة هاتين المرأتين المتوعكتين من جراء الرحلة الطويلة التي قامتا بها. نزلتا إلى اليابسة مع صرة ملابسهما والحقيبة التي حملها كريستوريو بنفسه، مع مقبض الدفة وجرة المياه العذبة.

ـ مساء الخير يا كريستوريو، ألديك فريق ملاحة جديد؟

ـ شابتان من مونيم، جاءتا لزيارة المكان، قال ذلك كي يشوش المعايير.

كامبورينا وجيرمانا، كانتا غير قادرتين على قول كلمة واحدة.

كانتا متعبتين وقلقتين. في المرفأ، لم يكن هناك الكثير من الوحل، حتى عند انحسار المد. كان الرجال يلعبون البليار في حانة كيبرادو. سار كريستوريو على درب منزله، الذي يبعد تقريباً مسافة كيلومترين. لكنه، قبل أن يصل، غيّر اتجاهه، ليسير فوق درب شجرة البلاذر القديمة، وهي شجرة عمرها مائة سنة، أغصانها المتشعبة كانت تتلوى وهي تمتد نحو الأرض، عند تقاطع الطرق التي توصل إلى الأملاك الصغيرة حيث كان لكل واحد قطعة أرضه، وزرعه، وبهائمه. في الواقع، كان ذاهباً إلى نسيبه غاراتوزو.

ـ مرحباً جميعاً، قال حين وصل.

كان غاراتوزو جالساً على منضدة صغيرة أمام الباب، سيجارته في زاوية فمه، إلى جانبه، زوجته درسدينا، التي، لبدانتها، كانت تجد مشقة في الجلوس على مقعدها. كان شعرها مشدوداً جيداً، وبطنها يتدلى على فخذيها، وابتسامتها صادقة وحارة.

ـ ما هذه الرفقة، أيها النسيب؟ هل قمت باصطياد الفتيات على الشواطئ؟

ـ انهما شقيقتان، يا نسيبي غاراتوزو، اختطفتهما من قرية كاشويرا، وقد جاءتا معي.

ـ اثنتان؟ ما هذه القصة؟ إنه أمر جديد!

ـ حسن، اجلس، اختفطت كامبورينا، أما الأخرى، جيرمانا، فهي أختها، لم تكن تستطيع البقاء وحدها، لذلك رافقتنا. وكما أنني لا أستطيع أن أجازف بسمعتها، لأنني أرغب في تأسيس عائلة معها، مع كامبورينا، جئت لأضعها في مأمن، هنا، عندك،

بانتظار الانتهاء من ترتيب الأوراق، والذهاب لرؤية القاضي والكاهن.

ـ أتريد الزواج من الاثنتين؟

ـ لا تمزح يا نسيبي، الأمر جدي.

في تلك اللحظة. طأطأت كامبورينا رأسها، وتصرفت جيرمانا، بدون تأثر، كأنها كانت خارج القصة برمتها.

ـ حسن! بما أن الأمر يتعلق بفتاتين محترمتين، وبما أن كامبورينا ستصبح نسيبتي، فان منزلي منزلها، ولا أحد سيمسها قبل أن تمر من أمام الكاهن. لا أنت ولا أحد غيرك: إنها الآن تحت حراستي. الأخرى أيضاً، أتحمل مسؤوليتها.

ـ لم أكن أتوقع منك أقل من ذلك يا نسيبي.

ـ ما لم أكن أعرفه، كما غيري من السكان هنا، أنك قد علقت في مونيم، وأنك قد قطعت شوطاً بعيداً.

ـ إنها ألعوبة القدر. خالتها، دونا جيمينيانا، قالت لي إنها تنتظرني، وإنه إن لم أجد كيرتيدي، ستصبح زوجتي. في النهاية، فقدت الأمل بكيرتيدي، التي ابتلعتها الوحوش (البيوك)، وفجأة ذهبت للبحث عن هذه الفتاة. إنهم أناس لائقون. في الحقيقة، يا نسيبي، لم يكن الأمر سهلاً، لقد كانت مخطوبة.. لكن، في النهاية.. سأروي لك ذلك فيما بُعد.

دخلت درسدينا ـ بعد أن امتلأت بالنشاط، وبعد أن أثارتها قصة الخطف هذه ـ إلى المنزل لتقوم بواجبات الضيافة، بعد أن تهامست مع أمها بذلك.

ـ اعتبري نفسك في منزلك. لسنا أغنياء، لكنَّ قلوبنا طيبة.

فزوجة كريستوريو، هي جزء من العائلة. سأحضّر العشاء وأرجوحة النوم في غرفة لأجلكما.

ـ دونا درسدينا ـ إنه أسمك أليس كذلك؟ ـ نرغب فقط في الاغتسال والنوم. كانت الرحلة طويلة. منذ البارحة مساء ونحن في البحر. لا أعرف إن كنا نستطيع تناول أي شيء؛ مهما كان.

ـ إن كنتما غير جائعتين، قالت درسدينا، سنتناول نقاع الليمون. لكن مهما حدث سأحضر، مع ذلك، دجاجة مع صلصة: إن تقديم الدجاج هو دائماً إشارة إلى الصداقة الحقيقية، حين نستقبل أحداً عندنا. لا نملك أرجوحة نوم بيضاء، لكن هناك مياهاً نظيفة.

في الخارج، كان كريستوريو يروي بصوت خفيض:

ـ أستطيع أن أقسم لك، يا غاراتوزو، لقد وضعت نفسي في ورطة سيئة. لا أعرف كيف سينتهي الأمر. لقد خطفت الفتاتين، تشاجرت مع الخطيب، زرعت الفوضى، انسحبت، وها أنا هنا. أريد أن أرى مع كاهن ريبامار إن كنا نستطيع تسريع الزواج، فان الوقت مناسب لتأسيس عائلة وإنجاب الأولاد. نعرف جيداً كيف أن الوضع هنا، كل ما نفعله هو مراقبة المدّ، الزواج، تربية الأولاد وانتظار الموت كل الأيام، في البحر وعلى الأرض.

ـ رحلة خرافية، إذاً؟ لا أعرف كيف فعلت كي تصل. القيام بالرحلة دفعة واحدة، من مونيم إلى هنا، وفي عز الليل، أمر ليس في متناول أول صياد آتٍ. ليس هناك سوى معلم مثلك كي يفعل ذلك.

ـ أجل. الآن أريد أن أتزوج، وأن أشتري زورقاً خاصاً بي،

وسأتدبر أمري. كفاني حياة التعب هذه، من شاطئ إلى آخر، كي ينتهي بي الأمر بأن ألتقط الجدري. تعرف جيداً أنني أملك قطعة أرض، وكنت قد اشتريت أرض تيرنتينو، الذي ذهب للإقامة في المدينة.

أريد الآن أن أبيعها مجدداً لأشتري مركباً، لقد سئمت من العمل لصالح أرباب العمل ومن الصيد من أجل أن أحصل على نصف السمك. لاحظ، أنني لا أشتكي كثيراً: الجميع يطالبونني بالعمل معهم، أكان في الكوثل أم في الجؤجؤ أو حتى في قيادة المركب، لأن الناس تعرف جيداً أنني أعرف هذه البحار أفضل من أي شخص آخر. حسناً، غاروتوزو، سأترك المرأتين هنا، وأذهب للنوم. غداً صباحاً، في وقت باكر، سأعود، كي نذهب معاً إلى ريبامار. لا أعرف إنْ كانت أحضرت معها شهادة المعمودية، لكن الأب جوان ليس كثير الدقة في هذه القضية، ما يرغب فيه حقاً، تزويج الناس، لكي لا يعيشوا معاشرةً.

ـ حسناً، اتفقنا، أنتظرك غداً. تستطيع أن تطمئن: إن الفتاتين في أيدٍ أمينة. حاول أن لا تأتي لتلعب دور الشبح هنا. إن الفتاة المخطوفة يجب أن تُحترم كما لو أنها جوهرة، لا يلمسها أحد قبل أن يحين الوقت. زد على ذلك، إنَّ المرأة التي تعرف الرجل قبل الزواج، لا تحترمه بعد أن تتزوج.

شعر كريستوريو بأن دماءه تجمدت وهو يسمع نسيبه يتحدث بهذه الطريقة. هكذا هو قانون تلك المناطق. فالفتاة كانت موضوع حرب. فيما بعد، تستطيع الأشياء أن تفقد قليلاً من حدتها. على كل، يمضي الصيادون حياتهم في البحر وما نعرفه عن زوجاتهم، هو أنهن، ربما لا يصدقن حرفياً كل مبادئ الوحدة هذه. بيد أن

كريستوريو لم يعجبه أبداً ما قاله نسيبه وبدأ يكرر في نفسه: «هل ارتكبت حماقة في الزواج من كامبورينا بالرغم مما قالته لي، عمّا كانت عليه؟!».

ـ إذاً، يا نسيبي، ماذا يحدث؟ سأل غاراتوزو. تنظر إلى هطول المطر، حين لا تمطر، هل روحك وعيناك بعيدان عن هنا؟

ـ كلا، كلا، ليس هكذا: لكنني أفكر في هذه القصة كلها وفي ما عليّ القيام به غداً.

ـ أذكر حين جلبت درسدينا إلى هنا، كانت امرأة مجرّبة، وليست كهاتين الدجاجتين اللتين أحضرتهما إلى هنا، إلى موجوو. ستتزوج واحدة، وستتحمل مسؤولية الأخرى. أما دريسدينا، فقد كانت أرملة منذ أربعة أشهر، وقلت لها أن تنسى المرحوم، وأن لا تصدق أرواح العالم الآخر. وهذا ما فعلته، إنها مرأة ولود. منذ أن جاءت، لم تتوقف عن أن تحمل وتسمن. أصبحوا ثمانية، لقد انتهى الأمر الآن. صحيح أنها لم تعد شابة، لقد أصبح لدينا أحفاد. خذ، أنظر إلى زيتو، هنا. إنه ابن ماريا داس كرينساس، إنه أصغرهم، وله سبع سنوات. من زوجها الأول المتوفي، لم تنجب سوى ولد واحد، مانويل دوريو، الذي أصبح اليوم رجلاً. لم يعرف والداً آخر سواي، لكن فيما يتعلق بطباعه، فله طباع والده الحقيقي. يحب إثارة المتاعب جداً. أتذكر أنه قتل ابن كينكاس باريغا، وبأنه أمضى خمس سنوات في السجن! لقد اصطلح الآن. إنه يتاجر بالفاكهة في مايوباو في سان لويس.

ـ ليس لأني أشعر بالسأم، يا نسيبي، لكن عليّ الذهاب، لأستطيع أن أقول كلمة لكامبورينا!

ـ درسدينا، يا بنات؟ يريد كريستوريو أن يرحل.

كانت كامبورينا عائدة من مخبأ النخيل الصغير، الذي كان بجانب البئر والذي يتيح للبعض وللبعض الآخر أن يستحم بالماء البارد، بواسطة دلو. لقد أزالت الملح من على جسدها وارتدت ثوباً نظيفاً، مجعلكاً، لأنه بقي ملفوفاً داخل صرتها. اقترب كريستوريو وقال لها بتهذيب:

ـ ستكونين سعيدة معي. سأعود إلى منزلي كي أنام. سيتكفل بك قريبي، كي لا تقول عائلتك إنني استفدت من الوضع قبل الزواج. غداً صباحاً، سأرى الكاهن في ريبامار كي أضع الأمور في نصابها.

ـ اتفقنا كريستوريو. ما حصل قد حصل، إنني الآن بين يديك، مربوطة القدمين والمعصمين.

ـ كلا، ليس بين يدي: بل في حياتي، لأنني قررت ذلك. ستكونين زوجتي.

ـ أجل، لكن أريد أن أعرف ماذا يحصل في هذه اللحظة في غوارابيرا؟

ـ لا تفكري بذلك. لكل يوم متاعبه؛ سأتفق مع والديك. لقد اجتزنا تجربة اليوم، ولن تكون هناك تجربة أخرى إن شاء الله. سنهتم الآن بتأسيس عائلة. إنَّ أرضي، أرضنا، ليست بعيدة من هنا. سأريك إيّاها غداً. قولي لجيرمانا، حين تعود من الحمام، إنني أرسل لها تحياتي، وبأنني أشكرها كثيراً لأنها رغبت في مرافقتنا.

*

في غوارابيرا، ارتمت دونا سيتيمبرادا ـ المنهكة ـ على سريرها المعلق ولم تتوقف عن البكاء والنحيب.

ـ حين يعود أردوتو، سيقتلني، بالتأكيد. لقد رحلت الصغيرات مع رجل لا أحد يعرف من هو، ولا أحد يعرف إلى أين. صلّي يا جيمينيانا. رتّلي مَرَدّ[1] القديس انطوان كي نعرف أين هما وإذا كانتا على قيد الحياة أم ميتتين.

في حانة كريزيو، على المرفأ، لم يكن هناك أي موضوع آخر للمحادثة.

لقد خطفت الاثنتين من أمامنا. لقد لطخ غوارابيرا بأسرها. ليس زيديكو فقط من يجد نفسه مخدوعاً حتى لا يستطيع السير في الشارع، وإنما جميع رجال البلدة.

حينذاك، انتصب زيلاو، بصفته بطل الناحية، المتبجح قليلاً، ليقترح من دون أن يزين الأمر.

ـ لن يُغسل شرفنا إلاّ إذا جمعنا فريقاً وذهبنا إلى موجوو للبحث عن الفتاتين، كي نعيدهما إلى هنا. ما قام به، أمر لا يحصل في بلد رجال.

ـ هيا بنا، سنقرر حالاً متى نرحل.

ـ لننتظر عودة الأب، عليه أن يعود بين يوم وآخر. لقد ذهب إلى روزاريو كي يبيع السمك المقدد. كان يجب علينا، نحن، أن ندافع عن الصغيرتين.

ـ حتى ذلك الوقت، يكون قد قتلهما.

---

(1) كلام من الفرض الكنسي

ـ من المؤكد أنه فعل ذلك. فهو وحده معهما. فمع رجل وصيّاد وملتهم رؤوس الباغر، ينبغي ألاّ نسأل. أما فيما يتعلق بعذريتهما، فلا داعي للتفكير بذلك. القضية الوحيدة المطروحة الآن، العار الذي تعرضت له منطقتنا.

كانت دونا جيمينيانا تصلي. لكن، لم يعد لصلواتها قدرة الماضي. بخلاف ذلك، كانت تشعر بالسعادة لمعرفتها أن كريستوريو بعيد من هنا. رغبت أيضاً أن يكون في مكان أبعد، أبعد دائماً، من دون معرفة أسراره، أسرار تلك الليلة. ليلة العذابات كلها. «من الأفضل أن يكون ميتاً، فكرت. كلا لا أتمنى موت أحد، إنه شاب صغير، وسيتزوج كامبورينا». ضاع فكرها في بكاء أختها وحزنها، وهي بجانبها على السرير.

ـ سيقتلني زوجي. لقد هربت الصغيرتان. يا ربي والهي، كلا، لم تهربا، وإنما هو الذي أجبرهما. إنني أعرف بناتي.

كانت جيمينيانا تستمع إليها، وتغرق في الصلاة. في مناخ الرعب هذا، وصلت سفينة «فلور دومونيم» ورست في غواراييرا. لقد عاد أردوتو، المعروف بدوتو، بعد رحلته إلى روزاريو. وما إن وضع قدمه على اليابسة، حتى جاء زيديكو للقائه وليبلغه فجأة:

ـ جاء شخص يدعى كريستوريو وهو رجل قوي وصياد في موجور، إلى هنا، وأخذ ابنتيك، كامبورينا وجيرمانا، أصعدهما في مركبه الصغير، وهرب معهما وسط الخليج، لكن لا أحد يعرف إلى أين.

ـ ما هذا الذي تخبرني إياه يا صغيري، أعد عليّ ذلك، كي أفهم.

ـ أجل يدعى كريستوريو، من موجوو، جاء إلى هنا، وخطف ابنتيك، كامبورينا وجيرمانا.

ـ كم كان يبلغ طول هذا الرجل.

ـ طول رجل.

ـ أجل، كم بالتحديد؟ هل كانت البلدة قاحلة! أليس هناك رجل هنا؟ كيف يحدث أمر مماثل؟ والخطيب؟

ـ لقد أوقع السكين من يدي، بركلة، وهددني بالقتل، وانسحب.

ـ أمر محزن وكما العادة، لم تفعل أمهما أي شيء حسن، هذه المضطربة!

ـ لا أعرف، سيو دوتو، لم تكن على علم بذلك، لم تنتبه للأمر، الا صبيحة اليوم التالي. كل ما أعرفه، أن الفتاتين اختفيتا.

عند هذا الحد، قام دوتو بنصف استدارة، وعاد إلى فلور دومونيم، فقال للربان:

ـ لا ترحل رأساً. لدي رحلة أخرى أقوم بها. رحلة شحن. سأجزل العطاء.

ـ حسن سيو دوتو.

سمعت قرقعة نعليه على رمال غوارابيرا. من دون أن يقول كلمة لأحد، مدمدماً بشكل أسوأ من «باغر»، علق في الصنّور. ذهب إلى منزله، ليصفع زوجته، وليضع مخططات للعمل.

XIII

سأل الأب جوان:

ـ هل من مانع؟

ـ لا. ما زلنا عازبين.

ـ باسم الآب والابن والروح القدس. أنتما زوج وزوجة. ما جمعه الله، لا يفرقه الإنسان.

أحس كريستوريو بأن الأمر يتعلق هنا بالتزام شرف. على جنب، كانت جيرمانا مع عائلة العريس، تحضر كل شيء، ولم تنجح في فهم كيف أن الأشياء استطاعت أن تمضي بهذه السرعة. فيما بعد، ذهبا إلى المنزل الذي بناه كريستوريو بنفسه على قطعة أرض تخصّه. لا تحضيرات خاصة ولا حفل. الأهم، كان تسوية وضع تلك الشابة التي خطفت. حين سيأتي والداها، سيجدان كل شيء منظماً. وهذا ما تم. أما بالنسبة إلى أحداث الليل، فينبغي أن لا يعرف أحد بذلك مطلقاً.

لقد كانت لكريستوريو غرفته الخاصة، مع أرجوحة وسرير من

الرافية[1]، حيث كان ينام عند عودته من الصيد.

في الغرفة الأخرى للمنزل، استقرّت جيرمانا. رغبت كامبورينا في أن تسكن معها كي لا تفترقا أبداً. حل الليل. عتمة قاحلة. غلّف الصمت المنازل. انطفأت الأضواء، الواحد بعد الآخر. لم يتبق سوى ضوء الممر، الذي انتقل إلى المطبخ، ومن ثم، وبعد قليل، انطفأ بدوره. كانت كامبورينا عصبية. فبعد كل شيء، ستقدم نفسها إلى كريستوريو للمرة الأولى. هو، كان يعرف ما كانت عليه. اقتادها مع قناعة بأن ذلك الأمر لن يشكل عائقاً أمام اتحادهما. في هذه الأرجاء، كانت العذرية الأمر الوحيد الذي له أهمية حقاً في حالة الزواج أمام الكاهن. الاتحادات الأخرى كانت أكثر تسامحاً، من دون عذابات الغيرة. لكن العذرية كانت الغنيمة التي يتباهى بها الرجل من أجل مجد وجوده، وهكذا كان يؤسس عائلة. اصطحبها كريستوريو إلى الغرفة. كانت مرتبكة وبدت كأنها لا تعاني من شعور آخر إلا شعور المفاجأة والخوف.

ـ سيو كريستوريو، ينبغي عليّ أولاً أن أتحدث إلى جيرمانا. لكن، قبل ذلك، أرجوك أن تطفىء ضوء المطبخ.

ـ ما تريدين أن تفعلي؟

ـ أريد أن أتحدث إليها.

مرت لحظات طويلة كأنها الدهر كله. كان كريستوريو ينتظر، من دون أن يعرف ماذا يحدث، وشعر عدة مرات بالرغبة في الذهاب للإتيان بها «هل هربت؟» لكنها عادت، بالكاد يُشاهَدْ مرآها وقالت:

---

(1) نوع من النخيل.

ـ ها هي جيرمانا معي. إنها عذراء. لقد تحدثت إليها، كي تحل مكاني. هكذا، لن يكون لديك أي شيء لتلومني عليه، لأن أختي ستدفع مهري.

ارتعد كريستوريو.

ـ لست من النوع الذي ينتهز هذه الأشياء. لجيرمانا الحق بأن يكون لديها حياتها، وأنت حياتك.

ـ لكننا اتفقنا فيما بيننا.

رانت فترة صمت. غادرت كامبورينا الغرفة، بينما تمددت جيرمانا ـ التي كانت كأنها جزء من الليل المعتم ـ على سرير النخيْل المجدول. لقد دهنت لها أختها بظرها بزيت الكبيبة[1] فاحت منها رائحة الليمونية[2]. اقترب كريستوريو منها من دون أن يتفوّه بكلمة. يداه المتلمستان وحدهما كانتا تجعلانه يتعرف الى انحناءات جسدها. كل شيء كان غارقاً في صمت من العتمة والمفاجأة. جلس بالقرب منها وسألها:

ـ أوافقت؟

ـ أجل.

بدا وكأن الليل لم يكن ليلاً. وأن الزمن لا حدّ له. لم يشعر بالرغبة، بل بالخوف. لم تتحرك جيرمانا. اشتكت بأنها تتألم. خالج كريستوريو الشعور بكونه قذراً، لكنه قبل ـ بخيلائه كرجل ولد في هذا المحيط ـ هبة شقيقة زوجته. فيما بعد، عادت

(1) جنس شجر من الفصيلة القرنية.

(2) جنس نبات له رائحة شبيهة برائحة الليمون.

كامبورينا.

ـ جيرمانا؟

ـ نعم، أجابت أختها.

أعادتها إلى غرفتها، قبلتها، وهمست لها:

ـ لقد قدمك الله هدية لي، كما لو أنني كنت اثنتين.

حينذاك، احتلت موقعها في غرفة كريستوريو. تعرّت من كل ملابسها. جاءت إليه، بجسدها المعطّر، ووهبت نفسها له بكل قوة رغبتها، حتى انبلاج الفجر. الحب نما حباً، ولم يهدأ إلاّ عند صياح آخر ديك يعلن أن الفجر قد بزغ. جيرمانا أيضاً سمعته يصيح. ولم تنغلق عيناها أبداً. النهار الذي طلع كان هو نهار وصول والد كامبورينا مع حرسه. لم يعد لديهم أي شيء يفعلونه هنا. لقد أصبحت جيرمانا امرأة. وكانت تبحر عبر تلك العوالم المجهولة. لقد كان اليوم يوم جمعة.

XIV

ـ ما هو هذا المركب الذي يصلنا إلى موجوو؟

تساءل زيزندو، وهو ضِنِّيك من المرفأ.

ـ لا أعرف. ثمانية أشخاص وصلوا على متنه، ويبدو عليهم أنهم أناس أتوا ليطالبوا بحقهم، أجاب كيرينو، وهو عاطل آخر في هذه الناحية.

هبط الرجال إلى اليابسة، مرهقين من السفر، لكنهم مصممون وعازمون على تنفيذ مهمة ما. على رأس الموكب، أردوتو، والد كامبورينا وجيرمانا. أما الآخرون، فكانوا المدافعين عن البلدة، الذين جاءوا ليظهروا أنه في غوارابيرا، لا يستطيع أحد عزف الموسيقى إن لم يكن ثمة حفل. زيكيدو، خطيب كامبورينا، لم يكن موجوداً. كان قراراً جماعياً بذلك. عليه ألاّ يشكل جزءاً من البعثة.

ـ قل لي، أيها الصديق، سأل دوتو، زيزندو، أتعرف شخصاً يدعى كربستوريو، يسكن هنا، في هذه الناحية؟

ـ أجل ولا؟ أعرفه من دون أن أعرفه. أجل، لأنه ينطلق من

هنا دائماً، ولأنه صياد من القرية، ولا، لأن لا علاقات لي معه حقاً.

ـ وأين يقيم؟

ـ هنا بالذات، على بعد نصف فرسخ. شخص يعتبر شخصاً شغيلاً وجديراً ومؤهلاً لأشياء البحر. لكن ما القضية؟

ـ لا شيء، إنها قضية تخصني، أنا وأهل قريتي.

ـ مشاجرة؟

ـ قضية شرف، خطرة.

ـ تأتون إلى هنا في مهمة سلام أم بشأن العراك.

ـ بالنسبة إلينا، سيّان. هذا الشخص جاء إلى بلدتنا غوارابيرا وخطف ابنتي.

ـ ليس كريستوريو الذي قام بذلك. لقد تزوج أمس في كنيسة ريبامار، بفتاة شابة من مونيم.

ـ ممن تزوج؟

ـ أجهل الأمر. كل ما أعرفه، أن الفتاة ليست من هنا.

ـ في جميع الأحوال، لم أعطِ موافقتي ولست موافقاً.

ـ لا أعرف شيئاً، أنا، وهذا أمر لا يعنيني. لكن فيما يخص الزواج، فقد تزوّج فعلاً. ولا أعرف إن كانت تلك الفتاة التي تتحدث عنها.

ـ إنها ابنتي.

ـ عال، لك الحق إذاً بأن تستعلم وأن تعرف ما القضية.

كانت الساعة تقترب من الثالثة بعد الظهر. الشمس كانت لا

تزال حارقة، والجميع يشعرون بحرارة تلك الساعات الخانقة، ساعات فصل الأمطار. حين تبقى الأشجار هادئة في غياب الهواء. بعد سماعهم هذا الحوار، القصير، لكن الغني بالمعلومات، ازداد غضب الواصلين الجدد.

ـ ومع ذلك، كيف يستطيع هذا الكائن أن يتزوّج ابنتي، في حين أنني لم أعط موافقتي، فضلاً عن أنها قاصر؟ يضع يده فوقها ويتزوجها، كما لو كانت لا شيء بتاتاً، كما لو أنها بهيمة يفعل بها أي شخص ما يشاء! قال أردوتو إلى الذين يرافقونه.

ـ وكيف تجري الأمور في غوارابيرا؟ سأل زوروليندو، أحد أكثر المستشارين، والذي في فمه طعم الدماء. ليس بالأمر الكبير بالنسبة إليك، سيو دوتو، فنظراً إلى أن ابنتك تزوجت قد غُسل الشرف. لكن فقط، القرية، الناس. أيمكن أن نعود إلى ديارنا بخبث، كي نقول إن كل شيء قد سوّي، وبأننا نعود مهذبين بمثابة شهود على زواج خسيس؟ كلا، سيو دوتو، هذا أمر مستحيل. لقد جئنا لنتخلص من هذا الشخص، ونعيد البنتين، لا أكثر ولا أقل. وسنعيد أرملة وفتاة عذراء.

ـ هذا صحيح. اعترف دوتو. لغوارابيرا الحق في الاحترام. لنقم بما ينبغي فعله.

وبدأ الموكب بالمسير.

*

ـ ثمة موكب يتقدم باتجاه أرضنا، الوضع غير مطمئن، أعلن غاراتوزو، الذي حدس للحال بأن لا خير يمكن انتظاره من ذلك.

ـ يا أمّ الله! إنه أبي برفقة فتية غوارابيرا.

ذهبوا لتحذير كريستوريو. وقف أمام الباب وأدخل الجميع. كان غاراتوزو قد جمع كل الذين يسكنون في الجوار. وكان الرجال يتوافدون، أكثر فأكثر، مصحوبين بالنساء والأطفال. فالإعلان عن مشاجرة كان يثير الحشرية.

ـ إنهم أهل مونيم الذين يجيئون لقتل كريستوريو، صرخ غاراتوزو. سنمنعهم من القيام بذلك.

ـ من هو سيو كريستوريو؟ سأل دوتو بعد أن استجوب البعض منهم، هنا وهناك، كي يعرف أين يقيم.

ـ إنه أنا ماذا تريد.

ـ أنا والد كامبورينا وجيرمانا. جئت أستعيدهما.

ـ كامبورينا هي زوجتي، بحسب قانون الله، مع مباركة الأب جوان، في ريبامار، منذ يوم أمس. أما فيما يخص جيرمانا، فهي التي تقرر: لقد جاءت بمشيئتها، مدعوة هنا كي تقيم مع أختها.

ـ ينبغي سفك دمائه، قال زورروليندو. لقد سئم من كل هذه الثرثرة.

ـ حذارِ! سيسقط أموات، وبأعداد كبيرة، قال غاراتوزو.

ـ وليكن هناك أموات. وماذا بعد؟ هذا القذر لطّخ شرف القرية.

ـ سيو أردوتو، لا تجبرني على قتلك وعلى نثر حياتينا في الهواء. أريد أن أجعل من ابنتك زوجة صالحة وأماً لأسرة. لست قذراً. ولا أقبل أن تعاملني بهذه الطريقة.

ـ ومع ذلك، فالأمر هكذا. ما قمت به، ليس من الأشياء المقبولة.

ـ لقد وُعدت بها منذ ثلاث سنوات.

ـ ومن قطع هذا الوعد؟

ـ دونا جيمينيانا.

ـ العجوز القذرة، ساحرة الشيطان! لم أعهد إليها أبداً بمصير ابنتي.

ـ لقد ذهبت لأبحث عمّا منحني إياه القدر.

بدأت معركة الهراوات. غاراتوزو، كريستوريو، زيفيرينو، تابيسكو، ريغاو، أميراندو، زورولينِدو، آخرون أيضاً. انهمرت الضربات. بلحظة، دخلت القرية بأكملها في المشاجرة، وكانت هناك جماجم مفلوقة من جميع الجهات. زورولينِدو، الأجسر، تسرب إلى المنزل وأمسك بكامبورينا. هربت جيرمانا راكضة إلى عمق الحديقة وصرخت: «لا تقتلوا والدي ولا سيو كريستوريو!».

ـ ستأتين معي، قال زورولينِدو إلى كامبورينا، التي كان يمسكها، سجينة، بين ذراعيه.

جاهد كريستوريو كي لا يقتل العجوز دوتو، الذي كان ممسكاً بخناقه. هناك الكثير من المآسي التي تكفي الجميع. سحب سكينه ذات الشبرين، طولاً، ومشى نحو زورولينِدو.

ـ هذه المرأة زوجتي. اتركها.

ـ ستعود إلى غوارابيرا.

ـ لن يحصل هذا أبداً.

ـ حباً بالله، كريستوريو، لا تقتل زورولينِدو، توسلت كامبورينا.

كظم حركته، السكين مرفوع، صرّ أسنانه وانتظر.

ـ أترك زوجتي.

ـ لا تلطخ زواجنا بالدم، يا كريستوريو.

تراجع زوروليندو، وبعد أن أفلت كامبورينا، بحث عن سكينه في حزامه، ومن ثم تقدم نحو كريستوريو وهو يصرخ:

ـ أيها القذر، سأذبحك مثل خنزير.

ـ هيا، تعالَ، أما أنا، فسأقطع عنقك كما دجاجة.

تشابك السكينان في الهواء. شعر كريستوريو بأن ذراعه لم تعد تخصه بالكامل. لقد ولجتها الشفرة بشكل عميق. كان الدم يسيل، وهرب زوروليندو راكضاً. بذراعه، استطاع كريستوريو، أن يمنع السكين من تمزيق صدره.

ـ أنجديني أيتها القديسة العذراء الطيبة! كانت تصرخ كامبورينا.

عاد كريستوريو إلى المنزل، مغطى بالدماء. كل سكان موجوو تقريباً، الذين شدهم الصدام والزعيق، كانوا يحيطون بمجموعة المهاجمين وهم ليسوا ببعيدين عن قتلهم كلهم بضربات العصي.

ـ توقفوا يا أصدقائي! صرخ غاراتوزو. لا تفعلوا ذلك.

فات الأوان. كان زوروليندو على الأرض، يصارع ضد الموت، وهو يلهث.

كريستوريو الذي كان ينزف بغزارة، عاد وخرج، السكين بيده، وصرخ.

ـ اتركوه لي، أريد أن أقضي عليه!

وتقدم، رافعاً السلاح. كان يزبد من الكراهية. كانت أعضاء

زوروليندو محطمة من ضربات العصي التي تلقاها من أهل موجوو. والد كامبورينا، الذي كان أرضاً، يطالب بالرحمة. لا يزال كريستوريو يتقدم. وسكينه يتوجّه مباشرة إلى جسد زوروليندو.

ـ توقف، كريستوريو. لا تقتله!

كان هذا أول أمر تعطيه كامبورينا في هذا البيت. كان صوتها قوياً جداً وحاسماً لدرجة أن الوقت توقف. وقف الجميع صامتين. جامدين. كما لو أنه كانت لتلك الأصوات القدرة على تثبيت الناس والأرواح.

توقف. نظر إليها. وانتبه إلى أنه صار لديه زوجة، دخل إلى المنزل، وهو يعض شفتيه بغضب. بدأت أغصان شجرة البلاذر بالاهتزاز، وأوراقها تتطاير في جميع الجهات وسط هزيز الريح. توقفت الكلاب عن النباح واضطجعت.



XV

ـ ها أن الظلمة تحلّ في كل مكان، قال جيرومينيو.

ـ إنه المطر الذي يصل، أجاب كريستوريو.

البحر مزبد بالكامل. بالتأكيد ستهبّ عاصفة قوية.

ـ إنه البحر.

ـ ماذا تقصد، بالبحر؟ سأل الصبي.

ـ إنه مياه الأرض. إما مياه السماء، فهي المطر.

تنساب شيتا فيردي بأقصى سرعة. الهواء ينفخ الشراع. أبحروا إلى عرض البحر، نحو المدّ، كي يلقوا بالمرساة في البانكو فيليز. شدّ جيرومينيو بكل قوته على البينابو. الحبال مشدودة جيداً والحركة فعالة. في البعيد، ظهر الآن، زورق أبيض، أبيض كلياً، الهيكل والشراع، وتراءى ينزلق فوق درب الأمواج، الأمواج الصاخبة والريح، معاً. مركب غريب جداً، يثب، يسير بخط مستقيم، من دون أن يحوّل سيره، سريع مثل العاصفة، لا يشبه أي مركب آخر، كان يظهر تارة، وطوراً كان يختفي في وسط جبال من الأمواج.

ـ كريستوريو، سبق لي أن رأيت زورقاً شبيهاً بهذا في خليج غوا، قال كيرينتي. شيء غير معقول. سنلتوي كي نلحق به.

ـ ما نوع هذا الزورق؟ كأنه جذعية[1].

ـ توجه نحوه! أضاف كيرينتي.

أنزل الساري، كي تتمكن **شيتا فيردي** ـ السائرة بلا شراع ـ من الاقتراب من الزورق الأبيض. إنها المرّة الأولى التي تشاهد في تلك المنطقة. كان موجوداً مقابل الحاجز الأحمر، ويتّجه نحو سانتانا. تابع كريستوريو ملاحقته. كان الزورق الأبيض، يختفي في الموج، ويعود ليظهر من جديد.

في لحظة معينة، استطاعوا أن يروا من بعيد، بأنه بدأ يكبر، وبدأت قلوعه تحتل مساحة أوسع، شيئاً فشيئاً. وسرعان ما تحول إلى مركب، ومن ثم إلى سفينة؛ تضاعفت الأشرعة، ولم يتوقف عن الابتعاد عن **الشيتا فيردي**، التي لم تعد تنجح في اللحاق به. تشكّلت غيوم في السماء. كانت قاتمة مع العلم أنها بيضاء، ازدادت نصاعة الزورق الأبيض. اشتدّ الهواء وتجوّف البحر. فتح كريستوريو عينيه واسعاً كي يرى المركب بأكمله. كان جميلاً، يلمع مثل نجمة ولا أحد يعرف أين كانت وجهته. مرّ سرب من طيور أبو منجل من فوقه، على ارتفاع منخفض، وسار باتجاه الجنوب ـ الشرقي. ضاعفت الشيتا فيردي سرعتها. حاولت أن تقترب، انتهى بها الأمر بأن وصلت قريباً منه. الآخر، كان زورقاً ومركباً عجائبياً. من دون أي شخص وراء الدفة، كان يبحر مع

(1) زورق يُصنع بتجويف جذع شجرة.

الريح. بقي كريستوريو متأملاً. دائماً، هو السرّ ذاته، الاستشباح[1] عينه. سار رأساً إلى الشبح ورغب في أن يتحقق منه. ققصه وزفته أبيضان مثل أشعة الشمس، وكان من المستحيل النظر إليهما.

ـ من هنا؟ صرخ.

ـ إنه سحر البياض، الذي سبق أن رأيته مرات عدة، قال كيرينتي. إنه زورق الطهارة.

ـ ليتمجد اسم الرب!

فجأة أصبح لونهم أزرق، واجتاح هواء أزرق فاتح الزورق؛ شيتا فيردي، العازمة والشجاعة والعنيدة، كانت تمخر اليمّ برغبة في الاقتراب من جميع المراكب. شعر كريستوريو أنها لا تطيعه.

ـ وبعد، شيتا فيردي؟ ألن تتوقفي عن سماع نفسك فقط؟

لكنه أمر لا طائل منه. لم تكن سوى قوة وعزم. ترنّحت ميمنة وميسرة، تقدمت وهي تتأرجح، من دون أن تتوقف باتجاه المركب الأبيض.

وبعد أن وصلت بالقرب منه، فتحت كوة في البحر وظهرت منه زهرة نوارس سوداء، كانت تطير في حلقة، وتنزل من السماء، كي تغطس في مشهد أجنحة راقص. في أثناء ذلك، كان الزورق الأبيض يختفي في قلب الأغوار الأبدية.

ـ كريستوريو.. هُوَا...!

إنه صوت الريح. قريباً منهم، على زهرة ما، ظهرت زعانف سمكة مارو، وسرب سردين، رمادي اللون.

---

(1) فن إظهار الأشباح.

لم يعد كريستوريو يشعر بذراعيه. كان جيرومينيو يرتجف. والريح تهزّ بعنف الزورق الذي كان يدور من جانب إلى آخر. قال كيرينتي وشعلة في عينيه الخضراوين.

ـ أجمل منه، فقط، «سفينة الختم الأحمر لشهر آب»، الذي يعمل في بحار الصين واليابان.

ـ هيّا، من الأجدر أن نصطاد، من دون استرخاء، أجاب كريستوريو، مذهولاً. إننا نتجاوز رأس غوارابيرانغا، على سفح شناخ تابايانا، بالقرب من منارة سانتانا. مكان مقفر، لن يسأل أحد ماذا يحدث في البحر.

كانت شيتا فيردي مرحة، وكريستوريو مغروم بمركبه. يوحي له بالثقة، يعرف ماذا يفعل. إنه بالضبط المركب الذي حلم أن يمتلكه، والآن، كان واثقاً أنه لم يكن زورقاً فقط: كان ذا روح. يسير، يتأرجح، يمخر العباب ويخرج منها، يقوم بانحرافات جانبية وأمامية، عنيد، مليء بالطمأنينة.

مع المركب الأبيض هذا، تعود إلى رأسه ذكرى كيرتيدي والوحوش. عيناها، جسدها، ذكراها، هروبها. لكن تلك الذكرى تندثر. إنها فقط ضربة ريح فجائية، كي لا ينسى سحر الكآبة الباقية.

ـ جيرومينيو، سنصل إلى منطقة الصيد، بالضبط، مع لحظة الجزر. لن يكن أمامنا سوى رمي الشبكة والانهماك في العمل.

ـ أجل، لكننا نعرف جيداً كيف هو السمك. يوم نعم ويوم لا. المهم، بخاصة، هو البحر. ليل نهار، مع الشمس والنجوم. رائحة الموج هذه تجلب الحظ، تطمئن كريستوريو.

بدأ الليل يهبط بهدوء، خفيفاً من ناحية، أكثف من الأخرى، لكن، في جميع الأحوال، كان الليل الذي يأتي. شيتا فيردي تتقدَّم. ظهر قاع الغوارابيرانغا المرتفع بشكل كامل مع انحسار المد. سار المركب باتجاه أمكنة الصيد، وقريباً ستظهر الرمال، بقدر ما كانت تتراجع الأمواج، ميتةً متراجعة عن الشاطىء. سيرسو الزورق طيلة الليل، وعند ذاك ستوضع الشباك المزردة في أمكنتها. دائماً، كان التقاط السمك أسهل، خلال مد الليل.

ـ لقد خلق الله البحر كي يذهب الناس للسباحة، قال جيرومينيو.

ـ خلق الرجال للحياة، يا بني، أجاب كريستوريو.

على الأمواج، في البعيد، سُمِع انفجار مدفع. إنها إشارات الطبيعة وصراخ المفاجآت. في هذه الليلة، سيحصل ما لم يحدث أبداً. تصلبت الأجساد، كان اللحم يرتجف، وفي الرؤوس، كان العالم في طور الولادة.

كيرينتي، بعينيه اللامعتين، اكتفى بالقول:

ـ السفن لا تموت أبداً. بل تغرق.

*

قاع غوارابيرانغا غير العميق كان نتوءاً أرضياً في وسط المياه. حين ينسحب البحر، مع ارتفاع أمواج مارانياو العارم، ينكشف بشكل كامل. في وضح النهار، يدفىء نفسه بالشمس، أما ليلاً، فيلمع تحت نور القمر. نزل كريستوريو وجيرومينيو إلى اليابسة. طويا الشبك وعلّقاه على الأوتدة التي ثبتاها، تدريجياً، كي يرتبا كل شيء في مكانه، ومن ثم انتظار صعود البحر ثم انحساره،

ممسكين السمك بذلك، السمك النافق، المنهك في صراعه داخل الزردات. لاحظا إذاً تقاليد كانا يعرفانها جيداً ولم يكن أمامهما سوى أن ينتظرا حلول الظلام. الزورق كان جافاً، ساقطاً على مقعد رملي. أشعلا ناراً، ووضعا السمكة لطهوها مع الملح. فيما بعد، أكلت سليقة المنيوت بالأصابع؛ ومن ثم، تمددا على مقعد الزورق، لينظرا إلى النجوم لحين جلب السمك.

كانت ليلة بداية أول أجزاء القمر. كان جيرومينيو ينظر إلى مجموعة نجوم مدار الجدي. إنه يعرف الأسماء التي درسها على أساتذته في مدرسة البحر. رأت عيناه في النجوم المبعثرة، كيفما اتفق، قرون التيس ولحيته.

في الموج الذي بدأ يغطي حافة الرملة، كانت الأسماك، تفرفر لاهية مع فقاعات الزبد. دمدم كريستوريو، بواحدة من أغاني المومبا ـ ميو ـ بوي الشعبية القديمة:

«السماء مملكة النجوم

حيث للقمر مسكنه

الندى دمعة الليل

باكية على اقتراب الصبح

ـ أهي إحدى أغاني تولينتينو، يا أبي؟

ـ كلا، إنها لنازاريه. لا أحد مثله يستطيع ارتجال الكوبليه. ينبغي تفتيش البلاد، لكي نجد «كانتادوراً»(*) مثل نازاريه. وهو بالمناسبة أب إحدى المغنيات، وتدعى ألسيوني. في عالم الريو في وسط الظلمات، شمّ كريستوريو عطر زنبق بري، كما رائحة المقبرة في موجوو. رفع رأسه، ونظر باتجاه الريح. الظلام يلف

كل شيء. لم يعد هناك سوى نحيب البحر الأحمر. لكن، على طرف الجرف الرملي، ظهر طيف صغير أبيض، ليخيّل إلينا أنه صنع من البخور والغيوم اخنلج كريستوريو وتصلب.

ـ أتشمّ تلك الرائحة يا جيرومينيو؟

ـ كلا يا أبي.

ـ وألا ترى ذلك الشكل، هناك، على الحرف؟

ـ كلا يا أبي.

ـ وأنت، يا كيرينتي؟

ـ أعرف كل شميم البحر، أجاب. وعاد ليغفو.

نظر كريستوريو مجدداً. ثمة طفلة كانت على جؤجؤ السفينة. بيضاء، عيناها الكبيرتان مفتوحتان. وثمة ابتسامة خفيفة على شفتيها.

كانت باتِستا، ابنته، تلك التي رحلت من دون أن تغلق عينيها، والتي حُملت في تابوت الملائكة الصغير الأزرق، المبطن بالأبيض، وخلفها الأطفال يغنون معاً:

ليتمجد الاسم المقدس

ليتمجد الاسم المقدس

ولم يذرف أحد دمعة لأننا لا نبكي على الأطفال الصغار في هذه البلدة، حيث يموت فيها الكثير، والذين سيرافقون القديسة العذراء.

نظر كريستوريو من دون أن يرف له جفن، كان جيرومينيو يشخر أيضاً. لقد نام هو أيضاً!

ـ أهذه أنت يا طفلتي؟

ـ أجل، يا أبي.

ـ ماذا تفعلين هنا، تائهة وسط هذا البحر، وحيدة فوق هذا الشاطىء الرملي؟

ـ أبحث عنك يا أبي. كنت أشعر بالغيرة دائماً، لأنك كنت تفضل فاريزينا. لقد ماتت بعدي من الملاريا.

ـ وإخوتك؟ هل هم بين المنغروف؟ تانديتو، جيرتيد، مانغورا، أماداسيو، بارييكو، جانجار؟ وماريا دوسيو؟

ـ إنها صديقة القديسة لوسي. إنها هي التي تغسل لها عينيها بمياه مونيم وببخار من ورود النجوم. لكنني جئت لأنصحك بالذهاب مع الزورق، من دون أن تنتظر قدوم الصباح الباكر لأن مركب الموتى سيمر من هنا، وقد يجرّك خلفه.

كانت بيضاء مثل الفجر الذي ينتصب، حين نشاهده من بعيد، عندما تبعث الأمواج. عيناها مفتوحتان، كما عند لحظة موتها، حين أغلقهما لها. وكانت لا تزال تحتفظ على وجهها بنظرتها الطفولية.

ـ هل ماتت جميع فتيات موجوو الصغيرات؟

ـ كلا، ليس كلهن.

ـ اللواتي لم يمتن، لم يعدن فتيات صغيرات. فقط، عندما نموت ونحن صغار، نبقى صغاراً.

رأى كريستوريو باتِستا وهي تركض فوق البحر، وكنا لا نرى البحر، بيد أنها تركض دائماً، ولا تتوقف عن الركض.

ـ جيرومينيو! كيرينتي! صرخ كريستوريو. وكان عواء ذئب قوي جداً، نافذ جداً، بحيث غرق في البحر.

ـ جيرومينيو! صرخ مجدداً.

ـ ماذا يحدث يا أبي؟ ما هذه الصرخة؟

ـ بسرعة يا بني! يجب رفع الشبكة ومغادرة المكان.

ـ إلى أين؟ الموج يرتفع، يصل إلى الزورق تقريباً، وسيكون غزيراً بعد قليل. حتى أننا لم نبدأ الصيد بعد، يا أبي.

ـ لنرحل. وإن كان ينبغي أن نفقد الشبكة، فلنفقدها.

ـ لكن، لماذا يا أبي؟

ـ لقد جاءت باتِستا وطلبت مني عدم انتظار مرور... سكت، من دون أن يرغب في كشف ما يرغب.

ـ باتِستا؟ من هي باتِستا؟

ـ أختك، تلك التي ماتت منذ عشرين سنة، من جراء حصبة خبيثة.

ـ أنت تُجن يا أبي؟

ـ كلا، إنه يُصبح قديساً، تدخّل كيرينتي، الذي استيقظ من نعاس لم ينمه.

ـ كلا، كيرينتي. لا نستطيع أن نبقى هنا وقتاً أطول. أعرف عندما ينبغي ألاّ تحصل الأشياء. لنذهب.

ـ أنا أيضاً، أعرف، أجابه.

نزل كريستوريو من الزورق، وبدأ، بكل قوته، سحب الشبكة التي كانت المياه قد بدأت بغمرها. العتمة والمدّ أعاقا عملية نزع

الأوتاد التي كانت معلقة بها. كان كريستوريو يتصارع مع المد. جيرومينيو أيضاً، من دون أن يفهم ماذا يجري، مطيعاً، من دون أن يفهم، أوامر والده، غير المتناسقة مع عادات الصيد. عند الوتد الأخير، وبينما كانت المياه تصل إلى نصف أجسادهم، سمعوا غليان البحر. هذه المرة، نظر جيرومينيو ورأى. كانت بقعة سوداء، أشد سواداً من الليل، والذي سمح بتمييزها، وضوح النجوم. رأى كيرينتي كل شيء. لكنه لم يخرج من الزورق، بدا غائباً.

ـ إنه سرب من السردين. لم أر قبلاً سرباً كبيراً مثلاً.

ـ إنه أكبر من الجرف الرملي.

كانت المياه تغلي. لا الريح ولا الموج نجحا في إخفاء هذا الغليان. سرب السردين، الذي كان على شكل دائرة، في البداية، تمدد تدريجياً، فيما بعد، ثم أصبح دائرياً، وبدأ يروح ويجيء. عاد كريستوريو وجيرومينيو إلى الزورق، الذي أصبح يتأرجح الآن، وباشرا بمسح القعر كي يرفعا الشبكة ويضعاها على المتن. لم تكن المهمة سهلة. احترقت الأكتاف ـ بسبب المجهود الكبير ـ كما لو كان ذلك بسبب ضربة شمس، بينما كان الوقت ليلاً. لكنهما كانا يسحبان بشدة، كي ينقذا الشبكة ويغادرا المكان. عندئذ، أحاط سرب السردين بالزورق، بإعصار كبير، وزنّرهم كلهم. قال جيرومينيو:

ـ يا أبي، سنعيد رمي الشبكة في الماء، لم يعد لدينا القوة لسحبها بالكامل. ما من مجال لرفعها مع هذه الكمية.

قام جيرومينيو ووالده، وبعد أن تصلّبت جميع عضلاتهما،

بالإمساك بالشبكة ومرراها من تحت المتن. سقطت في المياه، كما لو أنها كانت لوحة خشبية. سمعت لعلعة ضحك. يخيل أن أحدهم كان يتمتع برؤيتهم يفقدون أكثر من مئة باعٍ من الشباك، آخذة معها ألف كيلوغرام من السمك.

ـ ليحمني القديس جوزيه دو ريبامار. قال جيرومينيو.

في تلك اللحظة بالضبط، نهض كيرينتي. اطلقت عيناه حزمتي ضوء، واستطاع رؤية كل لمعان سجادة السردين المفضضة تلك، والتي كانت تغطي المياه. في الأمام، كانت هناك بقعة أخرى، سحيقة، من سمك الأوريتينغاس التي كانت ترفع رؤوسها. لقد كانت من جميع الألوان، كما أن شكلها متناغم، فبدت كما لو أنَّ هناك قائد أوركسترا في قلب الأمواج.

ـ من يجرؤ على الدخول في هذه المياه التي تخصني، مياه مارانياو، التي هي مياه البرتغال، حيث ترتاح روحي، حيث جسدي لا يموت أبداً؟ سأل كيرينتي ثائراً.

تغيَّر شكله؛ إلاَّ أنه سرعان ما عاد كائناً طبيعياً، ليغفو مجدداً في قعر الزورق، مثل نائم متيقظ.

سمك السردين، الآن، لم يعد سردينياً، بل أصبح ضوءاً، شبيهاً بنجوم القديس يوحنا الصغيرة، التي كانت تضيء كل الجرف الرملي في غوارابيرانغا. وكأنه مغطى بمعطف كبير رائع! وكل سطح البحر كان يلمع بنيران لا تحصى. في طرف الليل، هناك، في البعيد، ما بين العتمة وضوء السردين، فوق الهاوية السوداء والكامدة، شاهدوا شعلة ضوء صفراء. لم يساور كريستوريو أدنى شك.

ـ إنه مركب الأموات. ارفع الشراع، جيرومينيو! كيرينتي، استيقظ! إننا نعود.

ـ إلى أين يا أبي؟ سنبقى هنا نعوم مثل فلينة. لا يزال البحر يرتفع، فنحن نواجه الهواء، وما زلنا بعيدين عن ديارنا. لقد اقترب الليل لتوه، قال جيرومينيو، من دون أن يعرف جيداً ماذا يفعل أو يقول.

ـ لا تطرح الأسئلة. أنظر إلى نجمة الصباح، ووجِّه السفينة نحو رأس كوروبو.

فهمت شيتا فيردي الأوامر. بدأت بالارتجاف كإنسان، وكريستوريو، ممسكاً بشدة بدفة المركب، صرخ:

ـ هيا شيتا فيردي، أسرعي، ههنا هو ذا مركب الموت يصل! اسرعي.

كان زورقاً كبيراً. أسود اللون وقرمزياً. كان يبحر وسط أمواج الزبد. ثمة قعر في مقدمه وآخر في مؤخره. كان يلمع كالشمس، وكان معتماً كالليل. النجوم العديدة كانت تبدو كأجنحة تدفعها إلى التقدم عبر ضربات غير مرئية.

سمعوا هذر أناس لم يكونوا سوى عدم:

ينبغي ضخ الماء!

سحب حبل الشراع من «السيفاديير».

وكانت أنوار المصابيح الزيتية المبهمة، ترف عبر كل ثقوب تلك الألواح، حيث أن صريرها كان أشبه بتأوهات:

«من تجرأ إذاً على الدخول

إلى كهوفي السرية

تحت سقوفي السوداء لنهاية العالم!

وأجاب الصوت الآخر، المغمّ، القاسي، الأجش. المتشبث بعجلة القيادة:

«صاحب الجلالة الملك جوان الثاني!»

إنه بحر رؤى. أنوار وأصوات.

«واستدر في ظلمات نهاية العالم،

لتأمر الإرادة التي تكبلني على مقبض الدفة

لجلالته الملك جوان الثاني».

لم يسمع كريستوريو إلا أصوات البحر وضجيجه. المركب يسير مدفوعاً بكل أجنحة الهواء، وحوافيه تصرّ. وفي محيطه رائحة كبش قرنفل.

بدل كريستوريو وجهته وسمع شق الماء وهو يتجوف بعنف غاضب، صادماً جؤجؤ مركبه الهش بقلب الموج.

جاهد كي يبتعد. لكن خيّل إليه أنه سمع هذا النحيب الكئيب:

«دعني! يا قبطان كريستوريو، سأذهب معك».

وانطفأ الصوت.

هبَّت عاصفة هواء فجأة، نفخت الشراع. ثم، وفجأة أيضاً، عاصفة أخرى، بيد أنها كانت هذه المرة، نسيماً من اليابسة. ارتفع الزورق، صدم حبال السارية، وانتصبت الصارية.

شيتا فيردي، المتأرجحة كلياً، بدت كأنها تصعد نحو السماء، عالية جداً كانت الموجة التي ظهرت والتي واجهتها، مغطية قمة

الموجة، في الاتجاه الذي أعطاه إياها الربان. الأمر ذاته حصل في الليل. كان جيرومينيو، الذي انقلب إلى الخارج، يشدّ بكل قوة ذراعيه الحبال التي كانت تسمح للمركب بالتوازن. هكذا، تقدم الزورق والليل إلى الأمام، مخلفان في البعيد النجوم الصغيرة التي، في فم السردين، كانت تبدو كشموع مضاءة في وسط المحيط.

كان الوقت منتصف الليل تقريباً، حين لمحوا هذا الشكل البشري الذي يعوم. خيِّل لهم أنه جسد تائه في البحر.

ـ أهو غريق، هذا الذي هُنا، بالقرب من الزورق، على قمة هذه الموجة؟ سأل كريستوريو.

ـ يبدو أنه كذلك، يا أبي، أجاب جيرومينيو. هل نسحبه نحونا؟

XVI

طلع النهارُ. كان شاطئ كوروبو فارغاً، مقفراً. تتقدم شيتا فيردي بهدوء تحت هواء خفيف وترسو في المرفأ. أنزلوا الأشرعة، وألقوا بالمرساة. نام كريستوريو وجيرومينيو في قعر المركب واستسلما لغفو يكاد يشبه الموت. كان كيرينتي، إلى جانبهما بدون حراك، غارقاً في سُبات، كما هي عادته في ليالي الصيد. لم يعِ شيئاً.

استيقظوا، والشمس قد ارتفعت في السماء وبدأت أوراق النخيل تظلل الأرض على نحوٍ مُفارق لبياض الرمل. لم تكن أعينهم، المعتادة على ضوء الصباح، قابلة لأن تكون مغلقة حتى الوقت المتأخر.

كريستوريو أول من استيقظ. لم يكن جسده سوى ألم في جميع الحركات التي تثير روحه. لقد كان الليل طويلاً، وهو لا يتذكر شيئاً ولا يدري كيف نجحوا في الوصول إلى شاطىء كوروبو. تشوشت جميع الأمور في رأسه: البحر العميق، الأمواج، تمايل المركب، اليد الممسكة بمقبض الدفّة بقوة، نجمة الصباح. بيد أنه

لم يكن، في الواقع، واعياً أحداث هذه الرحلة، لكأنهم كانوا مساقين بقوة عجائبية. إنه يتدكر أن المركب كان يتقدم، وأن قيادته ينقصها الحماس؛ إذ يشرف على كل شيء، فالأمر بالنسبة إليه كمن يشق طريقاً، في وسط دغل، بضربات من الساطور، وذلك بقوة وشجاعة وبدون خوف. لقد كان لشيتا فيردي شيئاً مما لدى الإنسان.

ـ جيرومينيو، صرخ كريستوريو، استيقظ. إن جسدي مطعون بضربات سكين.

ـ ماذا؟ سأل جيرومينيو، خائفاً. واقترب، بقفزة واحدة، ليعاين جسد والده.

كان الجسد سليماً، لا جرح فيه على الاطلاق.

ـ أشعر وكأن شفرة خنجر تخترق جسدي. إن ذلك بسبب العمل هذه الليلة. لقد أنقذتنا أعجوبة كيرينتي ومساعدة المركب. إنه مركب جيد.

ـ ومتين، أضاف جيرومينيو.

ـ إن في ذلك سحراً. أرأيت كيف قادنا. هو من قادنا، جيرومينيو. رغبوا في اللحاق بنا، لست أدري ما إذا كان ذلك بفعل كيرينتي. ثمة العديد من المراكب قد اختفت دون أن يعرف أحد سبب ذلك. هذا ما حدث بالضبط. آه! شيتا فيردي! قال وهو يضرب بيده هيكل المركب. شيتا فيردي.

نزل وراح يتفقّد مركبه، ثم جلس يستريح على الرمل. البحر في انبساط هادىء. موجات صغيرة تتقدم وتموت بهدوء على الشاطىء الرملي. أجال كريستوريو عينيه على المركب كأنما يحاول أن

يسأله رأيه في الليلة التي مرت عليهما. شاهد الجؤجؤ شامخاً. وكان على يقين أنه بفضل الجؤجؤ استطاع المركب بلوغ الشاطىء. لقد شعر نحو مركبه هذا بحب كبير. انحنى على الجؤجؤ وراح يبكي دون أن يدري لماذا. وكانت دموع الصياد الشيخ، المتساقطة على الهيكل، تجري بهدوء: إنه يفكر بأن الجؤجؤ أنقذ حياتهم.

ثم انطلق يتكلم بمفرده:

ـ شيتا فيردي، إن الأشباح لا تخيفك، ولا حتى سفينة الأموات...

غمرته موجة من الحزن، وكأن ريحاً من الأسى تنفخ في أعماقه. إنها انفعالات الإنسان...

قال جيرومينيو لنفسه: «إن الوالد وعقله مضطربان قليلاً». هبط إلى اليابسة وسار باتجاه الغابة. جلس، هناك، واستقرَّ، لفترة طويلة، غارقاً في أفكاره. كان المركب جامداً ينتظر المد. وكان كيرينتي، في القعر، بدون حراك. إن في ذلك سراً لم يحاول كريستوريو النفاذ إليه. هناك شيء ما كان يقول له إن في الأمر مفاجأة يجب ألاّ يثيرها.

نهض كيرينتي، بعد قليل، وقال:

ـ كريستوريو، ها نحن، الآن ، على مقربة من «موجوو». إنني أرغب في البقاء، اليوم، في جزيرة كوروبو، ألعب الورق مع جوليو وبالبونيو، سوف تأخذني لدى مرورك، إلى رحلة الصيد المقبلة.

أجاب كريستوريو وهو على قذرٍ من الارتباك:

ـ اتفقنا، كيرينتي، غداً نعود إلى الصيد.

كان كيرينتي يتجنّب النظر كثيراً إلى الغريق الموجود في أسفل المركب. هل كان يعلم ما إذا كان هذا الرجل، هو أيضاً، أعجوبة أخرى؟ من الأفضل عدم الاهتمام به. ومثلما جاء باستطاعته أن يختفي أيضاً.

*

كانت جزيرة كوروبو مكان لقاء للبحّارة. فهناك كانوا يتوقفون بانتظار المدّ عندما يذهبون إلى أماكن الصيد، وهناك يتزوّدون بالماء العذب وبسائر الحوائج، أو يلجأون في الليل بدل أن يبقوا في عرض البحر يطفون كالأجنحة بانتظار الوقت الذي تُجذب، فيه، الصنارة.

قال كريستوريو، وهو ينظر في السماء، إلى النوارس المهاجرة، لجيرومينيو:

ـ ما الذي نفعله، يا بني؟ لم يسبق لي أن شاهدت «سفينة الأموات». لا شك بأن ذلك مخيف جداً، إن المشهد يخترق أجسادنا كضرب من السحر. هل تظن أنه كان يريد الاصطدام بمركبنا؟

ـ لا، يا أبي، لا. ما نشاهده في البحر لا نتحدث عنه. أنت من علمني ذلك. هذا لا يخص سوانا.

ـ هل تعلم لماذا خلق الله البحر في حين كان باستطاعته أن يجعل الأرض، كلها، يابسة؟

ـ لأن باستطاعته، أيضاً، أن يجعل الأرض، كلها، بحراً، وألا يكون، هناك، يابسة إطلاقاً.

ـ ونحن، عندئذ، كيف يمكننا أن نعيش؟

ـ نكون أسماكاً، يكفي أن تكون هذه إرادة الله. إن الأسماك لا تعرف لا النظر ولا الشعور، ولكن آذانها أرهف من آذان الكلاب.

ـ لن يكون هناك مراكب. أين يمكنها أن ترسو؟

ـ المركب هو البحر. وقد خلق البحر من أجل المركب.

ـ شيء تافه، يا بني. إن أحدهما للآخر. ونحن للاثنين معاً.

ـ أنا أظن أن العالم لم يكن، في زمن ما، سوى بحر.

ـ وهل يأتي وقت لا يكون العالم فيه سوى يابسة؟ وهل سيكون هناك ماء على اليابسة؟ لا، ليس سوى البحر على الأرض. وأنا أريد أن يكون كل شيء بحراً. مياه مالحة لا تأسن أبداً. مياه للأسماك الشبيهة بنا نحن.

ـ كيف يمكن لذلك أن يحدث، يا أبي. لم أفهم شيئاً على الاطلاق. إن الأمور مشوشة تماماً في رأسك.

ـ ربما كان ذلك صحيحاً. ولكن سوف تنبت غابات في البحر، كأشجار المنغروف مثلاً، وسوف تتمايل من جهة لأخرى حسب اتجاه الريح.

ـ ونحن، ما مصيرنا؟

ـ في البحر، في بحر أخضر، بحر مانويل لويس، مع أصداف في القعر، ونجميات البحر، وأحصنة البحر والميرلان التي تسبح، صفراء اللون، بيضاء البطون، دائرة حول نفسها، في صفاء الأعماق.

ـ أجل، سوف نخترق، ذات يوم، هذه الأسرار: كيف يمكننا أخذ أشياء لم تخلق لكي تعطى لنا بالتساوي.

توقف كريستوريو عن الهذيان ليعود إلى أرض الواقع:

ـ ما الذي نفعله، جيرومينيو؟ أعطني رأيك، أنا، رأسي ملتهب. أحياناً، أفكر أن كيرينتي هو من صنع الشيطان، ولكنني أفكر، أحياناً أخرى، بأنه قد يكون روحاً أرسلها القديس يوسف، لكي ترافقنا.

ـ هذا أمر منوط بالله، قال جيرومينيو، الذي تابع: لا شيء، ليس باستطاعتنا أن نفعل شيئاً. لقد وصلنا إلى هذا المكان مع نهاية المد تقريباً، أضعنا الشبكة، وليس باستطاعتنا الذهاب إلى «موجوو» فوراً. إن البحر في حالة جزر.

ـ سوف نرى، بعد قليل، إذا كان بإمكاننا الذهاب لنأكل قطعة لحم عند قناة موجيجايا ونرتاح قليلاً، بعد كل ما جرى هذه الليلة...

في هذه اللحظة بالذات سُمع شخير الغريق الذي التقطوه. شخيرٌ طويل كأنه بقية رقاد رجل ثمل.

*

المدُّ يرتفع ويبلغ مقدمة جزيرة كوروبو قرب نخيل توكوم. كانت لحظة الرحيل تقترب. بقي كيرينتي مكانه غير مبالٍ بأي شيء. وجد كريستوريو أن الأمر جيد هكذا، فانطلق يروي:

ـ إنني أعرف هذه الجزيرة جيداً. جئت مرة إلى مكان يقع في طرفها، تماماً، يدعى «الزاوية»، «لادوراليس» ابنة صياد يدعى كاماليياو اغتصبها هندي خلاسي من غواإيبا ابتنى له كوخاً في

«كاريما». كانت الفتاة في الثانية عشرة، وكانت، في المنزل، بمفردها لأن الجميع ذهبوا إلى الصيد، عندما اقتحم الرجل المكان، وكان اسمه جوزافا. صرخت الفتاة، وقاومت، ولكنه تمكّن منها على نحو يثير في نفس كل مسيحي الرغبة في أن يغدو شرطياً. وصلتُ إلى المكان في الصباح. في أسفل بطن البنت لم يكن هناك سوى جرح، حتى أن الصغيرة المسكينة، لم يكن لديها زغبٌ بعد. كانت ممزَّقة تماماً، ومبقورة في الوسط؛ وكانت والدتها تمسح الجرح بدهن أفعى «الأناكوندا». عندما شاهدتُ ذلك استبدّ بي الغضب حتى أنني قلت للأب: «هل نذهب إلى كوخ هذا المزارع لننتقم منه؟»، وهكذا ذهبنا، أنا وكاماليااو. سرنا قرابة الساعة. لدى اقترابنا من الكوخ، أمسكت بالسكين. بحثنا كل زاوية داخل الكوخ وخارجه فلم نجد أحداً. لم يكن، في المكان، سوى صنانير صيدٍ صدئة، وسريرٍ معلق بغاية القذارة، وموقد للنار بارد الرماد. اقتفيت آثار الأقدام ووجدت أنه ذهب باتجاه الشاطىء، ولكننا لم نجد، عند الشاطىء، أحداً. شاهدنا، في البعيد، رجلاً يسير باتجاهنا، مع قفة معلقة في طرف عصا. صرخت «ها هو صاحبنا. أنت تضربه بالهراوة على رأسه، وأنا أهاجمه بالسكين. أن يفعل مثل هذا الفعل بطفلة، أمر غير معقول».

اقترب الرجل منا، ولكنه كان هرماً. سألته ما إذا كان يعرف جوزافا، أجاب بالإيجاب «أما أين هو الآن ـ فلست أدري» ثم أضاف قائلاً: «بالأمس، كان يصطاد بالشبكة، في البحيرة الشاطئية، بعد انحسار البحر».

عدنا أدراجنا. في المنزل كانت الفتاة تتوجع، والأم تبكي: «إن

رجلاً يقدم على عمل كهذا، لا يستحق أن يغفر الله له!».

في صبيحة اليوم التالي، أقبل بينغا ـ فوغو يطرق الباب ويقول: «كاماليباو، ثمة رجل ميت على الشاطىء». ذهبنا نحن الثلاثة. إنها جثة جوزافا نفسه. جسمه منتفخ، وجهه متورِّم من صدمة الأمواج التي قذفت به على الرمل. عارٍ تماماً، وبطنه منهوش بكامله. ذهبنا نستطلع فوجدنا أن قِرشاً انتزع ثيابه بكاملها، ونصف بطنه.

«إن الشرطة، هنا، هي البحر». قلت ذلك وأنا أعرف ماذا كنت أقول. أجاب كاماليباو: «هذا صحيح: إن للبحر قوانينه». عدنا إلى المنزل، حكى كاماليباو لزوجته الطيبة كل شيء. عندما نظر إلى ابنته وجد أنها كفّت عن البكاء، وقد زال الورم من بين ساقيها، وجفَّ دهن الأفعى. هكذا هي الأمور. نقطة انتهى.

ثم ختم كريستوريو حكايته بقوله:

ـ ليس علينا أن نتساءل كيف حدث ذلك، ولكن الحقيقة هي أن للبحر شرطته.

*

بعد سرد ذكرياته عاد كريستوريو إلى ما ينبغي أن يقوما به الآن:

ـ سنعود إلى ديارنا، جيرومينيو، لا رغبة لديَّ بالصيد. ليس لدينا شبكة صيد، ولا معنى، بالنسبة إليَّ، للصيد بواسطة الصنارة فقط، بعد كل ما جرى؛ ولا سيما مع هذا المركب الهرم الذي نعيده إلى الشاطىء في عملية إنقاذ، والذي يكاد يشبه نوعاً من «الغول الذئبي» المسحور.

ـ حسناً، يا أبي، لننطلق!

ـ شيتا فيردي، صرخ كريستوريو مخاطباً المركب، استعدْ،

سنعود إلى البحر، إنها أعلى حالات المد، الآن، الهدف «موجوو»!

رفعوا المرساة، نشروا الشراع وانطلقوا. سار المركب بزهو، مدفوعاً بريح خفيفة من الوراء، لقطع المسافة دفعة واحدة. بعد ساعتين بات باستطاعتهم مشاهدة مدخل موجوو مع المبنى الصغير وشجرة جوز الهند عند المرفأ. بلغوا الرصيف.

ـ يا للهول! صرخ برتو، تاجر صغير من الجوار، أهذا، فقط، ما ذهبتم تصطادونه؟ هيا، ماذا تقول، يا كريستوريو...

ـ كفى: لا تقل كريستوريو، بل القبطان كريستوريو. هذا ما أريد أن ينادوني به بدءاً من اليوم: القبطان كريستوريو. لقد نلت الشهادة، هذه الليلة، في البحر.

ـ حسناً، اتفقنا، حضرة القبطان كريستوريو. إذهبْ، إذن، واسترخ لأن رأسك يشبه رأس رجل مريض. هكذا يجب أن يكون الكفاح. ولكن السمك؟ أين السمك؟

ـ لا شيء، حتى ولا «تيمبيرا»(*) واحدة. لقد فقدت شبكتي وكل شيء. ولو كان مركبي غير هذا المركب لكنت على لائحة المفقودين. ولكنني أنقذت غريقاً.

ـ ماذا؟

ـ أنقذت غريقاً.

إن الله، وحده، يعرف بأي طريقة سحرية انوجد كيرينتي في المكان، بعدما تركوه في كوروبو. لقد عادا امّا على متن مركب آخر، وامّا بفضل قدراته الذاتية الخارقة. إن الوقت يمر وكيرينتي لا يهرم أبداً. إنه، باستمرار، ذلك الشاب الذي التقوه على

الريسكا، ذات عصر يوم رائع، وفي زمن بعيد بات من الصعب تذكُّره.

ـ ما هو ذلك المخلوق الذي اصطدته، يا كريستوريو؟، سأل كيبرادو.

ـ إنها سمكة «مارو» لها سمات إنسان، أجاب كريستوريو.

ثم ربط المركب بالرصيف.

تقدّم الناس، الموجودون في المكان، من المركب لمشاهدة الغريق. كان هذا الأخير غارقاً في نوم عميق. وهو ذو لحية طويلة، وتعود ثيابه إلى عصر آخر: سروال قصير، جوارب، وقميص فضفاضة ذات كُمين عريضين.

ـ هذا هو الرجل الذي أنقذناه أثناء عاصفة هوجاء، قال كريستوريو، ربّما كان في مركب تعرض للغرق.

ـ أنا لم أشاهد شيئاً، قال كيرينتي، كنت نائماً، وقد بقيت في كوروبو.

أتاح ضوء النهار، الآن، التدقيق، بسهولة أكثر، في الهيئة العامة للغريق المُنقَذ، كما في سماته. اتكأ كيرينتي على الزورق وراح يتأمل الغريق بانتباه والشرر ينطلق من عينيه. ما من أحد فهم هذا التعبير على وجهه، والدال على مفاجأة كبيرة، ولا تلك النار التي أطلقها جسده عندما توصّل إلى معرفة الغريق:

ـ ولكن هذا ديوغو لوبيس باياو!

ـ بارون من؟ سأل كيبرادو.

ـ ليس باروناً، بل باياو. كان معي لدى غرق السفينة الشراعية «سان تومي».

ـ ما هو هذا الغرق السيء، الآخر، أيضاً؟

ـ لا تستطيع أن تفهم، وأنا لا أحب التحدث، إطلاقاً، عن هذه الأمور. لقد غادرنا كوشيم عائدين إلى ليشبونه، واتجهنا إلى جزيرة ديوغو رودريغس لنجتاز رأس الرجاء الصالح. ومنذ إبحارها بدأ الماء يتسرب إلى السفينة عبر السلاسل الحديدية التي تشدّ أجزاءها السفلى، كما أن التزفيت كان رديئاً، وكان القعر، فضلاً عن ذلك، يتهرأ، محترقاً بتأثير الفلفل الهندي الذي تحمله السفينة. هناك العديد من السفن ضاعت بسبب تهرؤ الحشوة الكتانية بين ألواح الخشب. وكان على متن «سان تومي» أكثر من ثلاثمئة شخص: جنود، تجار، نبلاء، رجال دين، وأناس آخرون عائدون إلى البرتغال. وعندما تبيَّن أن السفينة على وشك أن تغرق، سارع الجميع إلى زورق النجاة، عند ذلك قرّر الضباط، بوحشية بربرية، إلقاء عدد من المسافرين في البحر لتخفيف الحمل. وكان أول من ألقي بهم هم العبيد وكان عددهم كبيراً. بعد ذلك اختاروا ديوغو لوبيس باياو وهو شخص ذو سمعة قذرة، تجوّل طويلاً، في بلاد الهند، وشُهر بالهرطقة، وما أن صرخ الجنود به: «أيها الوغد الهرم!» حتى غدوا أسياد مصيره. أما هو فراح يبكي متوسلاً، مسترحماً بعبارات تذيب الحجر، طالباً أن يتركوه ليعود إلى الوطن. ولكن الضباط، بدون أي شعور إنساني، تابعوا مهمتهم والسيوف بأيديهم. وعندما فقد الأمل طلب، راجياً، أن يسمحوا له، قبل إلقائه في البحر، أن يُودِع أحد رجال الدين كيساً صغيراً، مملوءاً بأحجار الماس والياقوت الأزرق[1]، كان معه.

---

(1) السفير.

ـ أيها الأخ نيكولاو، أرجو أن تسلّم هذه الحجارة الكريمة، وهي الثروة التي استطعت جمعها، طيلة حياتي بكثير من الآلام، إلى وكيلي إذا كانت وجهة سيادتك إلى «غوا»، وإما إلى ورثتي في حال تمكنت ثانية، من رؤية «الأرض البرتغالية»، وعند ذلك، وبما أنني كنت موجوداً إلى جانب ديوغو، ظنوا أننا صديقان، فأمسكوا بي. صرخت، متوسلاً ألاّ يُلقوا بي في البحر، ولكنهم، لكونهم أناساً بدون قلب ولا شفقة، ألقوا بي خارج السفينة الصغيرة.

كان كيرينتي ينظر إلى الرجل الشيخ الذي أُنقذ، أثناء العاصفة، بعد غرقه في بحار مارانياو. إنه يتذكّر، بعد قرون، أحوال ذلك اليوم الشهير، عندما أُلقي بهم في البحر من فوق متن السفينة. وكل من حاول أن يتسلق عائداً إلى السفينة، يُضرب بالسيف.

في هذه اللحظة بالذات بدأ يتحوّل. فظهر كل ما كان مسحوراً في كيانه. عينان خضراوان تقذفان الشرر، هيئة مرعبة، الكراهية بادية على وجهه، وسمات شيطان حقيقي، سأل:

ـ ديوغو باياو؟

استيقظ الغريق

ـ من يناديني؟

ـ أنا، الجندي ديوغو سيشاس، من السفينة سان تومي.

ـ أين الأخ نيكولاو مع ماساتي وياقوتي؟

ـ لست أدري. لماذا لحقت بي؟ فبسببك أُلقي بي إلى البحر.

ـ أريد حجارتي الكريمة. لقد اقتلعتُ عيني الأيدالشا لأستولي على مملكته وأعود إلى البرتغال مع ثرواته. أين الأخ نيكولاو الذي أودعته كيس الثروة؟

ـ لا أعرف شيئاً. كيف عشت تلك السنين كلها؟ وكيف وصلت إلى هنا؟

ـ بالجري خلف أحجاري.

لم يكن كريستوريو يفقه شيئاً مما يتحدثان عنه.

وفجأة بدا كيرينتي مرتدياً زِيَّ جندي، إنها الثياب ذاتها التي كان يرتديها لدى لقائهما الأول، وبيده بلطة طويلة المقبض.

ـ ديوغو باياو، لقد متنا بسبب خطاياك وخطايا الذين كانوا على متن سان تومي جميعهم. لقد قتلت العديد من الناس، وسرقت منهم ما لا يعلمه إلا اللّه. لقد فقأت عيني الملك وسرقت الجواهر التي حملها الأخ نيكولاو معه إلى أعماق المحيط.

وفوراً تقدم خطوة إلى الأمام وشقّ صدره قائلاً:

ـ مت، إذن، مرة ثانية.

فتح ديوغو باياو عينيه اللتين كانتا تلمعان كالحجر:

ـ أيها الجندي! سوف أبلِّغ عنك نائب ـ ملك «غوا»، مانويل سوسا كوتينيو ثم اختفى بضربة سحر. وعندما استعاد الحاضرون وعيهم، كان كيرينتي بمفرده، ذاب سهمه في الماء، وتبخرت ثيابه كما لو أنها مصنوعة من الهواء.

ـ أين أصبح الغريق؟ سأل كريستوريو.

ـ إنه يصطحب معه خطاياه، أجاب كيرينتي.

ـ لا أعرف شيئاً. كيف عشت تلك السنين كلها؟ وكيف وصلت إلى هنا؟

ـ بالجري خلف أحجاري.

لم يكن كريستوريو يفقه شيئاً مما يتحدثان عنه.

وفجأة بدا كيرينتي مرتدياً زِيَّ جندي، إنها الثياب ذاتها التي كان يرتديها لدى لقائهما الأول، وبيده بلطة طويلة المقبض.

ـ ديوغو باياو، لقد متنا بسبب خطاياك وخطايا الذين كانوا على متن سان تومي جميعهم. لقد قتلت العديد من الناس، وسرقت منهم ما لا يعلمه إلا اللّه. لقد فقأت عيني الملك وسرقت الجواهر التي حملها الأخ نيكولاو معه إلى أعماق المحيط.

وفوراً تقدم خطوة إلى الأمام وشقّ صدره قائلاً:

ـ مت، إذن، مرة ثانية.

فتح ديوغو باياو عينيه اللتين كانتا تلمعان كالحجر:

ـ أيها الجندي! سوف أبلِّغ عنك نائب ـ ملك «غوا»، مانويل سوسا كوتينيو ثم اختفى بضربة سحر. وعندما استعاد الحاضرون وعيهم، كان كيرينتي بمفرده، ذاب سهمه في الماء، وتبخرت ثيابه كما لو أنها مصنوعة من الهواء.

ـ أين أصبح الغريق؟ سأل كريستوريو.

ـ إنه يصطحب معه خطاياه، أجاب كيرينتي.

XVII

كان كريستوريو وكيرينتي في عرض البحر. إنه يوم هادئ، السماء بزرقة شهر آب. بدون أي غيمة. نستطيع أن نرى تعرُّجات الشاطىء في الجهة الأخرى لخليج سان جوزيه دو ريبامار، والجُزر البعيدة، والطريق المفتوح، الرحب، طريق الأوقيانوس اللامحدود حيث تمتد المياه إلى ما لا نهاية، بدون أرض ولا سماء، بدون جزر، بل البحر والبحر وحده.

كان عليهما أن يذهبا للصيد بعيداً، في نواحي سانتانا، وأبعد من ذلك أيضاً، على مصاطب تابايانا التي تمتد إلى الجرف الرملي في روكان.

بعد مقتل جيرومينيو، لم يعد كريستوريو يعرف شيئاً عن كاريدينو. من حين لآخر، ومرة بعد مرة، ينقلون إليه أنه هرب إلى موجوو ليختبىء في ناحية بريميرا كروز، حيث يملك مركباً، ويواصل عمله كصياد. كان كريستوريو يستمع من دون أن ينبث بكلمة.

في ذلك اليوم كان كيرينتي يروي حماقاته التي لم يفهم منها

شيئاً، إنها حكايات رؤيوية عن العالم الآخر، عن تسكعه وعن البحر.

ـ لقد سبق أن عشت أكثر من حياة واحدة، أيها القبطان كريستوريو. ذات مرة، كنت مبحراً مع جورجي دو البوكيركي، فهاجمتنا، في المحيط، سفينة قرصنة فرنسية. سفينتنا الشراعية كانت سفينة بطيئة مثل غالبية السفن البرتغالية. ولم يكن لدينا لإطلاق النار سوى مدفع قديم ومدفع «كاروناد». بدأوا الهجوم من مؤخر السفينة مسلحين بالخناجر، والسيوف، والمسدسات، والطبنجات، والبلطات، والقربينات. بالكاد استطعنا إطلاق بعض القذائف دون وجود من يحسن التصويب. كانوا، هم، يملكون حتى دروعاً للسيقان ونحن، حتى سفينتنا، لم يكن لديها تروسٌ جانبية. ولكنها العاصفة هي التي أنقذتنا. لقد شاهدت كيف يكون الاقتحام والقرصنة: إنهما منتهى الشر.

لم يكن كريستوريو يولي هذه الحكايات أيَّ انتباه، ولكنه استمر يستمع بأذن واحدة. تابع كيرينتي قائلاً:

ـ لقد تعلمت الاقتحام. إنها معركة تحتاج إلى شجاعة. ومرة أخرى كنا نحن من هاجم كفّاراً، قرب سوماطرة؛ لقد عثرنا عليهم بعدما تِهنا بسبب عناد ربّان سفينة أخرى: «سان باولو». كنت على سطح السفينة عندما شاهدنا، مركباً صغيراً يسمونه، هناك، «زابرا» وعليه زنوج ينقلون أرزاً ودقيقاً. اقتربنا منهم فاستقبلونا بزخةٍ من السهام. ولكننا لم نتراجع بل باشرنا الاقتحام، وأذكر أننا في اللحظة التي قفزنا، فيها، إلى «الزابرا» كان في المقدمة برناردو د فونسيكا وجواو غونسالفس. وكانا من الشجعان ويريدان الذهاب إلى غوا. هاجمنا إذن، وقتل الكفّارُ، بالسلاح الأبيض، عدداً لا

بأس به من جماعتنا، وكانوا يرسمون شارة الصليب على الجميع؟ هل تعرف ما هو ذلك؟

ـ أعرف ما هو الصليب، طبعاً! إنه موجود في الكنائس...

ـ صحيح، ولكن هناك، هو شيء آخر: شارة على شكل الصليب يرسمها الزنوج على أجساد المقتولين، بسكاكينهم. نعم، هكذا هو الأمر. بعد ذلك تمكنّا من التفوق عليهم، وفي الصباح لم يبق منهم سوى خمسة أشخاص. عند ذلك لم يتردد قبطاننا: لم يكن يفكر سوى بالثأر لقتلانا. لم يدع منهم حياً إلاّ الربّان، لكي يقودنا على طول الشواطىء. أما الأربعة الآخرون، فقد قطع رؤوسهم على حافة المركب، بواسطة البلطة، ورماها في البحر.

ـ منتهى الوحشية! هل شاركت، أنت، في ذلك؟

ـ يا للعجب! لم نفعل سوى ما يمليه قانون البحر.

في هذه اللحظة شاهدا، بعيداً، مركباً لون شراعه كستنائي، وشاءت سفينتنا شيتا فيردي الاقتراب منه. شعر كريستوريو، الذي يعرف سفينته جيداً، بالرغبة في هذا الاقتراب. كان يحاول الإبحار بحسب مجرى الرياح، بيد أن السفينة لم تُطعْه، كانت دفّة المركب تقاوم، وهكذا سار المركب باتجاه المركب الآخر. «ما الذي أصاب مركبنا، يا إلّهي» تساءل كريستوريو بينه وبين نفسه، وفجأة تبيَّن له، أنه غدا على مقربة من المركب الآخر الذي كان يعلو ويهبط على الأمواج.

ـ لا يبدو هذا المركب من مراكب ربعنا، قال، أظن أنهم بحّارة من بريميرا كروز.

وأخذ قلبه يخفق بقوة، وإلى درجة جعلته يشعر أنه يضرب

داخل صدره ويقوم بقفزات شبيهة بقفزات حصان جموح.

في المركب الآخر، كان يوجد كاريدينو، ورجل هرم يدير الدفّة، قال كريستوريو محذراً:

ـ كيرينتي! إنه كاريدينو البادي هناك في المركب، وهو الذي قتل جيرومينيو. سنقوم بالاقتحام.

راحت عينا كيرينتي تلمعان:

ـ خنجري، وترسي، وسيفي! ثم صرخ قائلاً: الى سنتياغو.

بدأت شيتا فيردي الهجوم. أدرك بحارة المركب الآخر طبيعة المناورة، وعرف كاريدينو من الذي يهاجمه. وصلت شيتا فيردي إلى محاذاة مركبه فعمل بمهارة على أمل أن يمنع المركب المُهاجِم من صدم مركبه وأن يستطيع صدّه. المركبان يتصادمان الآن، وبتأثير الصدمات العنيفة يلتحمان حيناً ويفترقان حيناً آخر. كان كريستوريو يمسك الدفة بقوة ولا يفكر إلا بشيء واحد: إغراق المركب الآخر.

في إحدى حالات الالتحام، ولمّا كان كيرينتي يمسك ترسه باليد اليمنى وخنجره باليد اليسرى، قفز إلى المركب الآخر وارتمى على كاريدينو وصرعه بلحظة واحدة، وكالمجنون ألقى به على أرض المركب ثم جرّه إلى الحافة، وضع رأسه على الأخشاب وقطعه بالخنجر الذي يمسكه بيده، فبدا الرأس فوق الأمواج طافياً كثمرة الكرنيب. بعد ذلك هجم على الرجل الهرم الذي لم تصدر عنه أي حركة تدل على المقاومة. صفّرت شفرة الخنجر ثانية، وبضربات قوية فصل الرأس عن الجسد. بدا كيرينتي، بنظر كريستوريو المصعوق مما يجري، شيطاناً حقيقياً يقفز من مكان

لآخر. ظهر رأس كاريدينو، الطافي على الأمواج، على سطح الماء، في حين كان رأس الرجل الهرم يتدحرج على أرض المركب الذي كان يعلو على الموج ويهبط وقد بدأ الماء يتسرب إليه. حاول كيرينتي نزع الحشوة الكتانية ليغرقه، ولكن السكين لم تدخل في الشقوق. عند ذلك راح يضرب بالعصا التي تستعمل لقتل الأسماك، فاندفعت الأمواج بعنف وبدأ مستوى الماء يرتفع داخل المركب.

ـ اقترب، يا كريستوريو، أريد العودة إلى المركب، إن الفلفل الهندي يؤدي إلى تعفن الكتّان على نحو أفضل من فعل السكين بالحشوات.

قفز إلى الماء وراح يسبح للعودة إلى شيتا فيردي. لدى وصوله تعلّق بيديه الاثنتين بحافة المركب، وارتفع بقوة ساعديه، وانحنى إلى الأمام لكي ينقلب إلى داخل المركب. عندها فقط تذكر، أنه ترك سكينه في المركب الآخر. ولكن المركب أصبح، الآن، كالميت، إذ امتلأ بالماء، وراح حطامه، المتروك لذاته، يغوص في اللجج. في هذه اللحظة استطاع، أخيراً، أن يرى اسمه: روزا كروز.

لم يقل كريستوريو شيئاً، في حين عاد كيرينتي إلى حالته الطبيعية، وقال:

ـ أين نحن؟ أفي قاع «جوديا» المرتفع، أم أمام «أرض الدخان»؟ يجب أن نطبق عدالة البحر.

قال كريستوريو لنفسه: «هذا بالضبط ما أفكر فيه: إن البحر هو ملكٌ للشيطان».

بدأت طبقة خفيفة من الضباب بالهبوط، في الوقت نفسه الذي تبدو الشمس فيه.

ـ مطر وشمس، سيوكيرنتي: الثعلب يتزوج من الغراب.

لم يبق من الروزا كروز شيء بادٍ للنظر، ليس هناك سوى الأفق المقفر. همهم كريستوريو قائلاً:

ـ يا ابن اللعين! لقد دفعت لي ثمن قتلك جيرومينيو، فاذهب إلى الدركات السفلى من الجحيم.

XVIII

ديوزولين في الثامنة والعشرين، لم تعرف، بعد، طريقها إلى الزواج. إنها بكر ذويها. أمضت سنتين اثنتين في المدرسة لتتعلم القراءة. كانت تقوم بتنظيف السمك، ورتق الشباك، وتذهب إلى أعياد الصبايا. ولكن، منذ هذه السنوات الأخيرة، وبعد ثماني خطوبات فاشلة، بدأت تقلق، على نحو جدي، من بقائها عانساً. لم تكن قبيحة، ولا جميلة أيضاً. عندما تذهب لتستحم في النهر، اعتادت على تفحّص جسدها خلف ركام من القش كان موجوداً هناك: العينان أولاً، ثم تتحسس بيدها تقبُّب الساقين، وانتفاخ أسفل البطن، والنهدين الجامدين بطرفيهما الناتئين، والشعر الناعم المترامي، باتقان، على العنق، والقدمين الكبيرتين.

«هل يعود عدم زواجي إلى قدمي الكبيرتين؟ سألت نفسها، أم أن المسألة مسألة حظ؟ إنني سوية، كفتاة، على نحو جيد: لا بطن بارزاً، ساقان قويتان، «حُق» جميل، ورِكان عريضان، وأخيراً كل ما يعجب الرجل على هذا الصعيد. فلماذا لم أتزوَّج حتى الآن؟».

وكانت تحلم في كوخ القش قرب مكان السباحة، تتلمس، بيديها، جسدها كله، رافعة نهديها إلى أعلى، وهي تنظر إلى نفسها.

في تلك الفترة بالذات دخل «زيه دونغا» إلى حياتها، كان يعمل على مراكب الصيد التي تستخدم الشباك الشبيهة بالأكياس. كان شاباً في مثل عمرها. ذا بشرة بلون القهوة بالحليب، قليل الكلام، وذا نظرة خجول. بدأ الحب أثناء عيد يقام على شرف القديس «غونسالو»، إنه عيد الأنسات الذي يُحتفل به في المنطقة. غزل الشبّان، شبّان ليسوا في عمر المراهقين؛ سبق لهم التعرُّف إلى أشياء الحياة. كانت حالات الحب العابرة، والخطوبات الملغاة، قد زوّدت ديوزولين بشيء من الخبرة. غدت من الآن وصاعداً، أكثر نضجاً، لذلك هي التي بادرت مع زيه دونغا. لم يعد بحاجة لكي يتوسل إليها. فكانت تجرُّه إلى الزوايا المعتمة، تلتصق به ممسكة بيديه، تضع رأسها على كتفه، وعلى مقربة من شفتيه تطرح عليه أسئلة غنجة وهي تضغط بجسدها على جسده. لكنها استمرت عذراء. لا مجال للفتاة، في هذه البلاد، أن تحصل على الزواج إذا لم تكن عذراء. وكانت، في هذه الأيام الأخيرة، تتضرع، كثيراً، إلى الله لكي يحقق لها الزواج. كانت تخاف من عدم حصولها على زوج، ومن بقائها عانساً، بدون أطفال، كإنسان خارج على القانون: قانون الطبيعة الذي يحتم على جميع الكائنات الحية أن تتزاوج. في الليل تبقى مستيقظة، لساعات طويلة، وهي تحلم. تحلم بتلك الأمور التي تجري بين رجل وامرأة. كانت في الخامسة عشرة عندما تملكتها الرغبة، بقوة، ولأول مرة، في الاتحاد بشخص ما. صادف أن فتى يافعاً، من أقربائها، يدعى

أليكساف، جاء لتمضية بضعة أيام في منزل ذويها، وكان يرقد إلى جانبها بعد أن يستغرق الآخرون في النوم. كان يمرِّر يده على جسدها ويرتعش عندما يعلوها، ولكن الأمور لم تذهب بهما أبعد من ذلك، وقد ترك ذلك في نفسها حسرات ورغباتٍ تحتفظ، دائماً، بذكراها. لذلك شعرت بفرح كبير يوم قال زيه دونغا لها بنبرة حازمة:

ـ أريد أن أطلب يدك من والدك.

جملة جافة قيلت ببساطة وعفوية.

ـ لك ذلك عندما تشاء.

ـ في شهر حزيران. في عيد القديس يوحنا.

ـ الزواج، نعم، ولكن أريد أن أكون امرأتك قبل ذلك.

ـ لا مجال لذلك. إنني أعرف ما هو الاحترام. لن أكون، إطلاقاً، عديم الاحترام للقبطان كريستوريو ولمنزله.

ـ لا! قالت ديوزولين بإلحاح، أنا أريد أن أعرفك.

بدأ زيه دونغا يعرَق، وقال إنه لم يكن يتوقع عرضاً من هذا النوع، وبأنه لا يرى كيف يمكنه أن ينتقص من احترامه لعائلة القبطان كريستوريو. انخرطت ديوزولين في البكاء، وأثناء بكائها تركت يدها تقوم باكتشاف جسد رفيقها بكثير من الرقّة والرغبة. وبجسدين ملتصقين راحا يبحثان، في كثافة أشجار العليّق، عن مكان مناسب، كما تفعل طيور الحجل.

عند جذع شجرة «جاكية» تغطي أوراقها الأرض، تمدَّدت وخلعت ملابسها الداخلية. الجذل يملأ أعماقها. ستغدو امرأة وتنجو من اللعنة. ولم يكن جذلها بدافع الرغبة فحسب، بل هو

الفضول، أيضاً، باكتشاف أشياء سبق أن اكتشفتها سائر النساء. إنها الحلم والواقع.

ـ زيه دونغا، تعالَ!

ـ أخاف من أن يأتي أحد ويجدنا هنا. إنك عذراء ولم يسبق لي أن فعلت ذلك مع فتاة عذراء.

ـ تصرَّف على سجيتك، أنا، لست خائفة.

سمعا أصواتاً آتية من الطريق. ابتعد زيه دونغا فوراً وهرب.

وارتدت ديوزولين ثيابها على عجل، أصلحت شعرها، أزالت بقايا القش العالقة بها، أعادت هيأتها العامة إلى حالتها وسلكت الدرب الذي يعيدها إلى المنزل. زيه دونغا اختفى تماماً، مرتجفاً من الخوف، وكان على يقين بأنه شوهد في المكان... أما ديوزولين، الخائبة والمُحبطة، فلم تكن تشعر سوى بالضغينة على حبيبها.

ـ ديوزولين؟ ماذا تفعلين هنا؟

كان الصوتُ صوت كريستوريو.

خرجت من المخبأ، بادية الاضطراب، وقالت:

ـ جئت لأجمع الكاجو والموريسي.

ـ وذلك الشخص الذي ذهب راكضاً، ألم يكن برفقتك.

ـ بلى.

ـ من هو؟

ـ زيه دونغا.

ـ أكان ذلك الخسيس مختبئاً، هناك، معك؟ يا لك من فاجرة.

ـ لكنني لم أفعل شيئاً، إنني دائماً عذراء.

التقط، غاضباً، طرف قضيب وانهال عليها بالضرب. صاحت تطلب النجدة وهي تحاول الهرب ووالدها في أثرها. خرج الناس القاطنين على طول الطريق من منازلهم، مستطلعين:

ـ ما الذي يجري، سيو كريستوريو؟ سألت تودينيا، إحدى الجارات، إنك تنهال بالضرب على ديوزولين كما لو كانت جحشاً.

ـ نعم! إنها فتاة قذرة.

أما ديوزولين فقد استمرت هاربة، داخل أشجار العليق، في حين عاد كريستوريو إلى منزله.

ـ كامبورينا، عندنا عاهرة تحت سقف المنزل. كانت مع زيه دونغا في الغابة.

ـ يجب ألا تُهين البنت دون أن تكون متأكداً، يا كريستوريو. ما هذا الأسلوب الذي تستعمله مع الصغيرة كما لو كانت مومساً؟

كان كريستوريو يرتعش، مغتاظاً، ويردد كلامه دون أن يستطيع السيطرة على نفسه:

ـ إنها عاهرة، وأنا لا أريد وجود عاهرة في منزلي.

*

أقبل الليل. كانت كامبورينا تبكي. لقد بحثت عن ابنتها في كل مكان، في الجوار، دون جدوى. كانت خائفة من أن تكون ابنتها ميتة. أما الأب فلم يقل شيئاً، بل كان يحاول، مغتاظاً، أن يتجاهل تذمر زوجته.

هكذا مرَّ الليل، وأقبل النهار دون أن يخلد أحد إلى النوم. كانت كامبورينا تبكي وتسأل جميع من يمرُّ، قرب المنزل، من الجيران أن يساعدوها في البحث عن ابنتها. ولكن لا خبر إطلاقاً، كما بحثوا عن زيه دونغا فلم يجدوه. لقد اختفى تماماً. وانتشرت الفضيحة في القرية بكاملها، وهكذا دُمغت ديوزولين نهائياً.

ـ لقد سبق وكانا معاً من قبل، كامبورينا، يجب ألاّ نتحدّث عن هذا الأمر. إنها، بالنسبة إليَّ، ابنة ميتة، وللأبد. لقد ألحقت العار بي.

حدَّقت كامبورينا، مباشرة، في عينيه. لم تقل شيئاً، ولكنها قرَّرت، في أعماقها، أمراً: «سأهب نفسي إلى كيرينتي، لقد رغبت، دائماً، في ذلك، ولكنني لم أفعله إطلاقاً. سوف أضاجعه لا لشيء وإنما لكي أري كريستوريو أن هناك من يستطيعون النيل من غروره».

لم تكن كامبورينا سوى دموع، وكذلك سائر أبنائها أيضاً، كانت جيرمانا تشارك شقيقتها في بلواها.

في هذا الصباح بالذات قالت كامبورينا لكيرينتي:

ـ كيرينتي، لا تذهب، اليوم، إلى الصيد. أريد أن تساعدني في البحث عن ديوزولين. ستأتي معي إلى مايوبا. هناك يمكننا أن نتحدّث عن بعض الأمور، نظراً لأن جميع الطرقات، هنا، تؤدي إلى مايوبا، وفتاة مثل ديوزولين لا بدَّ من أن تُشاهد. كما أنه ليس لدينا أيَّ خبر عن زيه دونغا، وكريستوريو يأبى سماع أحد يتحدث عن الموضوع.

ـ حسناً، سأذهب لأقول لكريستوريو بأن هناك شخصاً آخر لمرافقته، غداً، في رحلة الصيد.

وهذا ما فعله.

ـ كريستوريو، قال كيرينتي، أريد، اليوم، البقاء لمساعدة كامبورينا في البحث عن ديوزولين.

ـ لا دخل لك في هذا الأمر!

ـ إنك تمزح، أليس كذلك؟ لقد شاهدت ولادة هؤلاء الأبناء جميعهم.

ـ لقد كانت في حالة عهر كاملة مع هذا الصعلوك، وإذا كان الأمر جدياً فما عليها إلا أن تتزوج. اذهب وتسكّع حيث شئت، أما هذا فلا أقره.

ـ ولكن لكي أساعد كامبورينا.

ـ حسناً، إذهب وساعدها إذا كان ذلك يسرُّك.

ـ غداً، لدى مغادرتك، سأكون حاضراً لكي أساعدك على نقل العتاد إلى المركب.

في الثانية صباحاً، وبالضبط مع ارتفاع المد، حضر كيرينتي لملاقاة كريستوريو. هبطا معاً، إلى موجوو. كان توسيديو، الذي كان في المرفأ حيث ترسو شيتا فيردي، هو البديل عن كيرينتي. نقلوا الشباك، وجرار المياه العذبة، والشراع، وسائر الحاجيات، وانطلقوا. عاد كيرينتي أدراجه، وعلى الرغم من الوقت المتأخر كانت كامبورينا في انتظاره على باب المنزل.

ـ ادخل، كيرينتي، لتشرب القهوة.

ـ ما زال الوقت مبكراً.

ـ بالضبط، ففي هذا الوقت أريد التحدث إليك.

ـ حسناً، تكلمي.

ـ أريدك إن تضاجعني.

كانت المفاجأة قوية إلى درجة شعر كيرينتي، معها، بالاختناق، ووجد صعوبة في التكلم.

ـ ولكن أي رغبة هذه الرغبة، يا إلَهي، ما أن أدار زوجك ظهره حتى رغبت بالطيران.

ـ لست طفلة، إنك تعرف ذلك جيداً، إنني أعرف ماذا أريد، وليس لديّ وقت للانتظار.

جرَّت كيرينتي إلى الدخل، وقادته إلى الغرفة باندفاع لم يكن يتصور إطلاقاً أنه من الممكن أن يسيطر عليها بهذه القوة.

ـ لست قادراً على فعل ذلك كامبورينا.

ـ أما أنا، فبلى.

ـ انتبهي إلى الآخرين، الموجودين في المنزل، فمن المحتمل أن تستيقظ دونا جيرمانا ويستيقظ الجميع.

ـ مهما كان الأمر، لا بد أن يجري الأمر الآن.

كان المكان مظلماً، فالنهار لم يكن قد بدأ تماماً، وبغمضة عين تخلصت كامبورينا من الرداء الذي يغطي جسدها وبدت عارية كلياً. إنها هي التي تسيطر على كيرينتي. أما كيرينتي فقدْ فقدَ وعيه، مكتفياً بإطلاق تنهدات كتلك التي يطلقها وهو على متن المركب. ثم خمد جسده، مات قليلاً قليلاً، ولكي ينتهي أطلق

تنهيدة قوية. وشعرت كامبورينا باللذة نفسها التي شعرت بها مع ابن عمها الذي كان أول رجل عرفته، بعد ذلك كان كريستوريو. ولا أحد غيره. إنها، الآن، مسكونة بالرغبة في الانتقام، رغبة مكبوتة انساقت معها، للمرة الثانية، بين الحقد وبين اكتشاف عالم كانت تظن بأنه قد مات. كان عضو كيرينتي حارقاً بحرارة نفذت إلى كل ذرة في كيانها: كانت تحسّ بهبوب الريح التي تلوي غصون الأشجار، وبرائحة جوز الكاجو المحمَّص. إنه عيد من الأحاسيس والحنين.

كيرينتي في حالة موت.

وعندما بُعث، غادر بهدوء، وفي الخارج راح يلوم نفسه:

ـ ديوغو لوبس، أنت رجل نذل، والجنود الذين ألقوا بك في البحر تصرفوا بعدالة.

كانت كامبورينا سعيدة. بعد ذلك، وعندما كانت طيور «الشيشول» ترفرف بأجنحتها وهي في سريرها المعلّق، أثناء غياب زوجها، كانت تغلق عينيها، وتنتعش بالهواء البارد الناتج عن رفرفة الأجنحة وتستسلم، بين التنهدات والرغبات، إلى نشوة مصاصي الدماء الذين يزورون نساء الصيادين عندما يكون هؤلاء في البحر».



XIX

استأنف كريستوريو القيام برحلات الصيد. كانوا، في المركب، أربعة أشخاص: هو، كيرينتي، أكيموندو وزديغا. كانوا يحملون معهم الكثير من الثلج وعدداً كافياً من الشباك تكفي لغياب طويل. فمن فترة المد وحتى جزيرة كوروبو، ثم الانتظار في عرض البحر، نشرُ الشراع والاتجاه نحو كاراراي، مع ريح شمالية طيبة. وإذا كانت الريح شرقية يتحتم عليهم الذهاب إلى سينامبوتيوا باتجاه مامونا. وإذا كانوا لا يريدون الإبحار في طريق العودة، توجب الإقلاع إلى حقل الصيد في غيمورنا،إلى الجنوب من شاطىء أناجاتوبا. في الشتاء تذهب الأسماك الصغيرة بعيداً، بينما تكثر أسماك الكارانغ والغوريجونا، والميرلان، والأوريتينغا، والقاروس. إنه الوقت الملائم لانتظارها لكسب زيادة قليلة من المال، لأن الريح، في الصيف، تكون عنيفة، والبحر هائجاً، فتذهب الأسماك بعيداً، ولا يكون للصيد مردود يذكر.

ـ هيا بنا! قال زيديغا. أمامنا طريق طويل. شيتا فيردي في حالة حسنة، ومجهزة جيداً. طريقنا معروف ومياه كوروبو مياه عذبة، هناك نملأ الجرار.

ـ في رأيي، أجاب كيرينتي، لا نعرف إطلاقاً، في مثل هذ
الظروف، متى يكون الماء عذباً أو غير عذب؛ الأمر عائد إلى
الصُدَف التي تطرأ. فالماء، معي، يأسن في شتى الأوقات
ونصف الأشخاص الذين يكونون معي على متن المركب يموتو
من الزحار. أنا من يعرف ما هو الماء وليس أنتم.

ـ أنا، على كل حال، لا أشرب الماء كثيراً، قال أكيموندو
ففي الشتاء يسقط، من السماء، القليلُ منه وما يكفي ليبلّ
شفاهي.

ـ أتذكّر ذلك، أضاف كيرينتي.

نُشر الشراع وانسابت شيتا فيردي فوق مياه قناة تيمبوبا
اجتازت باناكواتيرا وتابعت باتجاه كوروبو، ملتقيةً بالعديد م
القوارب.

كان زيديغا رجلاً أسود صُلباً؛ وكان قصيراً وسميناً؛ كبي
الإليتين، ضخم اليدين، رأسه غارق بين كتفيه؛ عندما يشد الحب
ليرفع الشراع يبدو وكأنه القوة صيغت رجلاً. لقد نمّى ذراعـ
وجميع عضلاته بقطعه أشجار الشورى لمصنع أولينْ الذي تُم
مراجله مدينة سان لويس بالطاقة الكهربائية.

ـ لقد قطعت الكثير من أشجار القرام في «جزيرة السلاطعين»
وشاهدت الكثير من الرؤى التي متى تكون ناراً ومتى تكو
«كوراكانغا»(*).

ـ أريد أن أقول لك شيئاً، أجابه كريستوريو، لقد شاهدت
بدوري، الكثير من النيران في عرض البحر، وما أعرفه هو

الـ «كوراكانغا» تظهر وهي تنفخ نفخاً هائلاً، في حين تبقى النار ثابتة لا موجب للركض وراءها.

ـ وجود النار في الماء، هو دائماً إشارة، قال كيرينتي، لست أدري: هل تتذكر، أكيموندو عندما أمر الملك جوان الثالث ببناء خمس سفن شراعية للذهاب إلى الهند، فقد غرقت السفينة سانتا ماريا دا باركا لأن رئيس الأساقفة الذي كان عمَّ صاحب السفن الدون لويس فرنانديس دي ڤاسكونسيلوس، منع إقامة الأعياد التي يحتفل بها صيادو الألفاما، في لشبونة، كل عامٍ، تكريماً لقديس نار البحر.

ـ تأكيداً على ذلك، قال أكيموندو موافقاً، كانت تلك الأعياد تقام تكريماً للقديس بيرو غونسالفيس، حامي رجال البحر، والذي كان يأتي لمساعدتهم في حال الغرق. إذا ظهرت النار في أعلى سارية السفينة فذلك يدل على إبحار آمن، وإذا ظهرت النار في الأسفل يمكننا أن نكون على يقين بأن الغرق سيقع حتماً. وقد شاركت، بنفسي، في زيّاح على نية القديس بيرو باتجاه انشوبريغاس، في ثامن الفصح. عيد كبير وكثير من التقوى والورع. لكن رئيس الأساقفة منع الاحتفال به.

ـ ذات مرة، قال كيرينتي، عندما كنت على متن السفينة سان باولو، قرب شواطىء غينيا، ظهرت النار في أعلى السارية، وبسرعة صعد أحد البحارة إلى المصطبة ليرى ماذا يحدث، واجتمع البحارة على سطح السفينة وهم يصيحون «القديس انسيلم يحرسنا!».

وختم أكيموندو قائلاً:

ـ خارج البرتغال، سان بيرو، هو القديس أنسيلم. وظهور النار في البحار حكاية قديمة تعود إلى بداية الإبحار عند القدماء، المغامرين.

ـ إذن، قال زيديغا، منذ أن أُصبت بالعمى بسبب نار من تلك النيران، كالتي تبدو، الآن، على السارية، وكان ذلك في جزيرة السلاطعين، وبقيت عشرة أيام دون أن أرى شيئاً، أجل، منذ ذلك استطعت أن أدرك ما هي طيبة القلب عند الناس.

ـ ما عند الناس، لا أعرف الكثير عن ذلك، سيد زيديغا، قال كريستوريو، أو بالأحرى أعرف شيئاً. أما بالنسبة للحيوانات والأسماك، فقد شاهدت ذلك، أحياناً. الدلافين، في جرف كانتو، هناك، في منتهى اللطف. تبقى هناك وتقوم برقصاتها اللولبية، لا لشيء، وإنما لكي تُشاهد فحسب.

ثم أضاف:

ـ ولكن هذه الحكاية عن النار التي تحدثتم عنها جميعاً، كيرينتي، ما هي؟

ـ الدلافين، صحيح، هي حيوانات لطيفة. إنها ترقص، طيلة الوقت، وتغطس ونحن ننظر إليها، وأكثر من مرة، في حالة الغرق، تساعدنا في العودة إلى الشاطىء.

ـ ثمة شيء آخر يجب ألاّ نصطاده، قال كريستوريو، ويجب الاّ نخافه. إنه الطائر الذي يأتي ويحطّ على المراكب، وهو، أيضاً، لا يخاف منا، بل يرافقنا. إذا شاء أن يأكل السمك يجب الا نزعجه. لسنا ندري: أهناك مهمة يقوم بها يا ترى؟ أعرف غلاماً اصطاد أحد تلك الطيور، قتله ونتف ريشه، فكان أن أصيب

بالحمّى واستمر ستة شهور وأسنانه تصطك. عندما فتح عينيه لم يشاهد سوى ذلك الطائر الذي كان شبيهاً بالصقر وكان يريد أن يفقأ عيني الغلام بمنقاره. عِقاب سيء، سيد كيرينتي؛ تلكَ حالة من يعيش في البحر. لذلك يجب علينا، هنا، أن ننتبه وألاّ نلمس شيئاً. إذا ظهر لنا شيء، نرى، ثم ننسى.

ـ بالنسبة لي، قال كيرينتي، لا أنظر حتى إلى الغرقى. إنني أنسى فوراً، ولكنني أكلت، غير مرة، من الطيور التي تحطُّ على المراكب حيث أكون مبحراً. ذلك منٌّ سماوي. ومجيء الطيور يبشر بقربنا من اليابسة، أو أنها تكون تائهة في البحر. عندما كنت في السفينة غارسا ذات الصواري الثلاثة، شاهدنا، عدة أيام متتالية، عدداً كبيراً من سنونوات البحر، وعقبانه، والقطارس تحطُّ على السفينة، فكنا نصطادها حتى أنها كانت غذاءنا الوحيد لعدة أيام؛ في عبور البحار، أعداد كبيرة من البشر ماتوا بسبب داء الحفر، والزحار. الماء يأسن، كل شيء يتعفن. فضلات، جرذان وديدان في كل مكان.

قاطعه أكيموندو قائلاً:

ـ لا تحدثني عن ذلك، كيرينتي، فهذه المآسي، جميعها، هي التضحية التي ينبغي على الرجال أن يُلزموا أنفسهم بها لمحاربة الهراطقة وتعريف تلك الأرواح اللعينة، من عرب، وكفّار، وأتراك، بالله. لقد سيطرنا، نحن البرتغاليين، على البحار، وعرفنا لون المياه، واكتشفنا حركة الرياح، والأمطار، والطيور، ونباتات البحر، واخترعنا آلات الإبحار، والخرائط، والأنواع المختلفة من السفن، والفرقاطات، التي ساعدتنا على اكتشاف العالم.

ـ ولكن تلك كانت كارثة، وها أنا مستمر في التجوّل فوق هذه البحار. لم تدركني الشيخوخة، ولا الموت. أما أنت فقد هرمت.

ـ هذا ليس صحيحاً. لقد مِتُّ شيخاً. كنت القبطان ايرس فرناندس، سيو كيرينتي، وأكثر قباطنة الهند شيخوخة. اجتزت رأس الرجاء الصالح أربعاً وثلاثين مرة، وعيّنني الدون قسطنطينو دوبراغانسا لمرافقة جواو رودريغيس دو كارفالو لدى رحلة العودة التي قام بها فرانسيسكو باربيكو، إلى برشلونة.

ـ وأنا أيضاً، قال كيرينتي، قمت بعدة رحلات إلى الهند، وشاهدت قدوم الهولنديين إليها وطردهم إيانا من البحار لأن سفنهم كانت أفضل من سفننا، ولأنهم حصلوا على خرائطنا. لم يبق لنا سوى غوا، مكّاو، وتيمور.

ـ لقد ذهبنا من الأرض ـ الجديدة، في الغرب، إلى ناغازاكي، في الشرق، وكانت اللغة البرتغالية لغة البحّارة، ونحن من اكتشف الكرة الأرضية، من القطب إلى القطب.

ـ حضرة القبطان ايرس فرنانديس، قال كيرينتي، أقدّم نفسي: الجندي القَرَبيني ديوغو دي سيشاس. لنبك معاً المصائب التي حلّت بالبرتغاليين فوق المحيطات.

ـ إنني أبكي ألفونسو دي ألبوكركي مع أسطوله المؤلف من ثمانية عشر مركباً والذي جاء لنجدة مَلَقه. لقد شاهدت السفينة آماكاو السوداء مثل الليل، والسفينة الشراعية سفينة المعاهدة وجوا ـ شوين ـ سين، الأكثر لمعاناً من بورسلين الصين. شاهدتها تبحر إلى اليابان، وعلى متنها كهنتنا المحترمون لينشروا دين المسيح ويتاجروا بالأقمشة الحريرية والتوابل.

هكذا كان أكيموندو يهذي، وأضاف قائلاً:

ـ وإلى هنا جئنا، حاملين لواء المسيح على السفن البرتغالية المثلثة الصواري. حاولنا العثور على الدون سيباستياو، الملك الذي ضاع بفعل السحر، هنا، على شواطىء لنسويز، أرض المارانياو.

ـ لم يبق سوى البرازيل والسكر، مع سفن الزنوج الفظيعة، تلك التجارة التي تعلمناها من الإنكليز، قال كيرينتي الذي اختتم قائلاً:

ـ إن سلاحي لم يستخدم إطلاقاً في مطاردة الزنوج. لا أريد أن أرى سفن الزنوج، إطلاقاً.

شيتا فيردي تمخر المياه. السماء تلتقي بالبحر واليابسة بعيدة جداً. المركب يسير على نحو جيد ويطيع الدفة التي تدار برقة وخفة. الأمور تسير سيراً حسناً عندما يكون كريستوريو هو من يقود المركب. عند ذلك يبدو المركب مرحاً، يدخل الموجة ويخرج منها، في حين يقذف الجؤجؤ الزبد والماء في جميع الاتجاهات. ولمّا كان المركب أكثر استدارة، فإنه يتأرجح وينساب على نحو أفضل يرقص ذات اليمين وذات الشمال متلقياً دفقات من الماء ما يستوجب إفراغه باستمرار. في نهاية فترة بعد الظهر، مروا على مقربة من رأس الإيتاأونا قبالة جزيرة دي باكاس، باتجاه جزيرة السلاطعين.

ـ يجب أن نلقي المرساة من جهة اليابسة: لا يمكننا النوم فوق جزيرة السلاطعين خوفاً من ظهور الرؤى. إنها منطقة تكثر فيها الأرواح الهائمة.

ـ كذلك لا يمكننا أن نمضي الليل في القنال، إن ذلك خطر جداً. هناك الكثير من الأشباح الضائعة التي لا عمل لها سوى اللهو مع الليل. هناك أكثر من صياد لقوا حتفهم في هذه الأماكن.

قرر كريستوريو، إذن، أن يرسو عند مصب نهر الآورا، وأن يترك انحسار المد يجري هناك، لكي يذهب، في الصباح، للصيد في جزيرة السلاطعين. ألقوا المرساة مع هبوط الليل، أعدوا حساء سمك وناموا.

ـ لقد كان النهار طويلاً، ولم يكن البحر سيئاً. فقد هدأت الريح.

كريستوريو كان غافياً. إنه يشخر وهو ملتفٌّ على ذاته في قعر المركب، قرب الكوثل، تاركاً الليل يمضي حتى شروق الشمس. ما من أحد كان يعرف أن زيديغا يدخن عشب «الديامبا»(*)، مرَّت نسمة عطرة صغيرة، ذلك أنه كان يعبُّ الدخان عند الجؤجؤ.

ـ قل لي يا صديقي، لم أكن أعرف أنك كنت عشيق ابنة العجوز زامبا، قال كيرينتي.

ـ ذلك لكي أحتمي من البرد فقط.

بعد ذلك بقليل تمدَّد هو أيضاً؛ الليل يجري، ليل دامس. المدُّ ينحسر. الرجال الأربعة في رقاد عميق بسبب التعب. هواء الليل ينساب بهدوء، رائحة الطين، بعد الجزْرِ، تأتي من بعيد، أشجار الشورى تتمايل على الشاطىء. مع انحسار المد أصبحت شيتا فيردي على اليابسة.

ـ النجدة! يا ربَّ السماء!

مثل هذه الصرخة، في وسط الليل، جابت خليج سان ماركوس

بكامله وتردد صداها في الجهات الأربع.

ـ ما الذي يجري؟ سأل كيرنتي مرعوباً.

فتح كريستوريو عينيه.

ـ زيه دو كاسكو!

ـ زيه دو كاسكو؟

ـ نعم، أنظر إليه، هناك.

بدا في مقدمة المركب شكل قاتم، إنه شيء أسود، شديد السواد، ذو ظهر لمَّاع، نصفه ظل ونصفه كائن إنساني.

ـ من هناك؟ صرخ كيرينتي.

الشكل يختفي.

ـ كاد هذا اللعين أن يمسك بي لو لم أتصرَّف بسرعة. لقد ألقيت بنفسي إلى قعر المركب ورحت أصرخ بقوة. كان قريباً جداً مني.

زيه دو كاسكو هو الزنجي ـ الشبح الذي يزعج الصيادين محاولاً اغتصابهم. إنها الرذيلة التي لازمته في حياته: بعد قتله بطعنات سكين أثناء رحلة صيد، راح يظهر من جديد ليمارس تلك الرذيلة، وقد وقع العديد من الصيادين ضحاياه.

ـ إنك محظوظ، يا صديقي. ما من أحد يستطيع الإفلات من زيه دو كاسكو هذا. ولكن ما كنت أجهله أنه يستطيع الظهور في هذا المكان، وليس، فقط، في خليج سان جوزيه دو ريبامار، قال كريستوريو.

في البعيد، في خليج سان ماركوس، كانت تعبر سفينة مضاءة.



XX

لقد مرَّت سنوات وسنوات وشيتا فيردي هو، دائماً، مركبه. فهو، بالنسبة لكريستوريو، يُعتبر جزءاً من وجوده، إنه يعرف كل جوانبه. وقد عاش، برفقته، الكثير من الأيام والتجارب! وبرفقته مخر العديد من البحار، في الليل كما في النهار! أما الذكرى الأكثر إزعاجاً هي تلك العائدة إلى جزيرة السلاطعين. كانوا ثلاثة رجال على المركب: كريسانتو، كريسانتينو، وهو. كان يتوجب عليهم الذهاب لقطع أشجار الشوري لبيعها إلى فيليبينيو في سان لويس. لأن الصيد كان سيئاً، فالرياح تهبُّ باستمرار وكان البحر، بالخصوص، صعباً.

وليس في جزيرة السلاطعين قرود، ولا الراكون آكل السلاطعين، وإنما هناك طيور فحسب: أنواع مختلفة من الطيور. ينامون هناك، مطمئنين إلى عدم وجود أحد من البشر يزعجهم، لأن للجزيرة شهرة خاصة بها: غرائبها العجيبة. لذلك هي، بنظر الجميع، جزيرة خطِرة، من الأفضل ألاَّ يستسلم المرء فيها إلى النوم طويلاً، وأن يتجنب المس بالحيوانات؛ وغالباً ما تظهر فيها الأشباح؛ عديدون هم الصيادون الذين لقوا فيها حتفهم. وبما أن

كريستوريو يعرف ذلك فقد أرسى شيتا فيردي، لدى وصولهم في بداية المساء، في جهة كاجابيو، قرب اليابسة. عزم الرجال الثلاثة على تمضية الليل. وهذا المكان معروف جيداً من الصيادين. وبالفعل، وجدوا أربعة مراكب، أو خمسة، لبحّارة يصطادون القريدس، يخيِّمون، يشوون اللحم، ثم ينطلقون في الصباح إلى جزيرة السلاطعين، وهي جزيرة غنية بالأسماك وثمار البحر؛ ولكن، ببساطة، يجب عدم النوم فيها.

أرسوا المركب في قناة قريبة. كريسانتو وكريسانتينو رقدا فوراً، في حين بقي كريستوريو يجتر أفكاره: «إن جيرمانا، كامرأة، أفضل من كامبورينا، وهي قليلاً ما تُشاهد، ولكن مع مرور الأيام غدوت أكثر تعلّقاً بنمط حياتها. والولدان اللذان أنجبتهما منها أصبحا رجلين جدِّيين ونشيطين في العمل، وهما دائماً يكنان الاحترام لي. أجل إن مانويل ومانويل جواو، شخصان رائعان. ذهبا إلى المدينة، وعملهما، فيها، مضمون. عندما يأتيان إلى المنزل يحملان الهدايا، دائماً لوالدتهما. ولكن جيرمانا ليست امرأة ثرثارة، بل إنها، الآن، أقل ثرثرة عمّا كانت عليه من قبل. طلبت مني، قبل أيام، أن أعود إلى غوارابيرا. ما زلت أذكر رائحة زيت الكابائير الذي وضعته كامبورينا بين ساقيْ جيرمانا، ليلة عرسي. لم تقل سوى جملة واحدة: «سيد كريستوريو، لا تخبر أحداً بأني نمت معك». ولكن، بعد ذلك، وعندما بان عليها الحمْلُ، لم يعد هناك مجال للتستُّر، ولم يعد الناس يجدون حرجاً في القول: «إن كريستوريو مثل طير الكاسيك لا بدَّ له من أنثيين في العش».

ولكنه وفى بالوعد الذي قطعه لها، فلم يقل بأنه ضاجعها. سوف يعرف الآخرون بذلك على نحو ما، ولكن الأمر لم يخرج

من بين شفتيه. إن كريستوريو رجل يرتبط بكلامه. وعندما بدأ بطنها يظهر للعيان، قالت له كامبورينا:

ـ لقد وجدت طريقك على نحو جيد.

لم يجب كريستوريو، فتابعت تقول بإلحاح:

ـ ولكنني أحب جيرمانا كثيراً، فكأنما هي أنا؛ وأحياناً أفكر بأننا، نحن الاثنتين، امرأة واحدة.

هذه الجملة الأخيرة لا تفارق رأسه أبداً.

هو يتذكّر جيداً ما جرى ذات صباح، ومنذ زمن بعيد جداً. كان الوقت مُبْكراً عندما استيقظ من نومه، ارتدى سروالاً قصيراً وغادر الغرفة. خرج إلى الحديقة ليرتاح تحت أشجار النخيل؛ لدى عودته كانت جيرمانا في المطبخ توقد النار. قبيل سنتين كانت قد حضرت برفقة شقيقتها كامبورينا ولم تغادر المكان إطلاقاً، كما أنها لم تعرف حياةً غير حياة المنزل. وكان كريستوريو لا يكفّ عن تأمّلها، فتخفض من نظرها دون أن تجرؤ على النظر إليه.

ـ صباح الخير جيرمانا.

ـ صباح الخير، سيد كريستوريو.

ـ جيرمانا، إنني لا أتوقف عن التفكير، منذ وجودك هنا، بأنه ينبغي أن تكوني، أنت أيضاً زوجتي.

ـ ولكنني كنت، كذلك، من قبل.

ـ هل أنت آسفة؟

ـ لا، لا، سيد كريستوريو، كان ذلك قدري.

ـ بالنسبة إليّ، لم يكن الأمر مسألة قَدَرٍ فحسب. إنني مرتبط بك أكثر من ارتباطي بكامبورينا.

ـ لا تقل ذلك، سيد كريستوريو، وإلا أغادر المكان.

ـ ولكنني أقوله صراحة. هذا هو طبعي. عندما أكون في المركب لا أتوقف في منتصف الطريق. يجب أن تكوني لي.

ـ لقد سبق وكنت لك، سيد كريستوريو، وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً دون أن أخبر شقيقتي به.

ـ لا بأس! قولي لها، جيرمانا، وقولي لها ما قلته لك.

ذهب كريستوريو يجمع معداته استعداداً للإبحار، ثم عاد لتناول القهوة، أدخل يده في شعر شقيقة زوجته.

ـ رائحتك كرائحة البخور.

*

ويتذكَّر، أيضاً، عندما ذهب، في إحدى الأمسيات، ينظر إلى الحقيبة التي تحتوي ثيابه: سروال الصيد القصير، قمصان العمل، والسترة التي يرتديها للذهاب إلى مدينة ريبامار أيام عيد شفيع البحَّارة، والآحاد، والأعياد. صعدت إلى أنفه رائحة الثياب النظيفة، ورائحة الباتشولي.

ـ من الذي غسل ثيابي، يا كامبورينا.

ـ إنها جيرمانا.

بقي حالماً لفترة قصيرة، ثم توجّه، مباشرة، إلى شقيقة زوجته التي كانت منهمكة في غسل الأواني في المطبخ.

ـ جيرمانا، إن رائحة عطرك أطيب، بكثير، من رائحة الغسيل.

اكتفت جيرمانا بخفض بصرها؛ في حين كان الليل يطبق على الكون. بعد ذلك علم بما جرى بين الشقيقتين. فقد ذهبت جيرمانا تقول لشقيقتها:

ـ اسمعي يا كامبورينا، يجب أن أقول لك شيئاً. إنك تعلمين جيداً بأنني لا أقدم على أي عمل، مهما كان، من خلف ظهرك، لقد طلب السيد كريستوريو أن أنام معه.

ـ لقد سبق وفعل ذلك.

ـ هذا ما قلته له.

ـ حسناً، إذا كان الأمر يرضيك، إفعلي ذلك. المرة الأولى كانت لإرضائي، والآن دورك.

ـ أنا أتمنى ذلك، نعم، ولكن إذا كان الأمر يزعجك، قولي لي، وسأغادر؛ ولكن لا أستطيع أن أدعه دون أن يحقق رغبته: أنا بقولي: لا، وأنت دون أن تعرفي شيئاً. لا أريد أن أتصرف، معك، على هذا النحو.

ـ لا تهتمي لذلك، يا شقيقتي الصغيرة، فنحن، الاثنتين، كنا دائماً شخصاً واحداً. وإذا كان كريستوريو رجُلي، فهو رجلُك أيضاً.

ـ ومع ذلك، أأنت متأكدة أن الأمر لا يؤذيك.

ـ إطلاقاً، وأقولها بصراحة.

في تلك الليلة، عاد كريستوريو من الصيد في وقت متأخر. ذهب يغتسل من بئر الحديقة، وينظر إلى النجوم، عاد إلى المطبخ وأشعل النار. كانت سمكة «الأوريتينغا»، البيضاء اللحم في الطنجرة، معدّة للطبخ مع توابعها: بندورة، ثوم، أعشاب مطيّبة.

أضاف الملح، وضع الطنجرة فوق النار، أخذ سيكارة، أشعلها، وانتظر حتى ينضج الطعام؛ ثم فتح كيس طحين المانيوت، وأخذ منه مقدار ثلاث قبضات وضعها في مقلاة سوداء ومحدودبة لكثرة ما استعملت. رفع غطاء الطنجرة وأخذ منها قدْراً من الحساء الحار لكي يعدَّ عجينة سميكة، وبدأ يأكل، قطعة من هنا، قطعة من هناك، ثم الرأس، إنه يحب أن يمص رأس السمكة. تناول عشاءه ببطء. كان المنزل غارقاً، كلُّه، في الصمت. الولدان الأولان كانا نائمين، وكذلك الصغيرة فاريزينا المولودة حديثاً. غسل يديه، وانتقل إلى الغرفة.

ـ كامبورينا، هذا أنا.

ـ أعرف، كريستوريو، لقد سمعتك تدخل.

تمدَّد في السرير المعلق حيث هي. داعب صدرها وحاول رفع قميصها.

ـ كريستوريو، لقد وَلَدْتُ منذ فترة قصيرة، ربَّما آذاني ذلك وسبب لي التهابات.

ـ لقد مضى شهر على الولادة، لا خطر من المضاجعة. الفرس تذهب بعد أسبوع واحد إلى فحلها. إنها الطبيعة. ليس سوى الإنسان من يحمل مثل هذه الأفكار.

ـ لا، يا كريستوريو. ليس الأمر كما تقول، لم تمرَّ عليَّ، بعد، الأربعون يوماً، فاذهب لتنام مع جيرمانا؟

ـ ماذا تقولين؟

ـ لقد أخبرتني بكل شيء، وإنني موافقة، إننا امرأتان، ولكن في امرأة واحدة، وقد سبق لها أن نامت معك.

نهض كريستوريو، طبع قبلة على جبين كامبورينا وذهب إلى غرفة جيرمانا.

كانت جيرمانا نائمة. حرَّك قدميها، وسألت وسط الظلام:

ـ كامبورينا؟

ـ لا، هذا أنا، كريستوريو.

ـ سيو كريستوريو؟

ـ نعم.

ـ يا إلّهي! ماذا جئت تفعل هنا؟

ـ إنك تعرفين جيداً، كامبورينا، نفسها، أرسلتني إليك.

ـ لقدقلت ذلك عَرَضاً، ولكني لا أجرؤ.

ـ جيرمانا، في تلك الليلة كنت كأنني أبحر على مركب لم يكن مركبي. أما اليوم فأريد الإبحار بواسطة شبكة جديدة، ومجذاف أعيد دهنه، وشراع لازوردي اللون، في مركب كنت دائماً أرغب أن أذهب للصيد على متنه.

ـ لا تلمسني، سيد كريستوريو.

ولكن يديه كانتا قد بدأتا بمداعبة الجسد الغض ذي النهدين الصلبين مع طرفيهما البارزين، والساقين المحجوبين بالظلمة الدامسة، وبدأ البحر ينشق ببطء، والأمواج تكبُر شيئاً فشيئاً. بحر هائج، كل شيء يرقص فوقه، من الروح إلى جميع أطراف الجسد. رائحة شجيرات المارغيريت، المزروعة تحت النافذة، تملأ الغرفة.

ـ سيو كريستوريو، منذ سنتين، وما من عمل لي سوى التفكير

بتلك الليلة التي غدوت فيها امرأة دون أن أكونها، واليوم أريد منك أن تداعبني على النحو الذي لم تداعبني به يومذاك. خُذني كريستوريو، خذني بقوة. أنا وشقيقتي معاً.

عند ذلك بات باستطاعة يديْ كريستوريو أن تشعرا بنعومة شعرها، بصلابة جلدها الوردي وكأنه يحاول، بطرف أنامله، أن يقبض على النسيم. الليل يتقدَّم ولم ينتهِ إلا في اللحظة التي أتاح، فيها، النور الوليد مشاهدة استدارة الوركين الشابين، ولون تلك الفراشة، ذات الأجنحة السوداء، التي تطير، ثابتة، بقوة الرغبات جميعها. مرعى غضّ، عش بريش خفيف، وعشب زُغبي...

لم يقل كريستوريو إلى اللقاء:

ـ غداً، انتظريني عند مدّ الليل. إنه مدّ شهر آب، وهو مدٌّ كبير، وهلال جديد.

كم وكم من الليالي كان يعود إليها في سريرها، في التحام جسدي يعادل حياةً بكاملها؟والآن، بعد سنين طويلة، تستبد تلك الذكريات بعقله. إنه يفكر بالواجبات المترتبة عليه تجاه شقيقة زوجته التي نذرت وجودها، كلَّه، إلى عائلة واحدة. وكان يفكر على النحو التالي:

ـ أفكّر ببناء منزل خاص بجيرمانا قرب منزلنا. إنها قديسة، ولكن إذا مِتُّ لست أدري: هل تريد الاستمرار بالعيش في الفوضى الناتجة عن الأبناء والأحفاد. إن المرأة ترغب، في شيخوختها، بالهدوء. وهي لم تقدم لي، طيلة حياتي، سوى الانشراح. ما من مرة رفضت شيئاً، أو طلبت شيئاً، أو طرحت سؤالاً. لقد كانت امرأتي دون أن تكونها، وكانت لي أكثر مما

كانت كامبورينا. إن جيرمانا إنسان يختلف عن الآخرين. عندما وضعت مولودها الأول، سألتني: «سيو كريستوريو، ماذا نسميه، أجبتها: مانويل، قالت: حسناً، ثم أضافت قائلة: كامبورينا، أعطني الطفل لكي أرضعه». يجب أن يكون لجيرمانا منزل خاص بها. ولكن هل تقبل كامبورينا بذلك؟ فهما لم تفترقا أبداً، ومن الصباح إلى المساء كان شغلها الوحيد توجيه الأوامر إلى شقيقتها: «حضّري القهوة، رتّبي السرير، نظفي فناء المنزل...»، وفي المساء: «أعدّي السري، ضعي النفط في المصابيح». وعندما كانت أكثر شباباً، ذهبت إلى غوارابيرا لزيارة ذويها برفقة كامبورينا. غياب كامبورينا لا يعني لي شيئاً؛ ولكن جيرمانا، كنت شديد القلق بشأنها: «لن تبقي، هناك، مدة طويلة، أليس كذلك؟ ـ سوف أعود مع كامبورينا ـ على كل حال إذا أرادت البقاء طويلاً، فأنت يجب أن تعودي، إنك تعرفين أن المنزل أكثر حاجة إليك منها».

هذا ما كان يفكر كريستوريو به، والساعات كانت تمر. ضوء الهلال الوليد كان ينعكس على مياه القناة. رفيقاه كانا قد بدآ الشخير وهما غارقان في نوم عميق. أما هو فبقي يقظاً. في هذه اللحظة شاهد راهباً واقفاً في مقدمة المركب، كان الراهب يرتدي جلباباً أسود، وكان طويلاً وضعيفاً، وكان انعكاس النور المنبعث من الهلال يتيح مشاهدة وجهه ذي اللون الأصفر الباهت والزيتي.

ـ كريسانتينو، صاح كريستوريو، استيقظ.

شدّه من شعره القريب من متناول يده.

ـ أنظر، هناك!

كريسانتينو، الذي كان لا يزال تحت وطأة النوم، فتح عينيه.

ـ أنظر، إنه راهب على الجؤجؤ!

ـ راهب؟، أين هو الراهب؟

ـ هناك، أنظر، إنه لا يتحرك، إنه ينظر إلينا.

ـ لا حاجة بي إلى راهب، لقد عُمِّدْتُ من قبل.

ـ لا تتكلم بصوت مرتفع؛ كريسانتينو، استيقظ، أنظر إلى الراهب. كريسانتينو.

ـ ما هذا الذي تحكيه عن وجود راهب؟

كان ذلك بعد منتصف الليل بقليل. سُمعت ضجة حيث أشجار المنغروف، كأن الأمر وكأن شجرة ضخمة انقلبت فاتحةً ثغرة في ما يحيط بها من نبات كثيف. قفز كريستوريو ظاناً أنه غدا خارج المركب.

ـ لو أن الشجرة سقطت على المركب لأغرقته وقتلتنا، قال كريسانتينو.

كانت قريبة جداً، وبالنظر للصوت الصادر عن سقوطها فإنها شجرة هائلة الحجم.

لم تبدُ من الراهب أيُّ حركة، بل استمر على وضعه الأول.

ـ لا يوجد، هنا، من يحتاج إلى عمادة، فانصرف...

في هذه اللحظة بالذات أطلق صيحة مدوية:

ـ أيّ! رأسي! إنه يؤلمني كثيراً! إنه ينفجر! النجدة، قال كريستوريو.

ـ هذا لأنك سخرت من هذا الراهب، قال كريسانتينو، ثم أضاف، أما أنا فلم أسخر، أنظر، لست خائفاً.

ما أن نطق بهذه الكلمات حتى أخذ يصرخ، بدوره:

ـ أيّ، كريستوريو! النجدة، رأسي، أنا أيضاً، يكاد ينفجر!

ثم ارتمى في عمق شيتا فيردي. المركب يتراقص. كريستوريو يعرف مركبه جيداً: إنه يحاول أن يقول له شيئاً. الراهب يختفي. سار كريستوريو إلى مقدمة المركب، رفع المرساة وراح يجذف لكي يبعد المركب عن المكان، فلم يستطع ذلك وتملكه الرعب. كان رفيقاه ممدَّدَيْن في عمق المركب، ولم يدرك ما الذي جرى. لم يبق أمامه سوى انتظار الفجر ليرى ما الذي حدث لرفيقيه.

عندما أضاءت الشمس على نحو كافٍ تمكَّن كريستوريو من مشاهدة كريسانتو وكريسانتينو. لقد كانا، حسب ما يبدو ميِّتَيْن. توجّه نحو أشجار المنغروف حيث سمع صوت وقوع الشجرة ولكنه لم يجد شيئاً مرتمياً على الأرض. إنه سرٌّ بالغ الغموض.

أمسك بالمجذاف وسبح باتجاه مصب النهر وراح يصرخ لجذب انتباه رجال المخيم. ولكن بدون جدوى، استمر يجذف حتى شوهد أخيراً. طلب المساعدة، أقبل قارب كبير واقترب منه، القارب يحمل اسم باتابانكا، من منطقة كاكيرا، في مضيق الموسكيتوس.

ـ ماذا يجري؟

ـ رفيقاي ماتا... بسبب رؤيا.

ـ ماذا؟

ـ إنهما هنا، وأنا لست أدري ماذا أفعل.

ـ هولا، أيها الرفيق! أخبرنا عن ذلك بوضوح.

كان ركاب القارب ينظرون إليه نظرات مشكِّكة.

ـ ما الحكاية؟ هل أنت جاد؟

ـ إنه شبح راهب، لقد ظهر، هناك، على المركب، وقد سخرا منه بقولهم: ليس على المركب من يحتاج للعمادة. وفي اللحظة ذاتها التي ألحق، فيها، بهما، ألماً مبرّحاً، قضيا نحبهما وهما يطلبان المساعدة.

ـ حسناً، ما هو اسمك؟ كريستوريو؟ إذن، اسمع، كريستوريو: اذهب إلى المدينة وقابلْ الشرطة. رجلان يموتان على قاربك هو أمر يتعلق، في النهاية، بالشرطة.

ـ لا، إطلاقاً!

ـ أنت المسؤول في هذه القضية برمّتها، أما نحن فلن نلقي بالجثتين إلى البحر لكي تقدم طعاماً للأسماك، ما نفعله هو نقل الجثتين وتسليمها إلى الشرطة، والشرطة تعرف ماذا تفعل.

ـ يبدو أنكم تظنون بأني متهم بشيء ما، أليس كذلك؟ إنني شخص معروف جداً: القبطان كريستوريو، إنسان شريف.

ـ ليس الموضوع هنا. يجب أن تذهب إلى الشرطة لشرح الأمر.

كان كريستوريو في حالة ذهول. نظر إلى جثتيْ رفيقيه، كان الاثنان فاغريْ الفم، أغلق فميْهما، أما عيناهما فكانتا متورمتين، ولكن مغلقتان.

*

ـ إذن ماذا عن هذين الميتين؟

ـ هكذا كما ترون...

وراح كريستوريو يروي حكاية الراهب وما نتج عن ذلك. سأله المفوض:

ـ هو الراهب الذي قتلهما، إذن؟

ـ لا، بل السحر!

ـ أيُّ سحر؟

ـ لست أدري.

ـ خذوا الرجل إلى الزنزانة، وأرسلا الجثتين إلى برّاد المستشفى ليرى الأطباء ما الذي أدى إلى موتهما.

قاد رجال الشرطة كريستوريو إلى الزنزانة، دخل وجلس على الأرض. كان في الزنزانة سجينان آخران: سارق خيول، وشاب أقدم على قتل زوجته طعناً بالسكين.

ـ ماذا فعلت؟ سأل سارق الخيول؟

ـ لا شيء، أجاب كريستوريو. ذهبت لأجمع الخشب من المنغروف، ورفيقاي في المركب ماتا.

ـ هل تسخر منا أيها العجوز؟ لقد قتلتهما، أليس كذلك؟

ـ أنا؟ ولماذا أقتلهما؟ أنا لا أقتل سوى الأسماك.

ـ إذن، كيف ماتا؟

ـ على يد الراهب.

ـ على يد الراهب؟ وذلك الراهب، ألم يأتوا به إلى هنا؟

ـ كان شبحاً.

ـ الشبح لا يقتل أحداً، لا تبدو حكايتك حكاية معقولة.

لم يستطيع كريستوريو النوم. في الخامسة صباحاً جاء المفوض، قاده إلى الردحة الداخلية وقال له:

ـ إخلع ثيابك.

نفَّذ كريستوريو الأمر. عند ذلك أخذ المفوض سطلاً وقال يهدّده:

ـ اعترف بما فعلته برفيقيك وإلا ستنال دُشّاً بارداً.

إنع الأسلوب المعتمد، عادة، في الاستجواب، فمع الماء البارد، في الصباح الباكر، جميع المتهمين يعترفون.

ـ اسمع، يا سيدي، لم أفعل شيئاً.

ألقي الماء البارد على جسده، فكرَّر القول وأسنانه تصطك:

ـ لم أقتل أحداً. بل هو الراهب.

ـ كيف فعل الراهب ذلك؟

ولعدم حصوله على اعتراف، أطلق المفوض الأفاعي والتماسيح، فُتحت الصناديق وانتشرت الزحّافات في الردهة. لقد كانت في الأسر منذ مدة طويلة، وكانت معتادة على مثل هذا الاحتفال الذي لا يفاجئها أبداً.

ـ هذا النوع من التماسيح لا يأكل إلا خصيتيْ السجين، وبما أن لديك خصيتين كبيرتين، وإذا لم تتكلم فستحصل على وليمة شهية!

فكر كريستوريو: «في أيِّ مغطس لِعين أجد نفسي!» ولكنه لم يخف. ركع، وهو عارٍ تماماً، قرب الجدار!

ـ حضرة المفوض، لم أقتل أحداً، أنا القبطان كريستوريو، أنا إنسان شريف والمفوض، بدوره، لم يكن مستعداً لتحمُّل مزيد من الانزعاج، لذلك وضع حداً للتمثيلية، قائلاً:

ـ بإمكانك ارتداء ملابسك، سنرى ماذا يقول الطبيب بيدرو نيفا رئيس الأطباء الذين عاينوا الجثتين من قبل.

«يبدو أنه لاحظ لي مع هذا العمل في الغابات، فكّر كريستوريو. إنه المرة الثانية التي يجافيني الحظ فيها، أما المرة الأولى فكانت، يا إلّهي، حادثة غرق».

كان يتذكّر رحلة أخرى حيث ذهبوا لقطع أشجار الشورى. انطلقوا من مرفأ بوفان، وكان ربُّ العمل رجلاً من أراساغي يدعى بيتيبو.

حين ذهبوا كان المركب فارغاً: لقد ألقوا الأثقال التي تحفظ التوازن في البحر؛ في طريق العودة كان المركب ممتلئاً بالخشب، وكان اسمه كوستيرا. كان الوقت يقارب العاشرة، ليلاً، عندما مروا بالقرب من باكيراو، وكان مع المدِّ، الكثير من التيارات المائية. فجأة، سمعوا، في قلب الظلمة، صوتاً ضعيفاً يطلب النجدة.

ـ ثمة من يغرق.

ـ هنا، يجب أن ننتبه.

كان الرجل قرب المركب.

ـ ارمِ له حبلاً، يا كريستوريو.

رميتُ الحبل، أمسك به، في الظلمة الحالكة، شخص ما وتشبَّث به.

ـ تمسَّك جيداً، سنرفعك.

ـ إجلب الشراع، بايشينيو لكي نوقف المركب، فنستطيع التقاطه.

كان الرجل الذي أنقذوه أسودَ البشرة وفي حوالي الستين، كما أنه كان عارياً. رفعوه إلى سطح المركب. إنه قَدرُ الصياد: حيث نجد، باستمرار، من يغرق، أو نجد من ينقذنا في حال تعرضنا نحن للغرق».

ـ لقد وقعت في الماء أثناء المد، بعد الظهر، فحملني معه حتى تاوا ريدوندو، والآن، خلال الليل، أعادني إلى هنا، أنا ورفيقي بيرينييرو الذي لست أدري أين هو الآن. كنا نصطاد في مكان قريب من جزيرة الصخرة، فجرفنا التيار معه، ولم نستطع فعل شيء لأن مركبنا كان قد انقلب.

ـ سنعطيه سروالاً يكتسي به، وقهوة قوية، قال كريستوريو.

كان الزنجي يرتجف من شدة البرد، وكان وجهه متورِّماً لكثرة ما تلقى من صفعات الموج.

«ولكن الضربة القاسية كانت لدى بلوغنا سان لويس: ففي مصنع أولين وضعنا الخشب على الأرض، ثم أجرينا الحساب مع الوكيل لكي نحصل على مالنا في الصباح، وذهبنا نعيد الزنجي إلى بيته. وعندما بدأنا بالعودة سمعناه يصرخ:

ـ أيتها القذرة! سأقتلك!

لقد وجد زوجته في أحضان رجل آخر هرب، لدى انكشافه، من الباب الأمامي منطلقاً، كالسهم، والرجل الغريق يركض في إثره وهو يحمل هراوة. طلع الصبح. هربت المرأة بدورها، وهكذا غدا المسكين الذي أنقذناه بدون ثياب وبدون زوجة. فعاد معنا إلى المركب.

لا حظَّ لي في تجارة الخشب، لن أعود إليها إطلاقاً، ختم كريستوريو ذكرياته. لقد حاولت ولكن بدون جدوى».

*

كان كريستوريو يتذكر، في زنزانته، تلك المغامرة، وبعد عشرة أيام من الاحتجاز، أُطلق سراحه. ذلك أن معاينة الجثتين لم تكشف عن أمر مشبوه. ولا أثر للعنف: لقد مات الصيادان بسبب احتقان في الدماغ. لدى مغادرته، سأله المفوض أيضاً:

ـ هل لديك شيء تضيفه؟ هذان الرجلان ماتا بسبب انتشار الدم في الرأس.

ـ إنه الراهب.

ـ ما هي حكاية الراهب، هذه، يا رجل؟ لقد أدخلت هذه الحكاية في رأسك، ولا سبيل لإخراجها.

طيلة سنوات عديدة، بقي، هناك، أناس يرددون لدى مشاهدة كريستوريو:

ـ ها هو الرجل الذي قتل رفيقيه في الصيد.

ولكن، مع الزمن، نُسي الأمر نهائياً.

لدى عودته إلى موجوو، قالت كامبورينا له:

ـ لقد تركت ماريا دو ساو المنزل، وهربت مع أرميندو.

ـ وأنت، ألم تركضي في إثرها.

ـ للحقيقة، ذهبت لكي أقدم الشكوى في مخفر الشرطة في باسو دو لوميار. سوف تتزوج في الأسبوع المقبل، وهي، حالياً، عند والد أرميندو.

ـ لا أريد أن أراها أبداً.

ـ هذا مجرد كلام، كريستوريو، ألم تقم بخطفي أنا وجيرمانا؟ لقد فعلت ما تفعله سائر الفتيات هنا. تحدثت معها: لقد كانت حاملاً، وقبل أن يتبيَّن ذلك على نحو واضح، خطفها لكي يتزوجها فوراً.

دخل كريستوريو إلى غرفته. في إحدى الزوايا كانت باتِستا التي توفيت منذ فترة طويلة، تبدو، بيضاء كضوء القمر، وكانت عيناها الكبيرتان مفتوحتين جيداً.

ـ يا أبي، دعْ ماريا دو ساو بسلام. بالنسبة إليَّ كان الأمر أكثر سوءاً: لقد بقيت طفلة صغيرة إلى الأبد.

يبدو لكريستوريو وكأن ابنته مصنوعة من الهواء. إنه يذكر نعشها الأبيض، المحمول بالتبادل، من قبل الأطفال الذين يرافقون الأطفال الموتى إلى مثواهم الأخير، في هذه المناطق الساحلية. ولدى دفن طفل لا نبكي أبداً، إذ أنهم، هنا، يولدون لكي يموتوا.

ـ هل استطعت مشاهدة جيرومينيو، يا صغيرتي؟

ـ إنه في منطقة سان فرنسيسكو قرب بحيرة جانسن، وهو يساعد العصافير بتقديم الطعام لها.

دخلت كامبورينا إلى الغرفة، فاختفت باتِستا.

ـ بماذا تثرثر وأنت منتصب في وسط الغرفة بوجهك الشاحب؟

ـ أثرثر مع باتِستا.

ـ لا، إنك مجنون فعلاً، هل أفقدوك عقلك في السجن؟

ثم دخلت جيرمانا بدورها:

ـ سيو كريستوريو، ما الذي حدث لك؟ لقد انتابني الكثير من الوساوس. لم أعرف النوم منذ ثمانية أيام، ولكنني كنت على يقين بأن السيدة العذراء ستعيدك إلى المنزل.

تدحرجت دمعتان على وجهه الذابل.



XXI

بعد مرور أيام قليلة على مغادرته السجن، عاد كريستوريو إلى البحر ودعا كيرينتي وأكيموندو إلى مرافقته:

ـ لنذهب إلى البحر المحيط. أسبوع من الصيد. نترك الشراع يمتلىء بالهواء، والمركب يجري، وبذلك أستعيد ما فقدته في السجن.

أقلعوا. بدأت شيتا فيردي تهرم. يجب تجديد الحشوات الكتانية، دورياً، وكل بضعة أشهر. آثار الزمن ظاهرة بوضوح على الجوانب، والمقاعد الخشبية غدت هرمة، هي أيضاً، بتأثير الماء المالح والشمس. لم يعد ذلك المركب الذي كانه بالأمس حيث كان يضحك، متحمساً، من جميع ظروف البحر والريح.

ما زال كيرينتي على حاله. إنه يحتفظ بأعوامه الخمسة والعشرين، وكريستوريو الذي كان أكثر شباباً منه يوم التقاه على الريسكا، قد أصبح الآن هرِماً وتعِباً.

كذلك استمر أكيموندو هرِماً: لحية بيضاء طويلة، وجه مبقّع وأجعد يشبه جلد العِظاية.

اجتازا الجرف. كان البحر هائجاً؛ إنه شهر آب، شهرُ حالات المدّ الكبيرة، خلال السنة، التي تجعل القمر كبيراً أيضاً. لم تعد اليابسة بمتناول أنظارهم. لا شيء سوى رحابة عالم البحار. وكانت شيتا فيردي تنحرف عن مسارها، من حين لآخر، بسبب قوة الرياح. الرجال الثلاثة يعيشون متعة المياه. وعندما بدأ الليل يخيم، قام أكيموندو، الذي استمر وفياً لعادات رجال البحر القديمة، بإعداد مكان النوم:

ـ كريستوريو سينام أولاً، وأنا بعده، ثم كيرينتي، وبذلك ننتهي مع الفجر.

لم يعترض أحد.

ـ كريستوريو، قال كيرينتي، في يوم ما، سأبحر على متن أول سفينة تظهر. أريد العودة إلى بحار الهند. أريد، من جديد، مشاهدة جاوا المذهبة وأسوار ذيو. لا رغبة لي في العودة إلى البرتغال، أنا برتغالي من عالم لوزيتاني[1] لقد اشتغلت في مافرا يوم كان الملك جوان الخامس يحوّل ذهب البرازيل إلى جدران للأديرة.

ـ وأنا أيضاً. لم أترك العالم البرتغالي. لقد عشت في عصر الإبحار المحفوف بالمخاطر، وأنام، وأنا أحلم باستعادة مَلَقة من الهولنديين، قال أكيموندو.

ـ إنكما تستمران، كلاكما، في سرد الحماقات. هيا إلى الصيد، أيها الأصدقاء.

(1) اللوزيتانيون: البرتغاليون القدماء الأصليون.

ـ لست أدري من أين كانت تمرُّ سفن الزمن القديم، قال أكيموندو. ألا تريد أن تأتي معنا، كريستوريو، لنجتاز رأس الرجاء الصالح ونبحر إلى سيلان؟

ـ ما هذا الذي تقوله؟ أن نذهب من هنا؟ أنا لا أترك مارانياو إطلاقاً. إذا كان في روحي بعض الزهو فستبقى هنا إلى الأبد. ما من مكان في العالم يتوافر فيه هذا الهواء اللازوردي، وهذه الأرض الغنية.

شيتا فيردي تتقدم، والليل يتقدم. كيرينتي على بينابو، وأكيموندو جالس على مقعد السارية.

بدأت الأنوار تظهر تدريجاً. أنوار معزولة، في البداية، مثل مصابيح مضاءة في الظلمة، ثم تلتقي بعد ذلك لتشكل حبلاً طويلاً جداً حتى لكأنه بدون نهاية. كريستوريو لا يخاف من هذه الرؤى. كان ذلك بحراً من المراكب في وسط المياه. ثم هذه سفينة «كرافيل» تنفصل عن الأخريات وتقترب، جميع أشرعتها في الخارج، وكذلك شراع إضافي منشور. شيتا فيردي تشق البحر بسرعة.

باتت السفينة «الكرافيل» قريبة من المركب، وأصبح من السهل قراءة اسمها: فيتوريا. الاتفاق على المسافة بين سفينة وأخرى يبدو منسياً. كريستوريو أيقظ أكيموندو. بما أن هذا الأخير يعرف كل شيء، يريد أن يستخبر منه عن هوية هذه السفينة. سأله:

ـ ماذا تسمّى هذه السفينة؟

ـ قلت لك من قبل، إنها فيتوريا. إنها السفينة الوحيدة الباقية من بعثة ماجيلّان. ماجيلّان مات في جزيرة ماكتان، في الفيليبين،

فتابع ألكانو، وهو بحار معروف من الجميع، الرحلة. وبعد مضي ثلاث سنوات عاد، أخيراً، إلى خليج سان لوكار، مع ستة رجال فقط. لقد قطع قرابة عشرين ألف عقدة حول الأرض، وأثبت بذلك أنها كروية. كانت السفينة في حالة يرثى لها: على متنها جميع الآلام، جميع الأمراض، وفتور شبيه بالموت.

ـ إنها سفينة أزلية، قال كيرينتي، وأضاف: تلك الجثة المصلوبة على الجؤجؤ هي جثة مندوزا الذي امتنع عن متابعة الرحلة بسبب الخوف، فقتله ماجيلّان، وقطع رأس كيسادا المتحالف معه، وترك جثتيهما معروضتين ليرهب البحارة ويحتاط من التمرد.

كان البحر عامراً بالأضواء الشاحبة. ثمة مركب آخر يمكن مشاهدة أضوائه؛ إنه كارثة بأشرعته السوداء، حيث تُسمع منه التأوّهات الناتجة عن صرير السلاسل، وصفير السود. وقف أكيموندو وصرخ قائلاً:

ـ ها هو القرف الذي تعلمناه من الإنكليز: عذابات السود، تجارة الأنفُس، سفينة التعاسة، مركب الزنوج. إنه عار البحر. الرائحة الكريهة التي تنبعث منه هي رائحة خبث البشر. مراكبنا كانت زهو البحار، وملكنا الدون مانويل كان أول ملك في أوروبا يمتلك الفِيَلة: خمسة ذكور وأنثى واحدة. وقد أهدى واحداً منها إلى البابا ليون العاشر.

عبر موكب الزنوج، متنهداً، كأن خطاياه لن تغفر، في الآخرة، إطلاقاً.

ظهرت سفينة «كرافيل» أخرى. سفينة صغيرة. فوق الجؤجؤ شيخ أبيض الشعر، يحيط عينيه بكفيه محاولاً مشاهدة اللانهاية في

الفضاء. على سيماه يظهر تعبير عن الجنون وعن الرغبة. إنه ذاهب ليُخصب النساء الهنديات في العالم الجديد ثم يطلب، في الآخرة، من ملوك اسبانيا، الأجر لقاء اكتشافاته.

ـ إنه كريستوف كولومبس، فريسة إصراره على اكتشاف طريق الهند من الغرب، قال أكيموندو.

استمر تتابع الأضواء. الليل والبحر عامران بالظلال، بالمشاعل، بالمصابيح وبالفوانيس الزرقاء التي لا تكف عن التقاطع. جآجئ تنتصب، أشرعة منفوخة بالهواء تصفر، كما نستطيع أن نستمع إلى تأوهاتٍ وزمجراتٍ صادرة عن الغيلان وعن البشر. على مسافة قريبة بدا أسطول من ست وعشرين قطعة بحرية، وعلى متن سفينة القيادة رجل بلباس بالغ الفخامة مع سيف معلق في حزامه.

ـ إنه الأسطول الذي يقوده فرنسيس دْراك، وهو ذاهب لتدمير قرطجنة. لقد أمضى هذا الرجل حياته مبحراً على جميع المحيطات. مات في البحر. جسده في قاع المياه. لقد أطلق قذيفة مدفع لنسف برج كاتدرائية قرطجنة في الهند لأنهم وصفوه بالقرصان، قال أكيموندو.

ـ ولكنه كان قرصاناً، بالفعل، قال كيرينتي مؤكداً.

ـ قرصان كان، أيضاً، اللورد كوكران الذي نهب سان لويس دي مارانياو، الذي نهب الجواهر والمال، أضاف أكيموندو.

ثم تابع قائلاً:

ـ في إثرها، أتت، أيضاً، سفن أخرى؛ أنظر، يا كيرينتي، تلك السفن ليست متكرّشة كالكراكات البرتغالية، بل رفيعة وسريعة. إنها

سفن هولندية. ها هما جونزون وتاسمان، رجال قساة أبحروا على جميع بحار الكرة الأرضية ودمَّروا المستعمرات البرتغالية. لم يتوقفوا عن النهب والتدمير، كما جابوا البحار الجليدية. مراكبهم هي أيضاً متجلدة، ورائحة أشرعتهم هي رائحة الحيتان الميتة.

والأشباح تتوالى، وكان أكيموندو منفعلاً، ينظر في شتى الجهات ليحاول معرفة تلك المراكب السحرية.

ـ ها هي سفينة داميه التي بلغت استراليا، تابع اكيموندو، مسكونةً بروح الاكتشاف؛ روح القرصان. على مقربة منها سفينة ستوريون للأميرال الإنكليزي آنسون، الذي باستطاعته أن يرى أين تذهب الأرض.

ـ كيرينتي أنظر هناك لينديافور، إنه جايمس كوك الذي رفض مشاركة آلهة هاواي في طعامهم، وانتهى مقتولاً بأيدي السكان المحليين. ولكن ها هي سفينته وعلى متنها رسامون وعلماء طبيعيات. إنه يبحر في جميع الاتجاهات، من آلاسكا إلى كاب هورن، باحثاً عن المحيط الجنوبي.

وأضاف بفرح ظاهر:

ـ تلك الفرقاطة الأخرى تأتي من عمق البحر، إنها سفينة الفرنسي لابيروز التي لم يستطع أحد، حتى هذا اليوم، العثور عليها. اسمها لابوسول[1]. لقد غرقت، دون أن يُعرف أين، وكيف.

كان البحر ليلاً من الأضواء. آلاف السفن تجري في الظلمة.

---

(1) البوصلة.

البحر روح لجميع البحارة، وكذلك الحنين إلى المرافىء؛ الدُّوار الناتج عن العواصف، حوادث الغرق والرغبة في عدم العودة. جميع السفن تعبر. وفي الأفق الرحب ثمة شراع أيضاً.

ـ ها قد وصل «البحار الكبير»، أعظم بحّار في العالم بأسره. ڤاسكو دي غاما! وماجيلّان كان، أيضاً، برتغالياً؛ لقد سرق جميع الخرائط البحرية والمعدات التي كانت لنا. إنه عالم لا وجود لأيّ إنسان يعيش فيه؛ الاستماع إلى الغيلان التي تحرس المحيطات وإخضاعها، اقتحام أبواب جهنم، والرياح، والعواصف.

انخرط أكيموندو في البكاء، ثم نهض وبدا كأنه يصعد نحو السماء. لحية بيضاء ووجه مضاء، في ذلك الليل، بأعين كل ما في البحر من تنانين. ارتفع على أصابع قدميه، رفع ذراعه وصرخ:

ـ لك السلام، أيها العظيم ڤاسكو دي غاما.

السفينة تعبر؛ على طرفها الأمامي، كإلّه من الآلهة، وتحت الشراع المثلّث، ثمة شيخ ذو لحية مقصوصة على شكل عِقْد. يرتدي قبعة داكنة اللون ذات أطراف مربعة، مع الأوسمة وعصا القيادة، ومجسم الكرة الأرضية على يده. وعلى مقربة منه الطفل الملوكي الدون هنري، بقبعته السوداء، وإيشارب ملقى على كتفه، والدونا جوانا والقديس ڤانسنت.

ـ أنظر، قال كيرينتي، روعة هذه المراكب مع البحارة. أريد العودة إلى هناك، واكتشاف مغامرات جديدة، وبلاد جديدة. لقد تركت حبيبة في كوشان، إنها فتاة هندية ذات شعر طويل وعينين كعيني الظبي.

*

إن كيرينتي هو الذي حقَّق الاكتشاف الأهم. لاحت في البعيد البعيد سفينة، مهيبة، هادئة، ذات أشرعة ثلاثة، وهيكل أسود، وزينات من مختلف الألوان. على الجؤجؤ ثلاثة رسوم للتنين الشرقي. أما القصر فبالغ العلو، يتألف من خمس طبقات، مع قناطر خشبية مفتوحة على البحر؛ وعلى الأطراف أعمدة طويلة محفورة، أما سارية المصطبة الأمامية فمذهبة يعلوها الصليب. إنها «سفينة المعاهدة»، وكان قبطانها جالساً في مقصورة الجؤجؤ، ظهره إلى البحر، نظره مسدَّد إلى الشراع الرئيس، يحتذي صندالاً أبيض، مع جوارب سوداء، ويرتدي معطفاً من الحرير مزيناً برسوم الأزهار والتنانين، وسروالاً فضفاضاً، وقميصاً ذات كُمّين مغضنين وصدرية من الساتان الأحمر. بعض البحارة ينعشونه بمراوح كبيرة في قصر الكوثل، وهو بخمس طبقات أيضاً، كما يوجد على متنها رجال دين وتجار. السفينة تنقل قطعاً فضية، وأواني صينية، وأنواعاً شتى من الحرير، وهي ذاهبة لتنصير الشعوب والبحث عن التوابل والمعادن الثمينة. وعلى متنها، بالذات، حوّل القديس فرنسوا اكزافييه مياه البحر إلى مياه عذبة.

ولكن ما من سفينة في المحيط أجمل من «سفينة الختم الأحمر لشهر آب» و«الأماكاو» التي تبحر في عالم الخلود. لقد كانت نوراً وليست بنور. إنها مذهبة ومفضضة. أشرعتها من الحرير ورجال طاقمها يرتدون الساتان؛ وهي لا تبحر بل تنتقل مرفوعة بقوة الإرادة وحدها... إنها حلم البحر.

ـ ها قد جاء يومنا، كيرينتي! صرخ أكيموندو. إنها «الأماكاو».

ـ لنصعد إلى متنها ونختلط بأفراد طاقمها. سنجتاز رأس الرجاء الصالح، ونعبر مضيق ملقة، ونبحر في بحر ماكاو، والصين،

واليابان حتى ناغازاكي.

كانا يهذيان، ثم ألقيا بنفسيهما في البحر وغابا في ظلمات الأمواج ليظهرا، بعد ذلك، على مصطبة «الآماكاو» مرتديين الذهب والفضة.

*

تمدَّد كريستوريو في عمق المركب وغفا. لم يستيقظ إلاّ بعد ثمانية أيام وفي أثناء الليل. في عرض البحر ثمة سفينة تعبر، هادئة وحزينة، إنها سفينة دون سيبستيان الذي يظهر، أحياناً، على شواطىء مارانياو. وكان قد اختفى، بتأثير حادث سحري، على شاطىء لينسويز، وفي أيام الجمعة التي يكون القمر فيها بدراً يترك الساحل الرملي المتلألىء بالأحجار الكريمة ويركب قارباً، وهو على هيئة ثور، ليبحر ويغدو مرئياً. هذا شيء يعرفه كريستوريو؛ ثم سمع صوته:

ما أهمية القتال، والحرب والفقر

إذا كان الإيمان بالله أنقذني؟

وفي ليالي شهر كانون الثاني جميع الطبول المكدَّسة في مارانياو تُقرع في أماكن العبادة لتذكّر بأسطورة الملك المسحور:

ها هو القديس سيبستيان، ها هو القديس سيبستيان

ملك محارب، في أعماق البحر

سيبستيان، يا قديسي سيبستيان

إذا أوقفت السحر في لينسويز،

فإنه سوف ينتهي في مارانياو

عاد كريستوريو إلى النوم. إنه يحلم بالموتى، باتِستا، جيرومينيو، باسيو، ڤالنتيم. بعد ذلك استيقظ. ها هو في مصب قناة تيمبوبا. شيتا فيردي تقود نفسها بنفسها. ألقى شبكته، وأغرق شيئاً فشيئاً، وبهدوء، قطع الرصاص التي تثقل الأطراف حتى لم يبق ظاهراً للعيان سوى الأربطة التي يمسك بها بقوة. باستطاعته أن يعلم، كالكثيرين غيره، وزن السمك العالق في الشبكة، وبواسطة الاهتزازات يعلم، قبل أن يرى شيئاً، نوعه وحجمه. وعندما أصبح وزن الشبكة ثقيلاً، بدأ يسحب، فشعر بشيء غير طبيعي، كأن الشبكة عالقة. فكّر بأن الأمر عائد إلى تقدمه في السن الذي أوهن قواه، ولكنه استمر في السحب. الثقل يزداد «ماذا يمكن أن يكون نوع هذه السمكة، يا إلَهي؟» تساءل. جذب الشبكة ببطء لكي يجعلها تنقلب إلى داخل المركب، كما هي العادة في مثل هذه الحال؛ استمر برفعها، وهو يضرب عليها لكي يسيل الماء منها وتسقط القذارات العالقة بها ومن ثم يلتقط الأسماك. لقد كانت المفاجأة: ليس في الشبكة سمكة واحدة. لا شيء سوى شيء كروي كان يلمع مثل النار.

ـ ما هذا الذي التقطته يا ترى؟

حاول الإمساك بذلك الشيء فوجده ثقيلاً كالرصاص. بذل جهده لسحبه دون جدوى، فانتبه، حينئذ، إلى أن الكرة عالقة بشعر مختلِط بالوحل والملح.

ـ يا لله، أهذه هي السعادة التي أحلم بالحصول عليها، من الصيد، قبل أن أموت؟

منحته تلك الفكرة بعض القوة ليعالج الشبكة، ويفك العُقد

بيده، كما كان يفعل ذلك طيلة حياته. ثم أخذ الشيء بيديه الاثنتين ورفعه. تراجع خطوة إلى الوراء، وكاد يقع على ظهره في المركب. قرّب اللقيا الغريبة من وجهه، فتح عينيه جيداً، وتراجع مرة ثانية مذهولاً. العينان مفتوحتان، الشفتان مقلوبتان، بيضاوان من الملح البحري وتكشفان عن الأسنان التي كانت تلمع. ولكن ما كان يسيل منه، ليس الماء، وإنما الدم الذي بدأ يجري على ذراعي كريستوريو:

ـ أيها البائس، يا قاتل ابني، عد إلى أعماق البحر.

رمى بالرأس إلى أبعد مدى ممكن، وشاهده يطفو على الأمواج التي تدور متتابعة لترسم أشكالاً حلزونية على الرمل، ومن عينيه ينبعث، أيضاً، الحقد القديم الذي لم يضعف مع الزمن.

صرخ قائلاً:

ـ كريدينو؟ عشْ، لكي تموت مرة ثانية.

ودون أن ينتظر، أخذ الشبكة مع قطعها من الرصاص وألقى بها إلى البحر:

ـ شبكة عفنة تأتي بالقذارات القديمة...

سقط مغمياً عليه، في المركب، ونام؛ لم يستعد وعيه إلا عندما سمع صوتاً يناديه. كان في مرفأ موجوو، داخل المركب الذي وصل إلى المكان مثل شبح.

ـ أيها القبطان كريستوريو؟

ـ هل أنا حي؟ سأل.

قال له كيبرادو بأن الجميع يعتقدون بأنه مات في البحر. شراع شيتا فيردي ممزق، والهيكل مشوّه، والدفّة مخلوعة.

ـ أين ذهب كيرينتي وأكيموندو؟

ـ ذهبا إلى «سفينة الختم الأحمر لشهر آب» التي تسمّى، أيضاً «آماكاو».

ـ لقد فقد رشده تماماً، تمتم كيبرادو.

استعاد كريستوريو وعيه، التقط المجذاف، وضعه على كتفه، وتوجّه نحو منزله:

ـ في أي يوم نحن، يا كيبرادو؟

ـ أول أحد من الصوم، أيها القبطان كريستوريو.

ـ قبطان، أجل. البحر هو الذي أنعم عليَّ بهذا اللقب.

XXII

ـ أيها القبطان كريستوريو! صرخ بلبوينو. صرخة يأس كررها عدة مرات: أيها القبطان كريستوريو! أيها القبطان كريستوريو! أيها القبطان كريستوريو!..

الليل مخيم. الساعة تجاوزت الحادية عشرة والسكون مسيطر، صحراء تبدأ بالأشجار وتلتحق بالزمن.

ـ أيها القبطان كريستوريو!

ـ من يناديني؟ أجاب متسائلاً من داخل المنزل.

ـ تعال بسرعة... مصيبة كبيرة!

نهض كريستوريو، ثملاً من النعاس، ارتدى ثيابه وفتح الباب وسأل:

ـ ماذا يجري؟

ظهر بلبوينو، متأثراً، والكلمات تتعثر في فمه، وبالكاد استطاع أن يتمتم:

ـ النار في الزورق!

ـ أي نار؟ وأي زورق؟

ـ تعال بسرعة، أيها القبطان، لا يستطيع أحد غيرك أن يفعل شيئاً. إنه أمر لا يُفهم منه شيء.

لم يفهم كريستوريو عما يتكلم وسأل مجدداً:

ـ لكن، بالله عليك، عن أي زورق تتكلم، وما هي تلك النار اللعينة التي لم تستطيعوا إخمادها، لكي تأتوا وتوقظوني في هذه الساعة من الليل؟

ـ ألا تعرف ما يحصل في هذه اللحظة في موجوو، أيها القبطان؟

ـ حسناً، قل لي يا بلبوينو! أخرج اللسان من فمك، وقل ما عندك.

ـ أيها القبطان كريستوريو، الشيتا فيردي.

ـ أضرموا النار فيها؟ من فعل ذلك؟

ـ كلا، أيها القبطان، إنه بالأحرى من خدع الطبيعة التي لا يعرف أحد كيف تحصل.

ـ أوقف سخافاتك، بلبوينو. أخبرني كما يجب.

ـ جيد، لقد أيقظنا البرق جميعنا. زيه بياندو هو من طلب مني أن آتي إلى هنا بسرعة لكي أبلغك. كما لو أن الزورق يطلب حضورك.

ـ كيف هذا «يطلب حضوري».

ـ كما قلت لك، إنه أمر لا يمكن تفسيره.

ـ جيد، لنذهب إذن، قال كريستوريو.

اتجه نحو الشاطىء بخطى سريعة. في الليلة السابقة، ولكي يقوده إلى الشاطىء، أبحرت شيتا فيردي من تلقاء نفسها. كانت قديمة، والآن، بدأت حشوة القعر تهترئ، يجب ترميمها باستمرار، والهيكل مشوّه، والقماش تغير مرات عديدة، لونه الآن أزرق فاتح مثل سماء شهر آب. أكثر من ثلاثين سنة من الحياة في البحر ومن الارتباط والسحر. لشيتا فيردي نزواتها. حين لا تريد أن تذهب إلى مكان ما، كانت تعرف ذلك حالاً: تشخر، ترفض أن تتقدم، تصبح شبيهة بعلبة أحذية مرمية في الماء. منذ اليوم الذي تسلّمه فيه من العجوز ألينكاجور، لديه القناعة بأن لزورقه روحاً، روح كيرتيدي، مصنوع من الخشب ومن كل ما هو ضروري للإبحار. كم من الأصوات قد سمع في البحر، تعطيه النصائح؟ بيد أن البيانا لم تكلمه أبداً! أما هو، بالعكس، فكان يثرثر معها في كل رحلة يقوم بها، يمرر يده على إزارها، يداعب الألواح ويبدي لها حبه. كم من مرة أنقذته من مآزق خطرة؟ كم من مرة أبحرت وحدها، والريح معاكسة، بمواجهة العواصف؟

ـ شيتا فيردي، أريد ولداً منك. سيكون مثلنا: زورق ورجل.

ـ ذات مساء، قام باحتضان المقعد الخلفي وبقي هناك يحلم، منهوكاً من التعب؛ كان كما لو أنه فكر بالحب واحتضن جسم امرأة ـ كانت شيتا فيردي.

بالأمس، هي التي أعادته، بعد ليل المراكب الشبحية.

«الزورق، مثل المرأة، نعيش معها وعلينا أن نأخذها كما هي. هذا ما فكر به دائماً. شيتا فيردي لها طباعها، ومبالغاتها في الغيرة. يذكر ذات مرة، حيث أبحر على متن زورق لجواو بينغا،

لأن الأمر يتعلق برحلة صيد لعدة أيام ولأن الزورق كان جديداً، عند عودته، كان شيتا فيردي فوق الرمل مجمداً، أسير الجَزر.

ـ من وضع هذا الزورق على الرمل.

لم يجب أحد، ولم يعلن أحد أنه مسؤول. ارتاب كريستوريو بأن تكون عملية حرَدٍ لأنه أبحر على متن الزورق الآخر. اقترب من شيتا فيردي، وضع يده على تبطينها وقال:

ـ لا تكوني غيورة، أنت تعرفين جيداً أنه لا يوجد اثنتان مثلك. ذهبت فقط لأجرب زورق بينغا الجديد.

داعب جنبها فتولد لديه انطباع أنها ترتجف من الغضب.

ـ حسناً، سنتحدث عن ذلك غداً ـ هذا كل ما أستطاع أن يقول.

كانت شيتا فيردي مشرفة على نهايتها، مثله هو. رغم ذلك، لم يفكر لحظة أن يتخلى. زورق آخر، لكان باعه، أما هذا، فلا، أبداً.

ـ «ماذا يمكن أن يكون قد حصل؟ أحد ما قد أضرم النار عمداً؟».

تساءل كريستوريو في طريقه إلى موجوو.

ـ «ماذا جرى، ماذا يجري؟».

شيتا فيردي تحترق. ليس حريقاً مفتعلاً. المركب يشتعل بأكمله، كما لو أنه مبلل بالكيروسين، والنار قد قضت على الصاري، والشراع، والمقاعد، وألسنة كثيفة من اللهب تلتهم الآن الهيكل. يحاول الرجال رمي الماء لكنه كما لو أنهم يضعون وقوداً. النار تزداد ضراوة وتتصاعد نحو الأعلى. أمام هذا

المنظر، شعر كريستوريو أن قلبه يتمزق، فريسة ألم كبير. نزل إلى الماء وتوسل:

ـ حباً بالله، شيتا فيردي، لا تفعلي هذا. لقد شربتِ السم. لكن، ماذا فعلت أنا معك؟

اقترب أكثر من المركب المشتعل. بدأت النار بالنحيب، ولكثرة ما كان البكاء مشحوناً بإحساس مؤلم بكى الجميع أيضاً دون معرفة لماذا يبكون. ارتمى كريستوريو على زورقه الذي كان قد أصبح مجرد هيكل لا زال عائماً وهو يحترق. فسمع، للمرة الوحيدة، والأخيرة، صوت هذا الزورق الذي كان جزءاً من حياته:

ـ الوداع.

أغمض عينيه، وتلقى في عمق حنجرته، صدمة النحيب القاسية. الماء تغلي واللهب يتلاشى؛ لكن الزورق كان يختفي دون أن يترك إلا الرماد على سطح البحر الذي بلغ ارتفاعاً ما على طول الشاطىء. من أعماق قلبه واجه الواقع: «لم تتحمل أن تشيخ فانتحرت».

عاد كريستوريو إلى منزله، متمايلاً في مشيته.

ـ أيها القبطان كريستوريو، قال له بلبوينو، لم نر أبداً شيئاً مماثلاً. هذه النار، إنها أذية سحرية.

ـ في أي يوم نحن؟ الجمعة؟

ـ الجمعة، نعم.

ـ إذن، إذهب إلى الجيحم سيو بلبوينو! سبق وقلت بألا يناديني أحد بالقبطان يوم الجمعة. بالنسبة إليّ، إنه يوم لا أستطيع أن

أتحمل فيه بؤس الحياة. إذن أكرر: «لا تنادوني، قبطان»، يوم الجمعة.

مرة أخرى، إنه يوم جمعة حيث جاؤوا ليبلغوه عن مصيبة: وصول والد كامبورينا، موت جيرومينيو وحريق الزورق. فكر وهو عائد وحيداً إلى منزله: «الآن، وبعد أن أصبحت عجوزاً، بدون مركب، سيكون عليّ أن أصطاد لحساب آخرين». شعر بأن مياه البحر ليست هي التي تسيل على وجهه، إنما مياه أخرى، مياه الحياة.

ـ أبي، وصلت شيتا فيردي إلى هنا. إنها في بانكو فيليز. قالت إنك لم تعد تحبها وأنها ستموت غداً.

إنه صوت جيرومينيو.

ـ مع أنها تعرف جيداً أنني أحببتها دائماً. إنني لا أستطيع الابتعاد عنها. الآن أنا شخص هالك. أي دفة سأمسك؟ هذا ما كنت أعرفه جيداً. لم أعد أملك الوقت لأحصل على مركب آخر. في حياتي، لم يكن عندي سوى النهار والليل والبحر وزورقي. ها أنذا وحيد.

ـ شيتا فيردي حزينة، لكنها قالت إنَّ من الأفضل أنها ماتت قبل أن تتخلى عنها. لم يعد عندها القوى التي كانت في الماضي. الرحلة الأخيرة كانت مرعبة بالنسبة لها.

ـ جيرومينيو، قل لها أن ترجع، جيرومينيو.

ـ إنها ميتة، يا أبي، مثلي أنا. لكنها قالت إنها تركت الدفة. عندما يتراجع البحر اذهب واجلبها واحفظها عندك. طلبت إليّ أن أقول لك ذلك. في اللحظة ذاتها، عاد كريستوريو إلى موجوو

لينتظر الجَزْرَ الأقصى. في الخامسة صباحاً، استطاع أن يستعيد الدّقة المحروقة جزئياً، فحملها إلى منزله.

ـ استيقظي يا كامبورينا.

ـ ماذا هناك؟

ـ قتلت شيتا فيردي نفسها. لم يبق منها سوى هذه القطعة.

ـ هل رأيت يوماً زورقاً يقتل نفسه، كريستوريو؟ منذ أن ذهبت إلى السجن وأنت أبله.

وضع كريستوريو الدفة على الطاولة، أشعل شمعة عسلية وبقي واقفاً، بصمت. في ذلك اليوم، لم يتكلم مع أحد، ولم يذهب إلى موجوو.



XXIII

ـ قل لي يا أنطون كريستوريو: أأنت حيّ؟

ـ لا أعلم. أنا أحيا من الحياة.

ـ حسناً، أجلس هنا. سنتكلم قليلاً عن حياتنا، قالت كامبورينا.

ثمة مصباح مشتعل كان موضوعاً على الطاولة. في أكواخ القش، كان هناك بعض القواطع النصفية التي تفرق ما بين الغرف، ولا تحجب عوارض الصقالة وحمّالاتها عن النظر. هنا، كانا يعيشان منذ ذلك اليوم المشهور الذي جاءت فيه من غوارابيرا برفقة أختها جيرمانا.

ـ كان من الأفضل لك أن تتزوجي قريبك زيكيدو.

ـ اسمع يا كريستوريو، لا أعرف، لم أتزوج قريبي، لذلك لا يمكنني أن أعرف أي حياة كانت لتكون لي معه. بيد أننا نحن الاثنان، أنت وأنا، رزقنا بالعديد من الأطفال. منهم من مات، وبعضهم هنا، والبعض الآخر رحل. رحلوا جميعاً ليؤسسوا عائلاتهم. في الحقيقة، لم أعرف منك غير الانتظار حين تكون في

البحر. ليال ونهارات وأنا أنتظر أن ترجع؛ السمكة، البرش، التنظيف، التمليح. تلك الحياة التي هي حياتنا كلنا، نحن، تعيسات هذا الشاطىء، المسكينات.

ـ من «نحن»؟

ـ نحن نساء هذه الناحية.

ـ كامبورينا، نحن لا نحيا إلاّ لتأمين قوتنا. نحن بهائم تحيا. إنها الحياة التي أعطاها الله لنا. علينا تأمين المأكل ولا نعارض الأيام.

ـ لكنك أنتَ، لم تعرف ما معنى قضاء الأيام. بالنسبة إليّ كان الانتظار دائماً. رجوعك، الأولاد، البيت، النباتات التي زرعتها، الحنين إلى غوارابيرا، إلى أهلي الذين غادرتهم.

ـ لكن، هذه هي حياة الصيّاد. يحيا من القتل. يقتل السمك، يخدع، يتظاهر، يضع الشبكة، وهي ليست بشبكة، هي فخ منصوب لتقع فيه. نرمي الطعم، وهو ليس طعاماً يضمن لها دوام العيش؛ بل وسيلة للإمساك بها لتموت. نقتل، نبيع، نأكل، نعيش. نحن نحيا من هذا يا كامبورينا. هل تعرفين، أنت، ما هو العالم؟ أنا لا أعرف عنه شيئاً. نحن هنا، في موجوو، نحن مركز العالم. الله هنا، والشيطان معه. لقد سقط فوقنا من عليائه، عندما تملكت الروح الشريرة البشر.

ـ كريستوريو، غالباً ما فكرت بالرجوع إلى هناك. أريد أن أموت في غوارابيرا. ستهتم بالأولاد والأحفاد، أنت، مع جيرمانا. أما أنا فراحلة، أمي وأبي ماتا ولم تدعني أذهب. صرت الآن عجوزاً. أريد الذهاب والبقاء هناك.

ـ ها تشرين الثاني يحل يا كامبورينا. والأمطار تتساقط بالفعل. لقد قدمت الطيور المهاجرة، واجتاحت النوارس الصغيرة، الصغيرة على قائمتين، شواطىء كوروبو. إنها تركض فوق الرمل بالآلاف تاركة آثارها في الأرض، تأتي من الشمال، من بلدان بعيدة، على ما يقال، حيث البرد. تأتي بحثاً عن حرارتنا. طيور البلشون الصغيرة قدمت هي أيضاً، بقوائمها القصيرة ويقال إنها تجيء من بلاد سكنها الزنج. تأتي أفواجاً وأسراباً وتمكث في شجر المنغروف. البلاشين الصغيرة، السلاطعين، الأبو منجل، قدمت كلها. في كانون الثاني، يحين دور البط، الآن، والطيور قادمة، ليس هذا وقت الرحيل! الطيور المهاجرة تعود وأنت تريدين الذهاب؟ سألها، في ضوء الفانوس الشاحب.

ـ لا، ما أريده، هو الوصول. هنا، أنا لم أصل بعد يا كريستوريو. الشيطان هو الذي جاء بي ولم أفعل أي شيء عدا الإنجاب.

ـ كامبورينا، ينبغي أن أعترف لك: لقد جئت بك لأن ذلك كان قدرك.

ـ ما هو الحب؟ هل شعرت بالحب تجاهي؟

ـ لا، بل إنني لا أعرف ما يكون. لقد كنتِ لي، وهذا كل شيء.

ـ أنت تحب جيرمانا أكثر مني.

ـ نعم، أحب جيرمانا.

ـ لتكن لك الجرأة في قول ذلك.

ـ لا، لا أملك هذه الجرأة.

ـ مهما يكن، أنا أريد الذهاب إلى غوارابيرا.

ـ والأولاد؟ وأنا؟ وبيتنا؟ وحياتنا معاً لأربعين سنة.. أنت عجوز، والدوالي تملأ ساقيك لكثرة المشي على تلك الرمال. وأنا جلدي كله مفلّع حتى ليقال إنه النمل. إنه الزمن. ماذا فعلنا، نحن الآخرين، بالزمن؟ كيرينتي وحده لم يشخ، لقد راح كما جاء.

ـ كفى كلاماً على الزمن يا كريستوريو. الزمن غير موجود هنا، ونحن هنا، لنحسبه. لندع الأيام والليالي والأشهر والسنين وشأنها، ولنمشِ كما لو كان الأمر، أمر القمر والشمس. الزمن، شيء ندخله في رؤوسنا، نخترعه. أين هو يا ترى؟ كم عمرك؟

ـ ست وستون سنة.

ـ من الذي قال لك ذلك؟

ـ أبي.

ـ حسناً، أنا، أنا لي ثمان وخمسون ولا أعرف ماذا يعني هذا. أعرف أنه قد مضت أربعون سنة على مجيئي إلى هذا الجحيم.

ـ جحيم؟

ـ حياتي. هو الشيطان من أبقاني واقفة على رجليّ.

ـ أي شيطان؟

ـ هو يزورني، عندما لا تكون هنا.

ـ يا مسيح! لا تتفوّهي بحماقات إذا أمكن.

ـ إيه بلى، كما أقول لك، الشيطان. يأتي مثل طير، يُهوّي أرجوحة منامي بجناحيه الكبيرين، ويريد مضاجعتي.

ـ لم تكلّميني بأمره يوماً.

ـ لم أكن أستطيع. كنت صبيّة. الآن صرت عجوزاً، وقد توقف الشيطان عن المجيء. إنه لا يحبّ العجائز.

ـ وأنا يا كامبورينا؟ أنا عجوز، أنا أيضاً. وبدون مركب منذ حريق الشيتا فيردي. جيرومينيو مات. وباتِستا وأماداو، وباريكو وجانجار مثله. ديوزولين وأنيزيتي تزوّجتا، تودينيا لا تزال عزباء، تعمل في المدينة، ونحن هنا ننتظر الموت.

بقيا، هما الاثنان، بلا حراك. لم يكن لأعينهما القدرة على تبادل النظرات. فيما المصباح، بفتيله التلف، لم يعد يرشح غير ومض ينازع.

ظلّ آخر، تكبّله الحياة بدوره: إنه جيرمانا. جلست وسألت:

ـ سيو كريستوريو، أي سمكة تكثر أكثر من غيرها في مياه هذه المنطقة؟

ـ الكارانغ، يا جيرمانا.

ـ أريد أن أملّح سلة منها لأرسلها إلى غوارابيرا هديّة لابنة عمي كريوتيندا.

ـ موافق. سنفعل هذا غداً. أأنت سعيدة يا جيرمانا؟

ـ ما معنى أن نكون سعداء، سيو كريستوريو؟ هذه ليست سلعة نجدها في الدكان.

ـ معناها أن نكون سعداء يا جيرمانا.

ـ آه حسناً، أنا كذلك. لا أعرف ما معناه، لكني كذلك. لي أختي، لي البيت، ولي احترامك، ولي الله معي ومع الأولاد

الذين أنجبتهم.

ـ أتريدين العودة إلى غوارابيرا؟

ـ لا يمكنني العودة إليها. لقد ذهبت إليها في الماضي، أما اليوم فمطرحي هُنا.

ـ كامبورينا، لقد أصبحت عجوزاً، كي تتصرفي مثل عصفور عابر، قال كريستوريو. سنبقى هنا، حتى آخر أيامنا.

نهض كريستوريو، وأوت المرأتان إلى حجرتيهما. أما هو فتحرّك ناحية منامة كامبورينا.

ـ أنا تعبة يا كريستوريو. اذهب نم مع جيرمانا.

لم يناقش، ودلف إلى حجرة جيرمانا. الجسد الذي تركت عليه السنون بصماتها كان هناك، في أرجوحة النوم، تنتظر بعينين مغمضتين ذلك القدر الذي كان يسعدها. كان لجلدها ريح زهر اللؤلؤ، ومن شعرها، وقد دبت فيه الشيخوخة، تفوح رائحة زيت الشعر الشعبي مختلطة برائحة العشب البري.

ـ جيرمانا، هل سبق لك أن زارك الشيشول[1]؟

ـ أبداً، بتاتاً يا سيو كريستوريو.

نفخ كريستوريو المصباح، وتمدد ينشّق عميقاً عميقاً في أغوار نهديها وينتظر دوران المد الصاعد كي يبلغ به أعالي البحر.

---

(1) الشيطان.

XXIV

بموازاة ما كانت الأيام تمضي، كان أنطون كريستوريو، يشعر بها، وهي تلقي بثقلها عليه، أكثر فأكثر. كان حين يرقد ويتمدد، لدى عودته من البحر، ينتابه شعور بالتعب. كذلك كان حال رقبته. تقوست رجلاه، لكثرة ما بحث عن الإتزان إزاء ترنح الأمواج. في منزله، كانت الأشجار التي غرسها بيديه قد شاخت الآن. بدورها، شاخت عريشة الدّبّاء، وقد تحرشت فروعها. انقطع ثمرها. جذوع شجرة الجاكيه، أصبحت سوداء، قذرة من غبار السنين ومن الآثار التي تركتها جروف وجروف الأمطار. الأسيجة، اهترأت وتخلخلت، بعدما أصلحت وجدّدت مرات ومرات. من جديد، لم يكن هناك غير قفصي عصافير. من خواء أحدهما، وبابه المفتوح، كان يفوح عش الانعدام. طير السراب، الذي كان يعلن منه طلوع الشمس فقد صوته، وافترسته بومة، في القفص الثاني، ثمة تنغر أصفر صغير، حسن الغناء وأطراف ريشه ـ حيثما يفترض ـ ذات لون أسود، لإعطائه مظهره المميز. وقع في الفخ قبل سنوات، فلم يعرف معنى حقيقة الطيران. الآن، وقد أصبح طيراً بالغاً، لم يبق أمام كريستوريو، إلا أن يقدم له الحب

والماء. لذلك فتح أمامه باب القفص. لم يذهب. لقد عجز عن أن ينشد نشيد الوداع.

كذلك هي كامبورينا: عجوز جالسة هنا، على طنسفة جلدية. تنورتها بين الفخذين، ربلتاها محززتان بمرض الدوالي، قدماها ممزقتان من كثرة السير على الرمال. كبر الأولاد، أنجبوا بدورهم أولاداً، أسسوا بيوتهم الخاصة بهم، ولم يتبق منهم، بلا إنجاب، إلاّ مارزويلا، التي هرب زوجها ذات ليلة عاصفة، مختل العقل، ولم يعد قط. لم تنته حياتها، فهناك بعد، نداء من البحر، مهمة ينبغي لها أن تنجزها. وكامبورينا لم تنسَ غوارابيرا وكيف يحكون هناك بحزن عابق بالرقة. غالباً ما كانت تقول إنها ترغب في تمضية أيامها الأخيرة، على ذاك الساحل الذي تركته بفعل سحر. لم يعد كريستوريو يرفض هذه الفكرة، فالبيت يفرغ تدريجياً، وهو يفقد الميل إلى مباهج الحياة.

ـ نحن نفقد البشر، فما الدافع إذاً إلى حبّ الأشياء؟ كان يقول غالباً.

لقد تركت جيرمانا فراغاً كبيراً. والتعاسة التي ألمت به فجأة، حُفرت إلى آخر العمر في ذاكرته. كل يوم، يعاود رؤيتها في ذكرياته. لقد ماتت من جراء حادثة، وقعت في البئر، ولم ينتبهوا إلى ما حصل إلا حينما راحوا يستخرجون الماء. كانت المرأة الوحيدة التي أثارت فيه شعوراً مغايراً من ذاك الذي شعر به نحو كامبورينا. فلم يتوقف عن التساؤل: «أتراها عرفت ذلك». بعد انتحار الشيتا فيردي، أمضى سبعة أيام لم يغادر فيها بيته، كما لو أنه كان يلتزم الحداد. لا يكلم أحداً، بالكاد يأكل ولا ينام.

كانت عيناه حمراوين من نور المساء الهابط. وفي داخله، كانت ثمة معاناة تطحن له قلبه.

ـ لم تكن شيتا فيردي شيئاً، صرخ بغضب مخاطباً كامبورينا حين سألته عن سبب كل هذا الحزن.

ـ هيا إذن يا فقيري إلى العمل! ما معنى البقاء هنا، مع هذه الهيئة الشبيهة بهيئة غول ذئبي؟ أليس أنت من كان يقول إن علينا ألا نشعر بالحب نحو الأشياء؟ أجابته.

بات يتوجّب عليه، منذ ذلك الحين، أن يعمل مزيداً. فقد أصبح بلا زورق. وكل ما يملكه كان ذلك النزر اليسير من النقود المتأتي من بيع السمك لكيتيدو، التاجر الذي كان يتزوّد منه، وهذا لا يكفي لشراء مركب جديد. ثم أنه لا يشعر بالشجاعة لحيازة مركب آخر. فمن امتلك الشيتا فيردي، لا يسعه أبداً أن يمتلك «بيانا» أخرى. كان يمضي نهاراته كلها في كوخه، وهو يفكر بما سيفعل. أيعمل بالأجرة كقائد زورق؟ من ذا الذي لا يرضى بأنطون كريستوريو على دفة مركبه؟ لن يعدم من إبرام اتفاق. لكن هناك أيضاً احتمال أن يتوافق مع ملاكي زوارق على اقتسام الصيد، لأن الكل كانوا يعرفونه رجلاً شريفاً ويحترم كلامه. من ثم، إنه يعرف أين تقع أفضل أماكن الصيد، ويعرف الأوقات الأنسب لصيد كل جنس بجنسه والطعوم المفضلة، والشعاب التي تسلكها رفوف السمك، كما يعرف كل أسرار البحر.

ـ كامبورينا، إذا متُّ قبلك. إجمعي نتفة الفلوس التي لنا بذمة كيتيدو، بيعي المنزل واذهبي إلى غوارابيرا. ادفني عظامك الشائخة في بلاد أسلافك.

بيد أن ما كان ينهشه، كان ذكرى ذلك اليوم الذي قالت له فيه جيرمانا: «لم يعد بوسعي أن أكون امرأتك». لمَ اتخذت هذا القرار؟ لم تبح له بذلك قط. كانت تلك أول مرة يسمع من فمها جملة رفض، كلمة معارضة. لكنها كلمة خالية من الحدة ومن الضغينة. «سيو أنطون كريستوريو، لم يعد لهذا أي معنى». لم تضف على ذلك كلمة واحدة، وانزوت في الصمت. موقف جعله محتاراً، من دون أن يعرف بالضبط ماذا يفعل. ورغم كل شيء تمدد إلى جانبها «ألا تريدين يا جيرمانا؟»، لكنها لبثت صامتة. حاول أن يفرّق فخذيها، فأبقت عليهما مشدودين، وبعزم. لم ينجح في محو تلك الذكرى. والأرهب من ذلك كانت الفكرة التي أرجفته فور ذلك: «أتراها انتحرت؟». لم يكن لديه جواب يعطيه. وجرى الشك كتلك النار التي سبق والتهمت شيتا فيردي.

رغم الأسى الذي سببه له غياب جيرمانا، كان أمضى كل تلك السنوات من دون أن يغادر موجوو. كان جيرومينيو يتراءى له في الحلم. منذ أربع سنوات تقريباً وهو يحلم بالموتى كل ليلة. كان ميّتا جزيرة السلاطعين يعودانه ويحثانه: «أنطون كريستوريو، انهض، ها قد طلع النهار، اشرب قهوتك وهيا بنا نقطع القرام». والأحلام كانت حيّة إلى حد أنه كان يظنّ، أن أياً لم يمت. من ثم، كان نسيبه غاراتوزو، بصوته الأجش: «قبطان كريستوريو، قبطان كريستوريو، كارثة حلت.. قتلوا جيرومينيو». وفي النهار التالي، ولدى وصوله إلى الميناء في الطريق إلى الصيد، كانت تجتاحه رغبة مخيفة في قصّ أحلامه على أصحابه. لقد كان يقصها عليهم ويقصها حتى انتهى بهم الأمر، إلى الطلب منه: «قبطان كريستوريو، كفّ عن قصّ هذه الحكايات وعن الحلم بناس

ماتوا». فكفّ، نعم، لكن هذا لم يقطعه عن الحلم.

يوم الاثنين، بعد أسبوع ونصف على حريق الشيتا فيردي اتّخذ كريستوريو قراره. قبل ذلك ذهب إلى كامبورينا وسألها:

ـ برأيك، ما عليّ أن أشتغل الآن لأعيش؟

ـ اشترِ لك زورقاً جديداً. ما من أحد هنا سيرفض أن يبيعك واحداً: يعرفون جيداً أن كلمتك من ذهب. كيف لنا أن نعيش بغير ذلك؟ أنت لا تحسن أي عمل آخر عدا العيش مع البحر كما لو أنك متزوّج منه.

ـ أجل، لكن الجميع سيطلبونني كذلك كريّس مركب، وفق عقد. أليس كذلك؟

ـ في سنّك، تؤجّر خدماتك كصيّاد؟ أنت، أنطون كريستوريو، سيّد البحار، الرجل الذي لا يشرب، لا يُدخن، لا ينحلّ إذا شاهد تنورة، الذي لا يدين بقرش واحد لأيّ كان، أنت تصيد بالأجرة لتعيش؟ قليلاً من حب الذات يا ربّ!

تكلّمت واضحاً. وألحّ كريستوريو:

ـ كان لي أفضل زورق في طول المنطقة وعرضها، ما عدت أستطيع اقتناء واحد آخر. أترينني أخون شيتا فيردي الآن؟

ـ تحكي عليها كما لو أنها امرأة كنت تضاجعها. وهي كتلة، ألواح مسمّرة على صقالة، وزيادة على ذلك كله كانت لا تصلح لشيء...

ـ لا تقولي هذا. توقّفي!

بيدين مرفوعتين، وبنبرة ونظرة زائغتين أردف، وقد بات فريسة سخط قلّما شوهد عليه.

ـ كفى! كان أفضل مركب في طول هذا الشاطىء وعرضه، لا يحقّ لك أن تتكلّمي عليه هكذا.

ـ أصبحت لا أعرفك، كريستوريو. فأنت لم تصبرخ بوجهي أبداً بهذا الشكل.

ـ إيه، طيب، اليوم أصرخ.

ـ إيه، طيب، لا تعدها.

للمرّة الأولى لمحت كامبورينا عينيه الصغيرتين، المتعوّدتين على الانغلاق احتماءً من الرّذاذ والزّوابع، وهما تتفتّحان الآن كما لو أنّهما عينا قُجّاجة أعيدت إلى المياه العميقة، حمراوان ولا حياة فيهما. وأخذت دمعات كبيرة تسيل منهما، كما لو أنه كوبٍ دُلقت ماؤه، وانزلقت على امتداد أنفه لتقطر من ذقنه، بدون انقطاع.

ـ كريستوريو، ما الذي يجري لك يا عزيزي؟ أفهم أنك ستموت؟

وفي غمرة يأس جعلت كامبورينا تصيح:

ـ النجدة! النجدة!

بدأت بالبكاء، هي أيضاً، بعد أن استبد بها الرعب. بقي أنطون كريستوريو ثابتاً، يابساً، غائباً. لم يسقط أرضاً، بل بقي منتصباً، لكن عينيه، استمرتا في البكاء، والدمع الذي يسيل منهما، خضّب ثلاث فوطات أُحضرث لتجفيف ألمه.

مكث بعيداً يبكي بعينيّ فرخ. وهكذا بقي لفترة طويلة. ثم أنه، ومن غير أن يتفوّه بكلمة، تناول قبعته القديمة وانطلق باتجاه ميناء موجوو. كان قد اتخذ قراره. شاءت مارزويلا أن ترافقه.

ـ أنا ذاهبة معك يا أبي.

ـ «لا» أجابها بجفاء. وثبتت خطوته.

أطلعت كامبورينا ابنتها على أفكارها:

ـ أبوك فقد صوابه. ذاك المركب الذي احترق، السجن، الشيخوخة كلها خلخلت عقله. من الممكن جداً أن تكون هذه لعنة حلّت عليه. وربما كان الفاعل عدواً حسوداً، صبّ النفط على الهيكل، ولم يشتم الرائحة بسبب ما كان عليه. الآن، وبعد أن تلقى الضربة، وبعد كل أيام الاحتباس تلك، ها هو يدعوني إلى البكاء بعيني سمكة. لم يكن هذا دأبه يوماً.

ـ يجب أن نراقبه إذاً. ألا تظنين أن عليّ اللحاق به حتى الميناء؟

ـ لا يمكن لوالدك أن يدرك فعلتك. لكن ليس القبطان كريستوريو. فقد صار مع تقدم العمر به، عجوزاً ممسوساً شرساً.

ـ «صباح الخيرات» قبطان كريستوريو، بادره كيبرادو، صديقه العطار، عندما لمحه قادماً بخطى ثابتة. يسعدني أن أراك مجدداً بعد كل هذا الوقت.

ـ كنت مفتت القلب بعد الذي حصل لزورقي. شيء واحد لا يعرفه أحد. لكنها الحقيقة، ما عدت أملك الشجاعة على ألا أفعل شيئاً. اليوم، عدت واستعدت قواي، وها أنذا.

ـ هكذا إذاً ستشتري زورقاً جديداً، أليس كذلك يا قبطان؟ وسوف تعود إلى العمل، على أساس أن الله الرحيم قد خلقنا لنعمل؟ قال له البائع.

ـ لا، القبطان كريستوريو لن يقتني زورقاً بعد اليوم. هذه مسألة محسومة. لست برجل أتراجع عمّا قلت. لن أجد أيّة «بيانا» تأكل

هذه البحار مثل شيتا فيردي. كان لها معرفة بكلّ شيء. كانت تعلم كيف ينبغي التصرّف، وكانت تعرف البحر، وجروف الرمال وكلّ كلّ ما إلى ذلك. ستبقى في تاريخ هذا الميناء، أنا أقول لك هذا يا سيو كيبرادو. فالكل كانوا يعرفون جيداً أنها ما كانت تقلع من ميناء مرّة إلاّ بمرساتها، في أوان المدّ. بالنسبة إليها، ليس من فصول. فهي دوماً مستعدّة للإقلاع، شتاءً كما في الصيف.

وتقاطر أصدقاء آخرون ليلقوا تحية الصباح: زاكو، ديوديرو، كيترينو وماني ـ به. وشرعوا يستفسرون بدورهم: «ماذا يعني هذا يا قبطان كريستوريو؟ البحر بدونك لا يبقى له طعم! وأكثر منه عندنا!

ـ «والأمر مع ذلك هكذا» ردّ كريستوريو. لقد عدت اليوم، لكني ما عدت أريد اقتناء زورق لي، سوف أشتغل بالأجرة.

ـ من ذا الذي ستكون له شجاعة اكتراء خدمات القبطان كريستوريو؟ هذه مزحة! في أيّ أيّ مكان، عندما تأتي ستكون «الريّس» علّق ماني ـ به.

ـ لكني ما عدت أريد اقتناء زوارق. لقد رأيت حلماً، الليلة الماضية. كان الباتوكابو، ذلك العجوز الذي التهمه حوت الميرو في منتزه كانتو. كان يرتدي زيّاً كما لو أنّه ذاهب ليحتفل بالكرنفال. لكن ظهرت محلّ رأسه جمجمة جحش وراح يتكلّم...

ـ «قبطان كريستوريو» قاطعه ديوديرو، توقّف، دعنا من حكايات الحلم بأشخاص ماتوا.

ـ حسناً، توقّفت. لكني ما عدت أريد أن أكون صاحب زورق.

أنتم لا تريدون أن أقصّ عليكم أحلامي، وأنا ما عدت أريد اقتناء مركب.

ـ مفهوم، ولا أن تكون صياداً؟

ـ هذا لا، لن أتوقّف لحظةً قبل أن يأتي النمل ليلتهم شفتيّ.

وغيّر مجرى الحوار.

ـ كيف سار الأمر، مع هذا المدّ؟ سمك كثير؟

ـ «ليس عاطلاً. خاصة البونيت، والأسعار مناسبة» أجاب زاكو

كان الهواء يهزهز شجر القرام. وما لبث أن راح ليعنف قويّاً. فاستنتج كريستوريو:

ـ خبر سعيد يا أولاد. فها هو المدّ يطلع.



XXV

حلّ تشرين الثاني. ريح قوية تعصف وأمواج صاخبة، تؤرجح البواخر. بدأت العصافير المهاجرة بالوصول. تمر أسرابها، بحثاً عن ملاذ. الصيادون يصلحون الشِباك، والجميع سعداء بعودة كريستوريو. في الواقع، استمروا في الحديث عن حريق الشيتا فيردي على أنه قصة سحر، وميثاق مع الشيطان، ولا أحد كا‍ن يفقه شيئاً من الأمر، لأنها كانت ضرباً من المحال، الطريقة التي احترق فيها هذا الزورق، بينما كان في الماء. زواج الماء والنار. ثمة تعليلات، كانت تجري، بالطبع، من شاطىء إلى آخر، بيد أن السكان كانوا يجدون فيها، دائماً، مزيجاً من السحر والخرافة. وبرأي البعض، كان يمكن أن تكون وراء الحريق، روح سيرافيم الراغبة في الأذية، وهو زنجي، لم يشأ كريستوريو استبقاءه على متن مركبه. لقد غرق في مصب أراتاني، في يوم شديد المطر، حيث كان واقفاً في الزورق، ليستطلع الموقف، ويعر مثل ثور وحشي، لغاية أن انقلب المركب ولم يتبق سوى الدوامة. في اليوم التالي، كانت جثته، محشورة بين جذور شجر الشورى، وقد فقد ذراعيه.

قيل، في كل مكان، إن ما حصل لسيرافيم كان نتيجة لعنة القبطان كريستوريو، الذي لم يكن يحبه والذي يعامله على الدوام على أنه خامل وكاذب. بعد موته أخذ يظهر شبحاً في ليالي اكتمال القمر. كان يُرى هائماً، يقفز وسط جذور شجر المنغروف، فيتم إبعاده بواسطة رقيّة: «اذهب يا سيرافيم وارقد في أمان الله!» إذاك، كان يذهب، ليعاود الظهور بعيداً. وفي رواية أخرى، أن النار في الشيتا فيردي، قد أضرمها نيكولاو زعيم طائفة «ماكومبا»(*) في إيغواإيبا، كان يمارس السحر الأسود، وذلك بناء على طلب أنافريدو، صهر كريستوريو، الذي سبق للقبطان أن طرده من بيته، بالصفع واللطم والركل، لأنه لم يحترم حرمة البيت، إذ حاول إغواء أخت زوجته.

ـ سيو كريستوريو، قال له جوناس، بما أنكم لم تقتنوا زورقاً بعد، ولم تتخذوا قراراً بشأن ما تفعلون

ـ كلا، كلا، قراري اتخذ. .

ـ طيب، مفهوم. لكني كنت أرغب في أن أدعوكم للذهاب معي غداً إلى مونيم، لأحمل إلى هناك بعض البضائع. وسيشرّف مركبي أن يمسك القبطان كريستوريو الدفة. إنه مركب جديد، جيد.

ـ حسناً، اتفقنا. لا يمكنني البقاء طويلاً، دون أن أركب البحر. وها قد مضت عشرة أيام لم أتنشق خلالها غير غبار البر.

ـ إذاً، ستكون هذه طريقة لقتل الوقت، وطرد الغم.

في السادسة من صباح اليوم التالي، تلاقى كريستوريو وجوناس في الميناء. كان الزورق مجهزاً بملجأ مسقوف. اسمه الرسمي:

بروتيساو دا فيرجيم، لكنه كان يلقب: كوستيرا. تفحص كريستوريو الحبال والقلوع، والرافعة، واستعرض كل شيء. تحقق من قرعات الماء والمجاذيف، مثلما كان يفعل في زورقه هو. أما الحمولة فقد كانت على المتن قبلاً: بضع سلال من الملح، وأخرى من الطحين، ونفط، وصناديق صابون، وأكياس بن، وحقائب قديمة، وبالات كتان. كان القعر مليئاً، والحمولة حسنة التوزيع. أما المسافرون، فكان هناك امرأة وأطفالها الثلاثة، صبيّان وبنت، بالإضافة إلى الجدّ. وفيما يخص الطاقم، فاثنان، أحدهما يدعى روجيرو، المكلف بالصابورة، والثاني، بنويل، الذي يشغل مكانة المساعد. حمّلوا المركب ببرميل الماء العذب، وبالسمك المملح ودقيق المنيوت، وانتظروا بداية انحسار البحر كي يستطيع الرحيل. عند الثامنة، بدأوا يشعرون بالجزر، فسأل جوناس:

ـ أنستطيع الإقلاع، يا قبطان؟ ها أن البحر يهبط.

كانت المرأة مبحرة برفقة أولادها الثلاثة وأبيها، فاستقرت في الملجأ مع الأطفال، فيما طلب العجوز مكاناً له في المقدم وسط أكياس البن المغطاة بالحصر. وقدم روجيرو استعداده للمساعدة في القيادة وقال جوناس:

ـ قبطان كريستوريو، استلم الدفة وأعطي أوامرك.

ـ لننطلق بكلّ هدوء يا جوناس. ادفع بالمحجن، لنبعد الزورق عن الشاطىء. وأنت يا روجيرو ارفع المرساة. جوناس وبنويل امسكا حبل الشراع جيّداً، فسنرفع القلوع عمّا قليل.

وما أن ارتفعت المرساة حتى أخذ المركب في التقدّم. وجعل جوناس يجذب الحبل سعياً إلى رفع القلوع. كان ثمّة هواء قويّ،

لكنه في الاتجاه المعاكس، فكان لا بُدّ من التلوي، والمناورة للتقدّم بتعرج. ورغم كل شيء لم يطل بهم الوقت حتى خرجوا من القناة وبلغوا تيمبوبا. وكان المسرى، بفعل المدّ، عريضاً، فتطلب الأمر أن تمتد مسافة التلوي. وفي الأثناء انفجر أحد الصغار يبكي، فأخذ كريستوريو يدمدم:

ـ سوف نستمع إلى الموسيقى يا جوناس طوال الرحلة.

ـ إنهم من أهل كاشويرا، وجواو تيستا صاحب الشحنة طلب منّي أن أنقلهم إلى هناك.

ـ طبيعي، لكني لست متعوّداً. مضى وقت طويل على انقطاعي عن نقل المسافرين، فلا أسمع غير حفيف صمت البحر.

كانت الساعات تمضي، والرحلة تتواصل، ودوماً في تلوٍّ، إلى أن بلغوا أخيراً رأس باناكواتيرا. كان ذلك في نواحي الظهر، والبحر قد نزل كثيراً، فأخذت جروف الرّمال تطلّ ناتئة، وخط البحر يمتدّ على مرمى البصر وصولاً حتى رأس كوروبو، بحيث تعيّن عليهم التحوّل من لسان إلى آخر والالتفاف على جروف الرّمول ومحاذاة حرف إيكاتاو ليجتازوا بشكل مستقيم خليج باناكواتيرا وخليج سان جوزيه حتى مونيم. إنه مسار طويل. لقد كانوا يأملون بالوصول وقت ذروة المدّ التالي، نحو الثامنة مساءً. وعلى خلاف جوناس الذي كان يعشق الثرثرة عشقاً، كان كريستوريو، الحزين، الصموت، شارداً بذهنه إلى ذكرياته البحرية الخاصة.

ـ كريستوريو، أنظر جَرْف باناكواتيرا: بالنسبة إلى السمك، هو لا يساوي شيئاً. الذي يُغلّ كثيراً هو جرف كانتو، أو الراسپادور،

فبقدر ما يزداد الجرف كذلك يزيد السمك، في فصل الجفاف، كما في فترة الأمطار.

ـ الصيد، يا جوناس، لعبة حظّ. مِن جهتي كانت لي يد مبروكة، فليس لي أن أتذمّر. كان بوسعي دائماً أن أصطاد في المدّ الطالع، وفي النّازل، وما رجعت إلى البيت مرة إلاّ وأنا أحمل ما يكفي لإطعام العائلة كلها.

ـ وأنا بالمثل. يوم جئت إلى موجوو، كنت قد جزت كلّ شعاب ومسالك هذا الشاطىء. بدأت بآلة صنعتها بنفسي، نوع من مكمن صيد، أنت تدرك مقصدي. . .

ـ نعم، لقد فعلت هذا أنا أيضاً.

ـ لقد نصبت «موتا»(*)، نصبتها على هذه الجروف الرملية التي تنكشف عند أقصى الجزر؛ وهناك كنت أصطاد، بالقفّة والحربة، القروش التي كانت تحوّم حولها.

ـ أنا أيضاً يا جوناس أذكر هذه الطريقة. كانت لي «موتا» منصوبة على جرف كاريما، حيث كنت أصيد بالخُطّاف أكواماً من اللياء والأوريتنغاس، لكنّي ذات يوم، علّقت قرشاً جعلني أرى أشكالاً وألواناً.

ـ وأنا مثلك، خطفت اللياء بكميّات كبيرة، وإنما في ريمانسينيو، وهذا جرف كانت فيه بركة وأشجار، بل وأناس يعيشون عليه. كله اختفى الآن. البحر غطّى جرف الرمال. كنت أسمع دائماً أن البحر لا يحبّ النار، والناس هناك كانوا يشعلون النار، وزادوا في الإشعال حتى أطفأها البحر. عفواً، لقد قاطعتكم سيو كريستوريو، كيف جَرت، قصّة القرش تلك؟

ـ ممكن أنه كان في حدود الساعة الرابعة. كنت هناك أهمّ بإلقاء الشبك، والبحر طالع، حتى نصف متر من حيث أكمن، وأنا لا أتوقف عن إلقاء الشبكة ومَلْء القفة بالبوريّ. كان وقتها فصل الأمطار، وأنت تعرف كم أنّ شهر شباط جيد لصيد البوريّ. في تلك اللحظة رأيت زعانف ظهره في ذُرى الموج: كان يتبع رفّ السّمك. فذهبت لأرى وأقاتل. تركت الشبكة على جنب وتناولت الحربة. لم يطل الأمر يا جوناس: كان قرشاً من التيمور، من ذلك الجنس الذي يعوي عواء الكلاب، حيواناً غريب الأطوار يُغنّي تحت الماء كلّما انطلق في مطاردة السمك. تناولت الحربة بيدي واستعديت، عين على الموج، وأخرى في الماء تستدلّ عليه، وفجأة أطلّ أمام الموتا مباشرة، عائماً على حدّ الماء. قذفت الحربة، بكل قواي. فما كان منه، يا جوناس، وبأسرع من لمح البصر، إلا أن ابتلع الحبل كلّه؛ كنت مثبّتاً، لكنّه جرّني، وأسقطني عن الموتا، وها أنا في الماء، والقرش يجرّني وأنا أجري بالضبط مثل أنابْلِنْس على الشاطئ. وبما أنه كان مطعوناً حاول أن يرجع إلى عرض البحر، ولم يقدر. فقد تمسّكت جيّداً، وكانت تنفذ قواه. عندها ضيّع طريقه، وانتهى إلى الجنوح على اليابسة. ولمّا وقفت على قدميّ، كانت المياه لا تزال تغمرني حتى وسطي. ثم أنّي لففت الحبل حول بدنه وركّزت رجليّ في الرمل جيداً. تخبّط الحيوان قليلاً ثمّ همد. أحسست أنه على آخر نفس. رحت أتقدّم على مهل صوب الأرض الصلبة، خطوة خطوة، وبعكس التيّار، والأمواج تلطمني على فخذيّ، حتى وصلت إلى حرف الشّطّ، لا أتوقف عن جذب الحبل. وهناك صار بإمكاني أن أتبيّن أنه واحد من تلك القروش المحنكة التي يضرب لونها إلى

الرّماديّ الغامق، وظللت أجذب، مستغلاً تيّار الجزر، حتى تمكنت أخيراً من إيصاله إلى آخر ما تصل إليه المياه. ربطت الحبل بوتدٍ غرزته في الأرض، وبحثت عن واحد يساعدني على إخراجه. كان الوقت قد صار ليلاً. ورجعت مع غلامين فتيّين، خلاسيّ يُدعى زيه تيغو، وآخر أحمر الشعر، يدعى بونات. كانت سمكة طولها ثلاثة أمتار، حملناها إلى البرّ، وقضينا الليل بأكمله ونحن نقطعها. كمية لحم محترمة. كان منها نصيب لحشد من الناس.

تابع المركب طريقه بمنتهى الهدوء: كريستوريو على الدّفّة؛ والصغار يتناوبون في البكاء تحت الغطاء حيث كانت المرأة تلقم ثديها لأصغرهم وعصيدة ذرة للآخرين. أما العجوز فيدندن بصوت يكاد لا يُسمع. فيما جوناس كان جالساً على المقعد الخلفي، بالقرب من المقبض، وروجيرو مع بِنْويل في المقدّمة في معرض الرّذاذ. لم يكن الموج قويّاً إذ كان الجزر ينحدر، لكنه كان كافياً لرش المركب بالكامل.

- قل لي يا جوناس، هل تعرف أن القرش، عندما يكون جائعاً، يطارد البوري حتّى حرف الشاطئ بالذّات؟ ولهذا يحصل، من وقت لآخر، أن يُهاجم الإنسان، هناك. يصل السمك وهو في إثرها. وبما أن البوري يحبّ كثيراً السباحة في المياه القليلة العمق، فهو يتبعها. القرش النمر بالأخصّ. بعض منها يتعوّد فلا يُغادر الوحليّات، لتقتات بالللياء. زد على ذلك أنّ كل أنواع القروش تتصرّف بهذا الشكل. والأنواع هنا، لا تنقصنا: الأورومارو(*)، والسّاكوري(*)، وأبو منشار، والنمر، بخطمه المستدير، الذي يشتمّ مثل كلب الصيد، وإذا لم يحذر الإنسان

فمن الممكن أن يختطفه حتّى ولو كان على متن مركبه. هذا القرش لا يهاجم إلاّ من أسفل، بل من أسفل نحو الأعلى.

ـ أتعرف يا كريستوريو، قال جوناس، القرش الجائع يأتي حتّى المتن ليلتهم السرطانات.

كانت الريح تزداد شدّة. كانوا الآن في أعالي البحر، فلا شيء يحجب عنهم البصر، غير خيال في البعيد: تعرّجات الجزر التي تشكّل أرخبيل سانتانا.

ـ «طيبّ، قل لي يا رفيق» استدرك جوناس، ماذا لو تخلينا عن أخبار القروش هذه، وتكلّمنا قليلاً على النساء؟

ـ على النساء يا جوناس، وشيخين قد صرنا كلانا؟

وأردف كريستوريو بعد لحظة تأمّل:

ـ أنا، أظنّ أنه في الدّنيا كانت هناك دوماً خدائع بين الرجل والمرأة. ومنذ أن وُجدت الأرض. الرّجل يتخيّل أنه هو الذي يخدع المرأة، لكنّ المرأة هي أيضاً تخدع الرجل. هذا شيء يعود إلى الزمن الذي صنع فيه الربّ الرّحيم العالم.

ـ المرأة، سيو كريستوريو، مثل قماشة شيت. بعضهم يجدونها قبيحة، وآخرون يجدونها جميلة.

كلمة «شيت» جاءت كريستوريو مثل طعنة خنجر. فقد خطرت له في الحال، والأفكار تتداعى، قصة الشيتا فيردي. وأحسّ بحلقه يتشنّج، وبرأسه عالق بين كماشة، فلبث جامداً. وراح ينظر إلى البحر. رأى حيواناً أسود، أسمر، يخرج من الأعماق، وسط الأمواج المتلاطمة، يؤرجح برأسه من جانب إلى آخر، وهو يرذّ الماء كما لو أنه يشقّ في البحر طريقاً.

ـ جوناس، البيوك!

ـ أيّ بيوك يا كريستوريو بحقّ اللّه؟ عمّ تتكلّم؟

ـ هناك، أنظر إليه...

ـ أنا لا أرى شيئاً.

اضطرب القبطان كريستوريو بينما الدّفّة في يده، والقدم على حبل الشراع، وهو يدير مركبه مثل قائد أوركسترا أمام مقرئه، ويتحسّس الريح والبحر. فجون پاناكواتيرا في غاية الخطورة، ولا سيما وقت الجزر، إذ يكون عندها منثوراً بالعديد من الأرصفة الصخريّة، التي تتكشّف. كان يعرفها كلها. فكم وكم من المرّات عبر من هناك، في المدّ العالي أحياناً، وفوق الأعماق طوراً، وأحياناً في الجزر، أو بين المدّ والجزر. أخذت الأمواج الضخمة تعلو وتتلاطم في حركة البحر التي لا تنتهي. وراح الهواء يبرد أكثر فأكثر، وقد كان هادئاً ساكناً ثمّ صار ينفخ بشدة. فيما المياه، المخضَرَّة، تنقلب بيضاء حين تصدم بزبدها جؤجؤ المركب. فجعل البروتيساو دا ڤيرجم يترنح في كل اتجاه، من دون أن يمنعه شيء. وراحت المياه تجري من الجؤجؤ جرياناً إلى الكوثل.

ـ روجيرو وبِنويل، خذا القربة وفرّغا الزورق من الماء. الموج قويّ. هذا ما يحصل كلّما اجتزنا الجرف. لا وقت للمزاح هنا.

انزوى الجدّ صامتاً برعب كان يستحوذ على الجميع. فيما الزورق كالتّائه، يبدو بغير قيادة. والأطفال أخذوا بالبكاء وقد تشبّثوا بأمهم التي بدأت تتضرّع إلى اللّه وجميع قديسيه.

أعاد كريستوريو ـ في ذروة تيهه ـ الكرّة:

ـ إنه البيوك يا جوناس، إنه البيوك! سوف أنتهي منه.

مذعوراً وبحركة مفاجئة أفرغ كل قواه، في تغيير المسار، مطرِّفاً مقبض الدّفّة إلى اليسار، بحيث وجّه المركب على الوحش مباشرة. لكنّه في المناورة، والرّيح معاكسة، جعل المركب يهبط بشدّة في الموج، بدون أيّة فرصة للخروج منه ثانية. فحلّ الغرق الذي لا مفرّ منه. كان كريستوريو يعرف ذلك حقَّ المعرفة، لكنه في غمرة الهذيان ارتكب الخطأ الأوّل والوحيد طوال وجوده على دفّة الزوارق.

ـ إنه يمسك كيرتيدي من ذراعها... أنظر البيوك، هناك! صرخ كريستوريو، بعد أن انتصب واقفاً، تحت وطأة هذياناته.

ـ عد إلى نفسك يا ابن الملعونة! لا بيوك هنا، أنت تعرف هذا جيّداً! إذا استمريت هكذا فسوف نغرق.

البروتيساو دا ڤيرجيم في ضياع وشراعه يخفق من ضفة إلى أخرى، والليفارد يروح ويجيء من جنب إلى جنب، والحبل الملفوف حول ترس اللوح الخلفيّ، والمياه تجتاح كل شيء...

ـ أبعده من وجه الهواء! صرخ جوناس.

في تحركه الآلي، وبدون أن يكون واعياً لما يفعل، فقد كريستوريو السيطرة على المركب، الذي بات مجرّد بهيمة عمياء، مترنّحة في دفق الأمواج. كان المركب يغرق مترنحاً في كلّ اتجاه. يبرم مثل بلبل، وقد أثقله الشراع المثقل بالماء، كأنّه قشرة جوز مسكينة يستبدّ بها نزق الأمواج. كانت سفينته، «الإيغاريتيه»، مغمورة، والأمواج قلبت المركب رأساً على عقب، وحملت إلى السطح أكياساً، وسلالاً وحقائب ومقاعد. كان البروتيساو دا ڤيرجيم، وهو ينازع، يحاول أن يطفو. أمّا الولدان، اللذان كانا

في القمرة السفلية، فانقطع بكاؤهما؛ لم يكن لأحد أن يراهما، فقد اجتاح الماء كلّ شيء؛ وأمّا المرأة فكانت تصرخ صرخات يائسة، وهي تصرّ ابنتها صرًّا بين ذراعيها، ولا تتوقف عن التوسل لله طالبة عونه.

ـ لا يمكننا فعل أي شيء. سنغرق! صرخ روجيرو.

تأهّب جوناس لفعل ما يفعله الغارقون: اقتلاع الليفارد وما تبقّى من القمرة كي يحاولوا صنع طوف مرتجل من الحبال. كانت الحمولة قد أُلقيت في البحر، ألقاها الرجال أو الأمواج التي لم تكن في عنفها المتواصل تترك مجالاً للراحة. حتى أنه لم يعد هناك أي مجال في التفكير بإفراغ المركب من الماء. إذ أصبح حطاماً يغوص في الأمواج مثل جسم لا حياة فيه. أما بالنسبة إلى كريستوريو، فقد تملكه العته بشكل كامل.

ـ أيها البيوك القذر الذي تضاجع أمّك!

تمكّن جوناس من سحب الليفارد، لكن هذا ما كان لينفع في شيء. فالصّاري قد تكسّر، تحت ثقل الشراع المشبع، وبفعل حدّة الموج. والدعامة الأماميّة والحبل اختفيا. ومال المركب، واستسلم هاوياً لهول المأساة. ثم إن موجة أعنف قذفته نحو الرصيف الصخريّ، حيث تهشّم تهشيماً كلّياً. لقد حطّم البحر، بيده الخفيّة، كل شيء فيه، ونثر النّتَف على الصخور القاتمة. وظلّت بعض الأنقاض على وجه الماء طافية. فيما اختفى بِنْويل.

وزعق كريستوريو شاتماً:

ـ يا ابن القحبات يا بيوك.

كان الليفارد يمثّل أملاً بالخلاص. وأمام اقتراب الموت، كانوا

جميعاً يعلمون أنه للبقاء على قيد الحياة لا بُدّ لهم من استعادته واستخدامه كزورق مع ما تبقى من ألواح الإيغاريتيه.

تشبّث جوناس وروجيرو بالحطام. فيما المرأة تتخبّط، والفتاة الصغيرة متعلّقة برقبتهما. كانتا تغرقان، فتطفوان على السطح، ثمّ تختفيان لتظهرا من جديد. لم يفارق أذنيّ الأم صراخ الصبيّين اللذين لم يستطيعا الخروج من القمرة، فغرقا فيها تحت الماء. وكان الجميع في خطر أن يتحطّموا على الصخور.

ـ أولى القواعد الواجبة على الغارق: أن يخلع ثيابه كلّها.

ذلك كان كريستوريو الذي صاح من هذيانه:

ـ جوناس!

ولم يتأخّر في إظهار خبرته القديمة في شؤون البحر. فأسرع إلى تثبيت قطع من الخشب والحبال بالليفارد، المصنوعة من خشبٍ خفيف، لا يقبل الغرق، ثم توجّه إلى المرأة آمراً:

ـ تعلّقا أنتما أيضاً بالليفارد.

فامتثلت، ومثلهما فعل العجوز.

كانت الأمواج المتلاطمة تضرب بشدّة، خائرة مثل ثيران مجنونة في قطعان لا نهاية لها تتقاطر خلف بعضها البعض، أيضاً وأيضاً، في حركة الموج التي لا تتوقّف. الرياح كانت تعصف بشدة جالدة السطح بغضب مسعور. فكان الغارقون كالسمك النافق الذي ينقلب ويطفو ويطلع وينزل وفق مشيئة العناصر.

تلك كانت عندهم اللحظة الأصعب. فقد غرق ما تبقى من المركب، ولم يبقَ على السطح غير صناديق، وقطع من الخشب، ونُتف قماش، وجُثث.

ومجدّداً عاود كريستوريو الهذيان، معتوهاً. . .

ـ ها هو مجدداً، هناك، لقد اختبأ تحت الموجة؛ يظهر مجدّداً، يهرب. . . البيوك الزفت، ابن الشرموطة! اترك كيرتيدي! . . . سوف أقتلك. . .

في عينيه دمٌ، يأسٌ وحِقدٌ. حتى أنّه لم يتبيّن الحجارة أمامه، سوداء، مهشّمة، تحت سياط البحر المتفجّر. أخطار كان يعرفها حقّ المعرفة، في خليج باناكواتيرا، لكن لحظات الصحو كانت تتعاقب مع ثورات الجنون.

ـ الأمواج تجري صوب اليابسة! تشجّعوا! ما لم يقع الغارق طعماً للقروش، فباستطاعته البقاء حيّاً ستة أيام. ويمكن أن يمر مركب من هنا ليأتي لنجدتنا.

شيئاً فشيئاً أخذ ذعر اللحظات الأولى في التضاؤل. فقد غدا لزاماً عليهم الشروع بتنظيم الإنقاذ، والسعي خلف أضعف فرص البقاء.

ما من أحد منهم كان لديه ولو أدنى إحساس بالوقت المنقضي. فباتوا غير عارفين أين أصبح المدّ؛ وكان من المفترض أن يكون في طلوع. كانوا عائمين، ولا شيء غير ذلك: لا قيمة للساعات.

كان من المستحيل تبادل أيّ كلمة. ليس هناك إلا الإصغاء لهدير البحر. وإزاء تعب تلك الأجساد المهجورة باتت الأمواج لا تلقى أي مقاومة. وكان أن أجهشت المرأة بالبكاء، ومن الزفير تبدّى أن ابنتها فقدت قوتها، وكان الجدّ يلهث:

ـ سوف أموت. . .

ـ لا تفقد الثقة أيها العجوز!

ـ سيو كريستوريو، قال جوناس، التيار يحملنا نحو عرض البحر، أنا لا أمزح.

ـ طيّب، لكن بعد هذا، عندما ينقلب، سيعيدنا نحو اليابسة. ما يُفزعني هو القروش. فالغارق، ما أن يحرّك فخذيه، حتى يصير طُعماً حيّاً.

كانوا قد تعرّوا كلهم، والملابس قد حملها البحر بعيداً. فغدت المرأة لا تلبس غير سروالها الداخلي القصير، وابنتها كذلك. وإلى جانب الإثنتين مضت جثتا الصبيّين تواكبان الطّوف. وقد ظهرت أيضاً على السطح جثة بنويل التي كانت قد تحطّمت على الصخور.

ـ «يجب ألا نتهاون» نبّه كريستوريو. السمكة تحسّ بالأمر، حينما نضعف، تهجم عندها.

حلّ الليل.

ـ الصغيرة ماتت، قال كريستوريو، وهو يجسّ حلقها.

كان الجثمان كلّه رخواً وقد توقف عن تحريك أعضائه.

قد يكون منتصف الليل. علّق كريستوريو الجسد الصغير على الليفارد من إحدى ساعديه. كانت المرأة لا تتوقف عن البكاء المرّ، والعجوز لا ينقطع عن الترديد:

ـ سوف أموت...

ـ كُفّ عن الموت يا عجوز، قال كريستوريو.

ـ سوف أموت...

واندفع إلى ظهر ابنته، كانت يداه واهنتين وما عادتا تستجيبان لمشيئته.

ـ لا تدعي العجوز يتمسّك بك، وإلاّ فستموتين معه. يجب أن تدفعيه. دعيه يموت.

ـ إنه أبي.

ـ للأسف، دعيه يموت. وإلاّ أغرقك. لقد حلّت ساعته...

كانت المرأة تبكي، لكن الماء المالح لم يكن يتيح سيلان دموعها. كانت تتمنّى الدمع، وقد تورّم وجهها، لما فعلته فيه لطمات الموج. دنا كريستوريو منها وساعدها على التفلّت من العجوز الذي دفعه حتى الطرف الآخر من الليفارد.

ـ تمالك نفسك يا عجوز، تمالك نفسك جيّداً.

كان صوت العجوز قد استحال خافتاً رفيعاً، بالكاد يُسمع.

ـ سوف أموت...

وأخذ يبتلع الماء.

لم يتوقف كريستوريو عن الشدّ به، ليمنعه من التشبّث بعنق ابنته، لكنّه كان يرتدّ باستمرار إليها، وهي تتخبّط ساعية إلى الإفلات منه. واستمرّ هذا الصراع حتى أولى ساعات النهار. إذّاك ما عاد العجوز يتأوّه، أو ينبس ببنت شفة، وتفكّكت أوصال جسده.

وفجأة أحسّ كريستوريو بقميص تلتفّ حول عنقه، عرف أنها القميص التي رماها في البحر، يوم أبحر أوّل مرة، وهو بعد صبيّ، والتي عادت إليه في تلك اللحظة، تحملها قوى الأعجوبة.

تخلّص منها ورماها بعيداً.

ـ هل تسمع يا كريستوريو؟

كان الصوت صوت القرش النمر، كان يبدو كالكلب: تا ـ تا ـ تاتاتا، تراك ـ تراك، تاتاتا ـ تراك.

ـ هذه المرّة نحن هالكون. إنّها السمكة التي تتبعنا.

كان الليل يفسح مجالاً لأولى بوارق النهار. كثير من النجوم قد اختفى، وإذ يحصل وتتكسّر بعض الأمواج كان يمكن تمييز بريقها.

ـ لا تحرّكوا أرجلكم كثيراً. فهذا الحيوان المشؤوم لا يهاجم إلاّ من تحت إلى فوق. لقد قلت لكم هذا. نحن طعوم حيّة. إذا رآنا فسيعجّل، لا يهاجم إلاّ الفرائس الحيّة، ليس الجثث. والآن هو ينظر إلينا كصيد، وليس لدينا أية وسيلة للهرب.

مرة أخرى تناهى إلى سمع كريستوريو: تا ـ تا ـ تا. «إنّه مستمر في ملاحقتنا». فكّر.

ـ مات العجوز.

منتبهاً إلى القرش، لم يخطر في ذهن كريستوريو أن يربط الجثة بالليفارد. كانت طافية بمحاذاتهم، تواكب الغارقين الذين تحلقوا حول المرأة اليائسة التي لم تتوقّف عن أن تبكي جثّة ابنتها المعلّقة قربها.

ـ هل تسمع مثل ما أسمع؟

ـ نعم، أجاب روجيرو، بصوتٍ استبدّ به الذّعر. إنه القرش الذي وراءنا.

كانوا يعرفون جميعاً حقيقة كلب البحر هذا، الذي لا ينام، ويجوب الشاطىء، ويصطاد بشكل أفضل في الليل. وقد كان يرافقهم على طريق الموت تلك.

بقي كريستوريو متنبّهاً. وسرعان ما رأى زعنفة الظهر البارزة، وهي تشقّ السطح، راسمةً ثلماً تعكسه مرآة الماء، خطّاً فضيّاً في نور الفجر.

ـ هل تسمع يا جوناس؟

لم يقدروا إلاّ أن يروا مرور الحيوان وهو يجوس المكان، واشتمام رائحته المقزّزة.

«تا ـ تا ـ تا ـ تا...».

ـ أنظر إليه وهو يقرقع بقواطعه، قال كريستوريو.

رأوا الزعنفة التي كانت تشقّ الموج، حول الطوف، تاركة علامة على صفحة البحر.

على هذا النحو أمضى الصامدون التعيسون فَتَرَتَيْ الصباح وبعد الظهر، فيما ظلّت جثتا العجوز وبِنُويل طافيتين بقربهم. جثّتا الولدين أيضاً. وظهرت إشارات ليل جديد.

في تلك الأثناء رأى كريستوريو كُلاًّ من كيرينتي وأكيموندو يصعدان على متن «سفينة الختم الأحمر لشهر آب»، ورأى رأس كاريدينو، جيرومينيو وغاراتوزو.

«جيرمانا، لا تتركيني! لماذا قلت إنّه لم يعد لذلك أيّ معنى؟ كان يفوح منها عطر إكليل الجبل، وكان جسدها متيناً وعلى هذا الجسد عرفت الرّاحة كمثل الذي يتمتع وهو يبحر فوق اليمّ».

في تيار هذيانه تذكر موتاه جميعاً. تذكّر باتِستا، وعينيها الكبيرتين المحدقتين. فاريزينا؟ باسيو؟

وفي موكبهم سرى رفّ كارانغا. كانوا نصفاً في الماء والنصف الآخر فوقه، بينما أحصنة البحر، تتقافز مهتاجة، وهي تتألق بألف

لون، سريعة، صاهلة. والعظايات الخضراء والإغوانات كانت هناك هي أيضاً، تسبح وهي تجلد الماء بأذيالها الطويلة.

رأى كريستوريو بيته. كامبورينا تقتعد الدّكّة الصغيرة في ظلّ شجرة البلاذر. كانت تحمل على الركبتين أصغر أحفادها، رضيع ماريا دو ساو. شعره بلون شعر كيرينتي. تفرّس كريستوريو بعينيه: كانتا زرقاوين ضاربتين إلى الخضرة. لم يسبق أن لاحظهما أبداً. كانتا عيني كيرينتي. وكانت السرفات ترتقي الغصون، في حركة محمومة، ناقلة الغضار، بينما النمل يقرض الأوراق. الكلاب نائمة: لا يمكنها النباح. في كوروبو تهبّ الثيران فجأة، وقد استبدّ بها الذعر. تندفع إلى سدّ أوروبو وتغوص في الرّمال المتحرّكة. كان كريستوريو يهذي، وقد عاد إلى رؤية الموتى في الحلم. وفي هذه المرة كان أطفاله هو من مات في المنغروف. لكن ها قد ظهرت جثّة جيرمانا وهي تطفو من قعر البئر مقيّدة. «أتراها انتحرت، أو أنه حصل لها احتقان في الدماغ حين ذهبت لتنشل الماء؟» ملّس لها شعرها، تنسّم عينيها، غَنّج نهديها على كونهما قد ارتخيا مع تقدّم العمر.

«كريستوريو؟».

«لا تناديني كريستوريو يا سيو كيبرادو. اسمي هو القبطان كريستوريو، وهذا لقب استحققته عن جدارة، في البحر».

النهار يموت. وعندما رفعوا أنظارهم إلى السماء كان الليل يهبط. ثمة شراع أسود كان يغطّي الأرض. تطلّع مليّاً، ولم يكن ذلك هو الليل. كان سرب وشاح غمّاس أشبه بغيمة مثبّتة فوق رؤوسهم. وفي الأسفل، كان القرش النمر يطوف طوافاً دائريّاً

حول الجثث.

ـ لم يبق لنا إلاّ أن ننتظر الساعة يا كريستوريو. لا شيء سوى أن ننتظر. إنه يلاحقنا. منذ البارحة وهو لا يفارقنا للحظة. وها هو كما لو أنّه في ساحة قتال.

كانت المرأة لا تزال تتأوّه. وكان الكل يستمعون، دونما لحظة انقطاع، إلى تأوّهات الصبيّين اللذين غرقا. تأوّهات طفل، مديدة، تشبه مواء هرّ، وتحملها كلّ موجة تعبر.

وفجأة، أفلتت من روجيرو صرخة مزّقت حجاب الفضاء كأنها قصف رعد واصطبغ شق الماء بالدم. لقد نتش القرش قطعاً من جسمه، فلم يبق منه سوى جزء من الفخذ مع البطن.

ـ ها واحد يا كريستوريو... والآن سيكون دورنا. قال جوناس.

أحسّ كريستوريو بأنه يختنق، التفّت القميص مجدداً حول عنقه. تلك القميص التي سبق أن ألقي بها في البحر، وقد عادت بموجب ذلك التحالف القديم الذي أبرمه معها.

ـ سحقاً، إذهبي بعيداً عنّي! زعق. «لا ينقصني بعد إلاّ أن تأتي هذه القميص لتخنقني قبل أن يلتهمني شدق السمكة».

ألقى بالقماشة ثانية بعيداً وهو يردف:

ـ العارفون يرتعبون من الملابس.

اختفى القرش.

ـ جوناس، هذا الحيوان المشؤوم، ملأ جوفه، ويمكن كثيراً أنّه قد ذهب.

وعاد الصمت. وتلاشى الخوف والهمّ. بيد أنّه لم يَفُت المرأة أن تبكي إذ رأت جثة العجوز، على مقربة من الليفارد، التي كانت ابنتها الميتة معلقة فيها.

ـ اسمع يا جوناس، ها أنّه يعاود الغناء. أتسمع؟

كان الصوت هو التاتا ـ تاتا ـ بي ـ بي ـ بي ـ تارا ـ رِن ـ رِنْ رِن.

ـ تحسبه كلباً يعوي، إنه يواصل الصيد، وهو يدور ويدور حولنا وسط الدّوّامات.

ـ ها هو يا جوناس.

ولم يكن يُرى في البعيد غير الدوائر التي تضيق أكثر فأكثر والتي يرسمها الحيوان.

ـ كامبورينا، أحضري الشمعة لندفن جيرومينيو. أيها البيوك، يا ابن القحبة، أتركني، عجباً. عاينه! كيرينتي، قل لي كيف هو بحر غوالادوريه. أخبرني عن أولئك الزنوج الذين ضربت رقابهم. كامبورينا؟ جيرمانا، أعطِني صبيّاً آخر من بطنك. . . كامبورينا، هذه البنت من كيرينتي؟

كان كريستوريو يهذي. فيما الغرقى ماضون. من غير أثر للزمان أو المكان.

ـ جوناس، جوناس، أنظر البيوك.

لم يعد جوناس يجيب، فقد مات وهو مربوط بحبل القلوع. بينما القرش يعوي مثل كلب، وليس من يعرف إذا كان الوقت نهاراً أم هو ليل.

حملتهم الأمواج، وانحسر المدّ.

فتح كريستوريو عينيه. ومجدّداً عادت القميص لتلتفّ حول جسمه. كان لا يزال لديه من القوّة لينتزعها ويرفع ذراعه ويرميها أبعد ما يمكن. وفي تلك اللحظة رأى تلك الموجة السوداء العظيمة، الهائلة، العالية علوّ الجبل الأبيض، وهي ترفع أنقاض الخشب، ووسط تلك الأمواج العاتية انبثق حيوان مخيف أسود ييمّم نحوه مباشرة، لا يحيد مثل رصاصة بندقيّة. شِدْقٌ مشرّع، وصفّ قواطع، وعواء كلب: تاتا، تاتا، وعاوو تاتا. كان يسري بأقصى السرعة، يكبر باطّراد كلما تقدّم، والشدق فاغر لالتهامه. كان تنّيناً، وكان قرشاً. رمى كريستوريو القميص، التي عجز عن التخلّص منها، فسقطت مباشرة على هامة الوحش الذي أفقد البصيرة فانحرف صوب ذروة الموجة بتلك القماشة التي أعمت عينيه الباردتين وجعلته يضيّع وجهته.

واندفعت موجة أخرى شاهقة في الإغارة، فبلغت وهي تتدحرج، تتدحرج وتحمل كلّ الغرقى على ظهرها: جوناس الميت؛ والمرأة التي كانت تئن خفيضاً مثل هرّة تنازع؛ وجثمان البنت الصغيرة المربّط؛ وبِنويل الممزّق تمزيقاً؛ وجثّة الرجل العجوز الطافية؛ وروجيرو الذي بُقِر بطنه، وبُتِرت رجلاه؛ فضلاً عن عويل الصبيين الغارقين. أما كريستوريو الذي دُمِيَ إبطاه لفرط ما صدّ بهما الليفارد لئلاّ يغرق، فكان متورّم الوجه، على سحنة قمر، وقد انتثر شعره على الجبهة شعثاً.

ـ كيرينتي. أين سفينة المرحوم سان ـ إلمي؟ جيرمانا، هل أنت حيّة؟ باتِسْتا، أغمضي عيني الموت! يا ابن القحبة يا البيوك.

وراح كريستوريو يخاطب روحه، ويحلم بالموتى: أمامه، كان هناك كريسانتو، كريسانتينو، سيرافيم، غاراتوزو، جيرومينيو،

كاريدينو.

ـ شيتا فيردي، لا تفعل هذا، لا تقتل نفسك!

ثمّ علا اللهيب في هذيانه وعلا، فيما الموجة العظيمة تجري بأقصى السرعة، وحملت في جريانها القرش، الذي أعمته القميص، لتلقي به على الرّملة، حيث كانت تلك الأجساد المتمزّقة قد جنحت.

أحسّ كريستوريو بلطمة على صدره. ولمّا انفجرت الموجة واندثرت خرج منها وهو يتدحرج على الرمال. كانت رحلته قد بلغت منتهاها. فقد كان ذاك شاطئ كاريما في جزيرة كوروبو.

ـ كم الساعة؟

لكنّ الزمن لم يعد موجوداً. واحترقت الأجساد وتحلّلت.

*

شاء كريستوريو أن يفتح عينيه. كانت العتمة أشد من عتمة الليل. السّواد المطلق. فلم يكن للأشياء ولعالم الظلمات من شكل.

«كريستوريو؟ كريستوريو؟».

أمكنه أن يلمح بارقة على الأمواج، التي انفتحت لتفسح المجال لطريق يجري فوقها مركب مرفوع جؤجؤه، ذو شراع جديد، وهو يشقّ عباب الموج: كان الشيتا فيردي. وفي إثره ملايين من أحصنة البحر، أجسامها خارج الماء، تصهل بجنون وقد أخذ بها الخيال، وهي تخلّف في البحر أمواجاً.

«كريستوريو؟ كريستوريو؟».

اقترب المركب. كان الليل يمضي من حالك إلى أحلك. غير أن شعاعاً من النور أضاء كلّ شيء. وانبرت يدا امرأة رفعتاه إلى خارج الماء.

«كريستوريو، ها أنذا قد تخلّصت إلى الأبد من أحاجي السحر.

انها كيرتيدي، في مقدّم البيانا، بعمر الصبا، وتنوّرة من اليت، وسروال قصير عليه زهور، وعلى عنقها بومة سوداء، تجثم برفق، عرضة لهوى رياح تشرين، وعلى فخذها الأسمر ريشة أبو منجل، حمراء قانية.

«انتظاري كان حزيناً جداً طوال ذلك التيهان بين اللجج التي لا نهاية لها».

استدار كريستوريو كي يرى صورة قوامه هو. لقد رجع به الزّمن. شاب، قويّ، الصياد ذو اليدين العجائبيّتين، ملاّح توكاناندييا الضخم.

«كريسنوريو، اسمعني! هذه أنا، جيرمانا. لقد جئت أبحر إلى جانبك».

كانت عيناها تشبه تلك العينين الحزينتين لمّا غادرت غوارابيرا. وجهها شابّ. ومن جسدها يضوع عطر تلك الليلة الأولى، عطر الباتشولي وعطر الشهوة.

ثلاثتهم في المركب، الذي يتأرجح ويهتزّ كما لو أنه يرقص رقصة عيد، قيامةٌ وهللويا.

«في أيّ يوم نحن يا جيرمانا؟».

«الجمعة، سيو كريستوريو!».

«شيتا فيردي تبلع مياه كلّ البحار!».

«كريستوريو؟» نادت كيرتيدي، بصوت شخص بقي أخرسَ قروناً في أعماق البحر، بل بالأحرى بزقزقة تزاوج عالم الغرائب.

«كريستوريو، لا! قبطان كريستوريو...».

لقب منبثق من البحر الذي لا حدّ له، سفينة خالدة، سيّد اللجج، سيّد كل البحار، شبح الليل في امتداد الأمواج تلك.

ثم أقلع إلى عرض البحر.

فهرس الشخصيات

أردوتو : والد كامبورينا

أرمينديو : زوج ماريا دي سيو

أكيموندو : شخصية تعود إلى عدة قرون تجسّد الزمن وتروي قصص الماضي.

اليشافي : ابن أخت انطون كريستوريو

ألينكاجور : صانع زوارق صيد (بيانا) في سان جوزيه دي ريبامار

أماداسيو : ابن كريستوريو

أماديو: ابن كريستوريو

أميراندو : مواطن من موجور.

أنافريدو : صهر كريستوريو الذي طرده من المنزل

أنطون كريستوريو : صياد من موجور، المسمى القبطان كريستوريو، لقب استحقه من البحر.

انطونيو · صياد من سان جوزيه دي ريبامار.

أنيزيتي : ابنة كريستوريو.

ايزيدورو كويباو : والد أنطون كريستوريو

باتِستا : ابنة كريستوريو، توفيت طفلة، عيناها مفتوحتان.

باسيو : صياد، صديق ديمتريو.

باستياو : رفيق الصيد لكريستوريو

باربيكو : صياد عجوز غَرق وأنقذه انطون كريستوريو

بالبوينو : مواطن من موجوو وجاء بنبأ حريق شيتا فيردي.

بايشينيو : صياد على قارب كوستيرا

بينويل : رئيس النوتية على متن إيغاريتيه بروتيساو دافيرجيم.

تانديتو : ابن انطون كريستوريو.

توريندا : «عجوز» حضّرت ناتيفيداد لولادة كريستوربو.

تيرنسيو : عم جيرومينيو

جوزافا : صياد، اغتصب دوراليس

جوليو : «رجل ثقة» لملاّكي جزيرة كوروبو.

جوناس : صيّاد مالك ايفارتيه بروتيساو دافيرجيم.

جيرترودس : «الجدة السوداء» التي تتلو صلوات الأموات.

جيرمانا : أخت كامبورينا رافقها عندما اختطفها كريستوريو.

جيرومينيو : الابن البكر لكريستوريو الذي اغتاله كاريدينو.

جيرونسيو : مواطن من موجوو يلعب دور كازومبا في
: توفيلياتمو - بوي.
جيمينيانا : خالة كامبورينا وجيرمانا، ذات سلطات سحرية.
درسدينا : زوجة كاراتوزو ابن عم كريستوريو.
دوراليس : ابنة كامالياو، صياد في جزيرة كوروبو.
ديميتريو : صياد مات غرقاً في أنسياس.
ديوديرو : صياد صديق كريستوريو.
ديوزولين : ابنة كريستوريو البكر.
روجيرو : بحّار بروتيساو دافيرجيم، التهمته سمكة قرش اثر غرق ايغاريتيه.
زيه دو كاسكو : كائن خرافي، يسكن البحر، يمارس اللواط مع الصيادين.
زيه دونغا : عشيق ديوزولين ابنة كريستوريو.
زيفيرينا : مواطنة من موجوو، والدة تانديتو.
زيكيدو : خطيب كامبورينا الذي تخلّت عنه من أجل كريستوريو.
سانتيدادي : ابن عم كامبورينا «عشيقها» عندما كانت مراهقة.
سيرافيم : أسود، مات غرقاً
سيتيمبرادا . والدة كامبورينا وجيرمانا
غاراتوزو ' ابن عم وصديق كريستوريو.
فاريزينا : أخت جيرومينيو - ماتت وهي طفلة.

فاوستينو : منظم حفلات وأعياد في موجوو.

كاريدينو : زوج ماريا دينا وقاتل جيرومينيو.

كاماليااو : صياد على شاطئ كاريما اغتصب جوزيفا ابنته.

كامبورينا : زوجة انطون كريستوريو التي خطفها في قرية غوارابيرا

كريزيو : عطار في موجوو.

كريوتيندا · ابنة عم كامبورينا وجيرمانا وغوارابيرا.

كورفينو : حلاق في موجوو

كيبرادو : تاجر من موجوو وصديق كربستوريو.

كيرينتي : رفيق كريستوريو، تجسيد الجندي ديوغو دي سيشاس، رُمي في البحر في العام 1589 في «أراضي الدخان» (شاطئ موزامبيق).

ماريا داس أغواس: مومس في إيغواإيبا.

ماريا دينا : امرأة من كاريدينو، عشيقة جيرومنييو لليلة واحدة.

ماريا كيرتيدي : صبية يحبُّها كريستوريو، فتش عنها ثلاث سنوات بعد أن اختطفها وحش بحري (البيوك).

مانويل ابن كريستوريو الذي يعمل في المدينة.

مانويل جواو : ابن آخر لكريستوريو موظف أيضاً في المدينة.

ناتيفيدادي : والدة انطون كريستوريو.

معجم الكلمات

امباوبا : شجرة من فصيلة التوتيّات؛ نوع من الانتيل يدعى بشكل مبتذل خشب المدفع أو خشب البوق.

امبيرا : تسمية مشتركة لأنواع جنبية متنوعة تستعمل قشرتها الليفية لصناعة الحبال.

انديروبا : شجرة من فصيلة الازدرخت، ينتمي إليها أيضاً الاكاجو؛ انها التي يستخدم خشبها للنجارة والبناء.

اورومارو : نوع من القرش.

اوريتينغا : اسم مناطقي، من أصل بلدي، لسمكة لم تحدد بشكل دقيق؛ يبدو أن الأمر يتعلق بنوع من الباغر، بطنه أبيض مرقط بالأسود ومتوسط طوله خمسون سنتيمتراً.

ايغاريتيه : زورق المناطق الشمالية في البرازيل أكبر من البيانا، وأصبح اليوم مزوّداً بمحرك وبقمرية في المؤخرة؛ حمولته بين طن واحد وطنّين.

باباسو : نخليات تشكل أحد الموارد النباتية الطبيعية الأولى لمارانياو (حوالي ثلاثة أرباع انتاج الجوز الوطني، الذي يؤمن زيت الطعام والتشحيم؛ النخل والكافور ومستعملات أيضاً بشكل واسع).

بابيستا : باغر صغير من المنغروف، مفترس جداً على الأرجح.

باغر : تسمية مشتركة لأنواع مختلفة من الأسماك العظميّات الشبيهة بسمكة الجِرِيّ، من فصيلة التاشيسوريدي (المياه العذبة والبحرية) خاصة: (الباغر الأصفر) طوله الوسطي 40 سم، لكنه يمكن أن يبلغ متراً واحداً.

باكوري : شجرة ارتفاعها بين خمسة عشر وعشرين متراً: من فصيلة (سنط) ذات ثمرة كثيفة اللبّ.

بيانا : مركب شراعي صغير، لصيد الشواطئ، نموذجي في مارانياو، مقدمة مرتفعة نوعاً ما. (طوله: من 6 إلى 10 أمتار).

بومبا ـ ميو ـ بوي: لعبة شعبية مثيرة، من ميزات التوفيقية الثقافية البرازيلية بشكل خاص؛ يقتصر عرضها، في شوارع المدينة والقرية، بتشجيع من عدد من الشخصيات التقليدية، والكائنات البشرية أو الخيالية والحيوانات، على سلسلة من المشاهد والرقصات التي تنتهي بموت أو

بقيامة الثور (بوا)، البطل الحقيقي للمشهد. انها دون شك، المظاهرة الأهم والأكثر نموذجية لفولكلور مارانياو.

بيكوي : شجرة من فصيلة الكاريو كاراسيه ذات خشب أصفر.

بينابو : حبال مثبتة على قمة صاري البيانا، يتعلق فيه بحاراً مثبتاً قدميه على الهيكل، وجسمه خارج الزورق، لكي يوازن مفعول مَجْنَح السفينة.

طامبوريل : شجرة كبيرة في الغابة الاستوائية الرطبة من فصيلة القرنيات، مظهرها جميل لكن خشبها بدون قيمة.

تيمبيرا : سمكة صغيرة لا قيمة لها.

ديامبا : اسم آخر للماكونيا أي القنّب الهندي (معادل للماريجوانا المكسيكية... وغيرها).

سارنامبي : تسمية لعدة رخويات ذوات الصفدتين، قريبة من بلح البحر، لكنها مكوَّرة أكثر منها.

ساكوري : أحد أنواع القرش المتعددة التي تتواجد على شواطئ مارانياو (انه أيضاً أحد أسماء الأناكوندا).

سورولينا : طائر يشبه الحجل إلى حد ما.

سيو : تحريف شعبي لكلمة سنيور، لا يستعمل إلاّ قبل الاسم (أو أمام اسم الشخص في أكثر الأحيان) ليدل على نوع من الاحترام؛ ان

اصطلاح التهذيب الذي ينظم العلاقات الاجتماعية، بالغ التعقيد والدقة.

شوت . موسيقى ورقص شعبي نوردستي، لا يزال ممارساً في بعض المناطق الريفية، حسب بعض خبراء الفولكلور، ان أصله اسكوتلندي.

غواندي : شجيرة من فصيلة الصمغبات تعطي عصارة صفراء وخشبها ثمين جداً للبناء؛ انها شجرة القرام الأصفر في جزر الانتيل.

غوارانيا : موسيقى ورقص من الباراغواي، سميت هكذا تكريماً لشعب الباراغواي.

غوريبو : نوع من الفورجوبا.

غوريجوبا : باغر بحري ضخم، ذو لون يميل إلى الأصفر.

كانتادور : ليس مغنياً، وانما مؤلفاً ـ ملحناً بشكل خاص، راوي حكايات شعري، شاعر شعبي، أو منشد وشاعر بطولي غنائي أو تروفيري من النوردست.

كوراكانغا : حسب المعتقدات الشعبية، كرة من النار تائهة تظهر عامة في ليل يوم الجمعة، ويمكن أن تكون إمّا رأس عشيقة كاهن ما أو رأس ابنته السابعة.

ماكومبا : مجموعة طقوس افريقية برازيلية، شبيهة بالسنتيريا الكوبية، وبشكل ما بالفودو

الانتيلياني.

موتا : تعبير مناطقي، يشير، كما جاء في النص، إلى ما يشبه المتراس، أو بشكل أدق، إلى دكة صغيرة من الخشب يشيدها الصياد أمام الدفق أو على ضفة ساقية ماء أو على الرملة.

موريسي : تسمية مشتركة لعدة أنواع من مثل البيرسونيما (فصيلة الملبيفاسّيه)؛ يسمونها من غيَّانا موريبه.



في هذه الرواية، التي تمزج الاسطورة بالواقع، تثير جوزيه سارنيه، بموهبة عالية، مناخ شمال - شرق البرازيل: صيادو مارانياو، اناس قساة وبسطاء، ذوو شغف بدائي، يحتفلون بالبطل كريستوريو، سيد البحار. فمنذ السادسة من عمره عرف هذا الأخير، وهو يواجه العاصفة، عالم المراكب الخيالية التي كانت تخيم على ظلمات وأجواء وأسرار البحر وصديقه كيرنيت، العائد الخارج من المياه، والذي يرافقه سيواجه كل المخاطر، على متن زورقه. سيبا فردي، يقضي كريستوريو حياته فوق المساحات البحرية الشاسعة، مياه الله والشيطان. كل ذلك يجري في جو من الخيالية الغنائية الذي يعطي الكتاب قوية السردية والشعرية.

وكما كتب جورجي أمادو: «في معرض انتقاله من القصة الى الرواية عرف جوزيه سارنيه أن يحافظ على مستوى الكتابة الرفيع، وإنما باضفاء نضج في المفهوم والانجاز لا نجده غالبا في الانتاج الادبي في بلادنا»

«في ظل قلم جوزيه سارنيه، استعدت المذاق واللغة التصويرية وخاصة النوعية الانسانية العميقة لسكان البرازيل».

كلود ليفي شتراوس

«جوزيه سارنيه هو روح كوني حقا، مما يعطيه سهولة القرب من الثقافة الفرنسية»

موريس دروون

